القطوف

صيد المقالات الجزء الأول

ليلى حمدان

د.ليلى حمدان

القطوف

صيد المقالات (الجزء الأول)

للكاتبة الدكتورة ليلى حمدان

إصدارات يقظة

المحتويات

السيرة النبوية من الجانب الذي لا يراد لنا أن نعرفه عن رسول الله........................11
أبصر طريقك لمحمود شاكر: الولاء للدين لمواجهة كيد التبديل..........................41
كيف تخوض معركة النفس الأشد والأخطر........55
كيف يضبط القرآن النفس البشرية طول فترة الاستضعاف..68
كيف نحول مداد العلم إلى مداد العمل..........79
الفوز والنجاح: مفاهيم يجب أن تُصحح..........95
مفاهيم عن الوحدة يجب أن تُصحح...........107
حتى يُغيروا ما بأنفسهم، قد وعينا فمتى ننطلق؟...118
تسع خطوات عملية للتغيير، فمتى ننطلق.......128
27 قاعدة لإدارة الوقت والتوفيق بين الاجتهاد الديني والأعمال الدنيوية........................138
حين يكون لسان الحال أبلغ من لسان المقال....148

من تاريخنا نبني مستقبلنا العز بن عبد السلام سر من أسرار النصر 159

قصة موسى: معالم الصراع بين الحق والباطل (الجزء الأول: قبل التمكين)..........171

قصة موسى: معالما لصراع بين الحق والباطل (الجزء الثاني: المواجهة مع الطاغوت)...............192

قصة موسى: معالم الصراع بين الحق والباطل (الجزء الثالث: التمكين)..................212

معالم أساسية مختصرة في صناعة الأجيال المنتصرة231

مفاهيم عظيمة لتربية مستقيمة...............244

مدرسة التغريب المصرية وانتشار دعاوى التغريب...256

أبجديات النقد: سيد قطب مثالا.............268

كيف رفض المفكرون الغربيون الديمقراطية.......288

تجارب الإسلاميين مع الديمقراطية: الطريق المسدود308

تجارب الإسلاميين مع الديمقراطية: رغم هذا لم نستوعب الدرس.............................319

مراجعة كتاب "ما وراء الديمقراطية"............337
آن الأوان لتحطيم آصار علماء السوء...........377
شبهات انتهت صلاحيتها: جريمة كبرى.........389
شبهات انتهت صلاحيتها: لم يعد من عذر.....400
حين ترسم سنة التدافع مصير هذه الأمة.........412
وقفاتٌ مع الهجرة النبوية.......................420
فقه الأولويات... أولويتك !......................428
كيف تبني ذاتك وتطور مهاراتك؟.................440
إن لكل قوم عيدًا وهذا ليس عيدنا.............453
بين قيادة العلماء وقيادة الإعلاميين..............462
من الحلول المهمّشة: العمل التطوعي..........476
منظومة الأخلاق في خطر!.......................485

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدم مؤسسة يقظة جمهرة لمقالات د. ليلى حمدان على جزئين، الأول منهما يتناول المقالات الدعوية والتربوية والمنهجية، نُشِرتْ سابقًا في مجلاّتٍ مختلفة، منها تبيان، ومنها يقظة، ومنها البيان. بينما يتناولٍ الجزء الثاني المقالات السياسية والتاريخية وقضايا الصراع.

نرجو أن يكون في تقديم هذه القطوف من صيد المقالات مساهمة في صناعة الوعي وميراثا للأجيال المقبلة.

والله من وراء القصد.

فريق يقظة

1

السِّيرة النَّبويَّة

من الجانب الذي لا يُراد لنا أن نعرفه عن رسول الله ﷺ

هناك جانب يُراد لنا أن لا نعرفه عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فالنَّبيُّ لم يكن درويشاً ولا "راجل بركة" ومع ذلك نشاهد في الواقع مواقف معيَّنة في السِّيرة النَبوِيَّة نسمعها تقريبًا في كل خطبة جمعة وكل لقاء تلفزيونيٍّ لشيخ، وهناك مواقف أخرى يستخدمها السَّاسة لتبرير مواقفهم وخذلانهم، وعلى النَّقيض من ذلك هناك مواقف عظيمة تمَّ تغييبها لما يبدو أنَّهم يخجلون من ذكرها أو يخافون.

ليس بدعًا من القول أن أعتبر معرفة المسلمين في هذا الزَّمان بنبيِّهم قاصرة ضعيفة غير كاملة، وأنَّ نظرتهم إليه لا تعدو نظرة سطحيَّة تسبَّبت في الكثير من التَّراجع والخلل في مسيرة الأمَّة.

فبدل أن تكون سيرة خير الأنام قدوة أُولى ونموذجًا أوْلى للدِّراسة والاقتداء، بما تحمله من تكامل المفاهيم والنُّظُم

الحياتيَّة التي تدخل في كل جزئيَّة من بناء الفرد إلى بناء المجتمع إلى بناء الدَّولة، اقتصر الاهتمام بالسِّيرة النَّبويَّة في جوانب بعينها وتمَّ تحييد الأخرى رغم أهمِّيتها أو تمَّ التَّعامل معها برؤية أحاديَّة مقتطعة لا رؤية شاملة متلاحمة.

فرغم حجم الاهتمام بسيرة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم والأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة لا يزال هناك تقصير في طريقة عرضها مما أدى إلى تغييب شخصية الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم من حياة المسلمين كمثال ملهم وقدوة مرشدة في جميع مجالات الحياة. وبدلًا من ذلك حصر الاهتمام بهديه صلَّى الله عليه وسلَّم في فقه العبادات والسُّلوكيَّات.

هَدْيُ النُّبوة شَامِلٌ

وهدي النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هدي قائد أمَّة كاملة، يقدِّم منهجًا تقوم به الدُّول وتُساس به الشُّعوب وتزدهر به الحضارات وتسابق به الأمم.

وما هذا الإغفال لهذه الجوانب المصيِّريَّة في نموذج القدوة إلاَّ لتعامل سطحي مع تفاصيل سيرة الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم العميقة وعدم القدرة على كشف ارتباطها الوثيق بواقع أمَّته عبر الأزمنة والعصور المتتالية.

وإنَّه لمؤسف بشدَّة أن نجد عامَّة الأمَّة الإسلاميَّة لم تتعرَّف بعد على رسولها محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم حقَّ المعرفة. ولا

يتعدَّى معرفتها بنبيِّ العالمين مواقف معدودة، تعكس جانبًا منفردًا من النموذج النَّبويّ، ينحصر غالبًا في الأمور الاجتماعيَّة.

ولا بدَّ من تصحيح هذه الصُّورة الأحاديَّة الرُّؤية، ومن تسليط الضَّوء على شخصيته كقائد بجميع صفاته التي اجتمعت معًا لتقدم النَّموذج الأفضل للاقتداء في هذه البشرية.

خطورة التَّقصير في معرفة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم

وتكمن أهمية هذا الطَّرح في أن القصور في معرفة التَّصور الكامل لشخصية النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ينعكس على أداء المسلمين، ويتحول إلى قصور آخر في الاتِّباع والتَّطبيق لنبيِّهم صلَّى الله عليه وسلَّم الذي أمرهم الله سبحانه باتِّباعه واتخاذه أسوة حسنة قال تعالى (**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) وقال سبحانه (**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**).

ثمَّ إنَّ المعرفة الكاملة برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، تتجاوز ذلك الاقتداء بالمظاهر وتحوله إلى اقتداء به كنموذج كامل لتحقيق كفاءة منشودة في أداء هذه الأمَّة.

ولم يتعدَّ اهتمام منابر الدَّعوة العامَّة إبراز شخصية النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الجانب الأخلاقي بتغييب مؤسف لكفاءة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في بناء أمَّة وقيادتها سواء كان ذلك في مراحل الضَّعف أو القوةَّ.

وما يزيد من عمق الأسف أنَّ نماذج أخرى يتمُّ تداولها للاقتداء بها بين المسلمين كالقائد الفرنسيّ الشَّهير نابليون بونابرت أو السَّفاح الألمانيّ أدولف هتلر أو الآباء المؤسِّسين للولايات المتَّحدة الأمريكيَّة على اعتبار أنَّهم الأقرب لحاجة الجماهير لنموذج يقدِّم الكفاءة المطلوبة لسير الحياة والمجتمعات.

إنَّ دراسة السِّيرة بتأني وعمق، تكشف السِّتار كاملًا عن سيرة أعظم قائد فذٍّ متفرِّد لا نظير له في أيّ ميدان قيادة.

وهي واجبة كونها تقدَّم حياة أكمل النَّاس بتفاصيلها الهامَّة، وكونها استجابة لأمر الله سبحانه، ثم لعصمة الله له صلَّى الله عليه وسلَّم، وللعبر التي في حياته، ولأنَّها أساس الفلاح والنَّصر.

النموذج الكامل للكفاءة القياديَّة

فرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد حباه الله بكلِّ صفات القيادة المهمَّة، إداريَّة وسياسيَّة وعسكريَّة واجتماعيَّة، متميزًا بذكاء وعلم وبصيرة وبُعْدُ نظر وقوَّة ذاكرة ونشاط وهمَّة ملهمة ما كان سببًا في صناعة حبَّه لدى النَّاس ومن جعله قبلة المسلمين ومحور اهتمام الكافرين.

وتناوبت سيرة الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم بين اتِّباع أوامر الوحي والاجتهاد فيما أوكل له من اجتهاد فبرز كمخطِّط استراتيجيّ لصناعة مجد أمَّة.

إنه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الذي حمل قلبًا مفعمًا بعاطفة الإنسان الفطريَّة التي أودعها الله فيه، والتي لم تمنعه من كشف شخصيَّته كقائد ومربِّي ومقوّم لمن حوله. فجمع بين قلب الإنسان المؤمن الرَّحيم وبين قلب الإنسان القائد المصلح في ذات الوقت، وإنها مرتبة لمن الصَّعب الوصول إليها إلا بتحمُّل مسؤوليَّة القيادة على أعلى الدَّرجات.

ثمَّ إنَّه لمن أوجب الواجبات على كلِّ مسلم، الرَّجوع إلى النَّموذج النَّبويّ للاقتداء به في صناعة مشاريع الحياة الصُّغرى والكبرى على حدٍّ سواء.

فالدَّعوة إلى عقيدة التَّوحيد، وشرائع الإسلام، والتَّربية الإيمانيَّة والأخلاقيَّة، وإقامة حكم الله ودولة للمسلمين كل هذا لا يقوم دون معرفة كاملة بنبيّ الله وسيرته صلَّى الله عليه وسلَّم.

فسيرة النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم هي العقيدة دعوة واستجابة وهي الشَّريعة إلزامًا والتزامًا وهي التَّربية تربُّيًا وتربية، وهي إقامة حكم الله عزَّ وجلَّ في الأرض دولة وسياسة بل هي كل قضايا الإسلام.

تَصحِيحُ مَفاهِيم

وإنَّ أحد أبرز أسباب تخلُّف المسلمين عقـديًّا ودنيويًّا، هـو اعتبارهم سيرة رسـول الله صـلَّى الله عليـه وسـلَّم مجـرد روايـة يستأنسون بها، بينما هي في الأساس علم كامل بأبوابـه وفصـوله المتَّصلة.

فالسِّيرة "علم دقيق، علم في روايتـه وإسـناده وضـبطه، علم في مدلولـه وفقهيَّاتـه ودلالتـه على علـوم الإسـلام من عقائـد وغيرها".

وقد قدَّم النَّبيّ صلَّى الله عليـه وسـلَّم أمثلـة شـاملة لجـوانب الكمال البشريّ.. في تعامله مع زوجاتـه ومـع أبنائـه وبناتـه ومـع أحفاده وأقاربه، ومـع الجـيران والضُّـيوف والمستضـيفين، ومـع خواص أصحابه، ومع شرائح اجتماعيَّة مخصوصة، كالمسـلمين الجدد، والمستفتين، والأعراب، والعصاة المـذنبين والمنـافقين والشَّـرائح العامَّة في المجتمـع. ومنهـا تعاملـه مـع عمـوم النِّسـاء وكبار السِّن والصِّغار وذوي العاهـات وذوي الهيئـات والنـابغين والأغنياء وأصحاب البلاء والفقراء والمتخاصمين والأعـداء بـل وغير البشر، كالجنِّ والدَّواب.

وأهمُّ مـا يُقْتَـدَى بـه من سـيرة رسـول اللـه صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم: القـوَّة في طاعـة اللـه تعـالى وعبادتـه، ثمَّ كـثرة ذكـره للـه وشدَّة تضرُّعه ودعائه له سبحانه مع هذه القوَّة في العبادة.

فهـو رسـول اللـه صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم الـذي جمـع بين خشوعه وبكاءه عند ذكر الله من جهـة وبين قـوَّة العمـل للـه من جهة أخرى.

رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم

فقـد كـان رجلًا يـدرك شـؤون المجتمـع وشـؤون النَّفس البشريَّة إدراكًا حكيمًا، يزدان بكفـاءة إداريَّة وسياسـيَّة وعسـكريَّة واجتماعيَّة، صاحب لأصحابه، زوج لأزواجـه، أب لأبنائـه، جـدٌّ لأحفاده، رحيم بالضعفاء عادل مـع الرعيَّة، قائـد معلِّم لجيوشـه ومتَّبـع للشَّـرع مـع القـريب والبعيـد، مبصـر لمكـامن الخطـر ومفاصل القوَّة في الفرد كما في نسيج المجتمع.

إنَّه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد كساه جمال الرِّجال، واكتمل وسامة ومروءة، تتفجَّر العظمة من ثنايا مظهره، وهو مع ذلـك إذا التفت إلى أحـد، لم يلتـف إليـه بطـرف عينـه أو بزوايـة بسيطة بل يُقْبِلُ عليه ويلتفت إليـه جميعًـا، ممـا يـؤثِّر في نفسـية المتلقي فتنفرج أساريره ويأمن ويسكن له.

فزرع بذلك أوَّل درس في الاحترام والاهتمام بمن يحـاوره، ثم أردف روعـة الإقبـال روعـة أخـرى في فنِّ الحـوار، حيث لم يقاطع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أحـدًا يتحـدَّث معـه، بـل ينصت للمتحدِّث باهتمـام حـتى ينتهي من حديثـه، ليجيبـه بعـد ذلك بأجوبة مستوعبة له دون أن يطيل الكلام.

وانعكست آثار همَّته صلَّى الله عليه وسلَّم على سكونه وحركته، فكان إذا سار كأنَّه منحدر من صبب، دلالة على نشاط حامل الهمِّ والمسؤولية، الذي يمشي لهدف واضح، ومشية الرَّجل لها بصمة خاصة بشخصيَّته، وكان سيِّد الخلق صلَّى الله عليه وسلَّم يمشي مشية الوقور المهاب تبعث في صدر النَّاظر التَّقدير والاحترام، كما أنَّها مشية رياضيَّة تبعث في الجسد النَّشاط والحركة له ولناظره.

ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم جمع بين الهيبة والبشاشة، متبسِّم الوجه يحبُّه من يلقاه، يظهر جليًا اهتمامه بمظهره وشعره وعطره ولباسه فلقَّن الأمَّة دروسًا في صفة ظهور المسلم وتهذيبه، بالمواقف العمليَّة البصيرة.

"وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ"

ومن قرأ سيرة الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم لاشك لامس ذلك الخلق الرَّفيع والنَّموذَجُ القرآنيُّ للأخلاق السَّامية، فقد كان مشهد النَّبيّ بمظهر حسن وثياب بسيطة غير متكلِّفة، يزدان بتاج من الأخلاق ترسم الهيبة حوله. متواضع خفيف الجناح. لم يترك تفصيلًا في السُّلوكيَّات إلاَّ وضبطه بروعة الأداء، فقد علَّمَ المسلمين آداب الطَّعام والسَّلام والخروج والدُّخول والطَّهارة وما يتَّصل بحياتهم ونشاطاتهم اليوميَّة بما فيها

حالات الاستثناء الخاصَّة من يوم الولادة إلى يوم الدَّفن حتى التَّثاؤب.

قال تعالى: (**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**).

لقد كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حريصًا على سنن الفطرة فكساه الطُّهر جمالًا بعد جمال، وهو مع ذلك متواضع لله إذا لَقِيَ الرَّجل يسلِّم عليه لا ينزع يده من يده حتَّى ينزعها الآخر.

قدوة في كلِّ مضمار

كان يمرُّ على الصِّبيان فيسلِّم عليهم، وكانت الجارية تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت. وكان صلَّى الله عليه وسلَّم يَخْصِفُ نعله ويُرقِّع ثوبه، ويحلب شاته، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويجيب دعوة من دعاه ولو إلى أيسر شيء ويعود المريض ويشهد الجنازة ويركب الحمار ويجيب دعوة العبد.

قال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من أحسن النَّاس خُلُقًا. فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبيُّ الله. فخرجت حتى أمرُّ على صبيان وهم يلعبون في السوق. فإذا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد قبض بقفاي من ورائي. قال رضي الله عنه: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال صلَّى الله عليه

وسلَّم: "يَا أُنَيْسُ أَذَهبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟" قال رضي الله عنه: قلت نعم. أنا أذهبُ يا رسول الله. فما أجمل هذا الحِلْمَ!

وكان صلَّى الله عليه وسلَّم قدوة في الشَّجاعة، فعن مسلم عن البراء بن عازب قال رضي الله عنه: "كُنَّا والله! إذا احمرَّ البأسُ نتَّقي به وإنَّ الشَّجاع منَّا للَّذي يُحَاذِي به". يعني النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقدوة في الجود والكرم، فعن ابن عبَّاس قال: "كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أجود النَّاس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيُدارسه القرآن فلرسول الله أجود بالخير من الرِّيح المرسلة".

وقدوة في الخشية والخوف من الله، فعن مُطَرِّف عن أبيه رضي الله عنه قال: "رأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يصلِّي وفي صدره أزيز كأزيز الرَّحى من البكاء".

وقدوة في الزُّهد في الدُّنيا والتَّنزُّه عن مكاسبها. فكان صلَّى الله عليه وسلَّم يحثُّ أصحابه على الزُّهد في الدُّنيا والتَّعلُّق بالآخرة بينما كان يحجُّ على رَحْل رثٍّ وقطيفة لا تكاد تساوي أربعة دراهم.

وقدوة في الثَّبات مع اليقين بوعد الله. فقد روى البخاريّ ومسلم عن أبي إسحاق عن البراء قال له رجل: يا أبا عمارة ولَّيتم يوم حنين! قال: لا والله ما ولّى النَّبيّ ولكن ولّى سرعان

النَّاس (أوائلهم) لقيهم هوزان بالنُّبُل. والنَّبيُّ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنَّبيُّ يقول: "أنا النَّبيُّ لا كَذِب أنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِب".

وقدوة في الصَّبر على النَّاس والعفو عن المسيء وقد جاء وصفه في التَّوراة (ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخَّاب بالأسواق ولا يدفع السَّيِّئة بالسَّيِّئة ولكن يعفو ويصفح).

وقدوة في كثرة الاستغفار والتَّوبة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: "والله إنِّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة".

وقدوة في العبادة، عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبيّ كان يقوم من اللّيل حتى تتفطَّر (أي تتشقَّق) قدماه فقالت عائشة رضي الله عنها: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: "أفلا أُحبُّ أن أكون عبداً شكورًا".

كان قدوة في التَّطوّع وقراءة القرآن وقدوة في ذكره لله سبحانه فقد كان يذكر ربَّه في كلِّ أحيانه قائمًا وقاعداً وماشيًا وراكبًا وسائرًا ونازلًا.

وقدوة في الحجِّ، وقدوة في الجهاد وسائر عبادات القلب والجوارح.

جَوانِبٌ من حياته العمليَّة

والاقتداء بالنَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يقتصر على صفاته المعنويَّة بل يتعدَّى ليشمل الاقتداء في جوانب حياته العملية فهديه في ذلك أكمل هدي يقتدي به المسلم.

ففي الطَّعام والشَّراب لا يردُّ موجودًا ولا يتكلَّف مفقودًا. وما قُرِّبَ إليه شيء من الطَّيِّبات إلَّا أكله، و(ما عاب طعامًا قطُّ إن اشتهاه أكله وإلَّا تركه).

فعلَّمنا آداب الطَّعام عند الأكل وحال الفقر والغنى. وفي النَّوم والاستيقاظ، وفي الكلام والسُّكوت والضَّحك والبكاء.

كان صلَّى الله عليه وسلَّم طويل السُّكوت ولا يتكلَّم بشيء في غير حاجة وإن تكلَّم فجوامع الكلام، وكلامه فصلٌ لا فضول ولا تقصير، وكان لا يتكلَّم فيما لا يعنيه ولا يتكلَّم إلا فيما يرجو ثوابه وإذا كره الشَّيء عُرِفَ في وجهه.

ضحكه التَّبسُّم، بل كلُّه التَّبسُّم ، فكان نهاية ضحكه أن تبدو نواجذه.

يضحك صلَّى الله عليه وسلَّم مما يضحك منه ويتعجَّب من مثله ويستغرب وقوعه ويستندر فتقبل عليه القلوب مستبشرة.

بكـاؤه تـارةً رحمـة للميِّت وتـارة خوفًـا على أمَّتـه وشـفقة عليها، وتارةً من خشية الله تعالى، وتارةً عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبَّة وإجلال مصاحب للخوف والخشية.

قدوة في خطبته، فيخطب في كلِّ وقت بمـا تقتضـيه حاجـة المخـاطَبين ومصـلحتهم وكـان يقصـر خطبتـه أحيانًـا ويطيلهـا أحيانًا بحسب حاجة النَّاس.

قُدوَةٌ في المُعامَلات

باع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم واشترى وآجر واستأجر وشارك غيره فكان قدوة يُقتدى به في معاملات المال والتِّجـارة وشَهدت له بذلك أمُّنا خديجة رضي الله عنهـا ومن تعامـل معـه من قبل أن يُبعث نبيًّا حتى لُقِّبَ بـ"الأمين"، ويروى أنَّه قَدِم عليه شريكه قال: أما تعرفني؟ قـال: أمـا كنت شـريكي؟ فنعم الشَّـريك كنت لا تداري ولا تماري.

يعود المريض ويشهد الجنازة ويجيب الـدَّعوة ويمشـي مـع الأرملة والمسكين والضَّعيف في حوائجهم وسمع مديح الشِّـعر وأثاب عليه.

حليم رحيم بالصَّغير والكبير، تبصر في سيرته الفقـه العظيم في التَّعامل مـع المخطئ والمقصِّـر والمسـيء. وتأمَّل قـول أنس بن مالك رضي الله عنه حيث قَالَ: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟

وترك صلَّى الله عليه وسلَّم مع أمِّ أيمن وزيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، معاملات رفيعة المرتبة ودروسًا من الفهم اللَّبيب وحسن الاستيعاب والحكمة.

لقد قدَّم لنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلم نماذج ضروريَّة جدًا في فنِّ التَّعامل مع النَّاس على اختلاف مراتبهم الدنيويَّة، وحاجاتهم وظروفهم، فكان كلُّ درس عظيمًا يشعرنا بدرجة الضَّياع التي وصلنا لها.

ومواقف إحسانه واستيعابه للخدم ولأهله لا تزال منارات مشرقة في عظمة مكانته صلَّى الله عليه وسلَّم.

فقائد معركة بدر الكبرى يستمع لقصة أمِّ زرع ليؤنس زوجته رضي الله عنها.

وقائد فتح مكَّة تزوره صديقة خديجة وهو عند عائشة رضي الله عنهما، فتقول: أنا جثَّامةُ المُزنيَّةُ فقال: بل أنتِ حسَّانةُ المُزنيَّةُ كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ فقالت: بخير بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله. فلمَّا خرجت قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: "يا عائشة إنَّها كانت تأتينا زمان خديجة وإن حسن العهد من الإيمان".

أقـام دولـة للإسـلام امتـدَّ نورهـا إلى اليـوم ولم يكن يجـد مشكلة في أن يعـترف بحبِّه لزوجتـه، فقـال عن خديجـة إنِّي قـد رُزقت حبَّهـا. وتـوفي صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم ورأسـه على صـدر زوجته عائشة رضي الله عنها.

هــو النَّبيُّ العظيم الـذي لم تشـغله همـوم الدَّولـة والغــزو والجهـاد وتجهـيز الجيـوش ونشـر الـدَّعوة في العـالم وإرسـال الرَّسائل إلى كسـرى وقيصـر ومتابعـة الأمـور العظيمـة لم يشـغله ذلك عن مراعاة مشاعر زوجاته واستيعاب غيرتهنَّ وحاجـاتهنَّ. فقـدَّم دروسًـا من فنِّ التَّعامـل مـع الزَّوجـات في كـل مواقـف الأزواج في الشِّـدة والرَّخـاء. ونشـاهد مراعاتـه صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم الأحـوال النَّفسـية والطِّبـاع الشَّخصـيَّة ودون أن يكـون في هذه المراعاة أثر سلبي في إحقاق الحـقِّ.. كمـا في قصَّـة عائشـة رضي الله عنها حين غارت فكسرت قَصْعَة الطعام التي أرسـلتها إحدى أمَّهات المؤمنين "فجمع النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم فِلَـق الصحفة ثم جعل يجمـع فيهـا الطعـام الـذي كـان في الصـحفة" ويقول:"غارت أمُّكم"... ونلاحظ كيف كان رد رسول اللـه صـلَّى الله عليه وسلَّم المشعُّ بالحكمـة:"غـارت أمُّكم"، عنـدما أخـذت طبق الثمر الذي أرسلته له الأخرى وهو في بيت عائشـة. فـألقت بـالطبق فانكسـر.. فضـحك رسـول اللـه صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم لغيرتهـا. ولكنـه في نفس الـوقت أمرهـا بـأن تـأتي بطبـق آخـر وتجمع الثمر فتغسـله فيأكلـه ثم يـأمر أن تعطي طبقهـا للأخـرى بدلاً من الذي كسرته.. ويحدِّد رسول الله صلَّى اللـه عليـه وسـلَّم

بذلك منهجًا عامًا في التعامل مع النِّساء والتَّعامل مع النَّفسيَّات دون إضرار بميزان الحقّ.

وكيف لا يكون له هذا الشأن وقد ربَّاه الله سبحانه تربية خاصَّة، وصحَّح له المقاييس وأرشده لخيرها، وجاءت المواقف كالدُّروس تصحِّح فهم الأمَّة وفهم الرَّسول للأخلاق التي يرضاها الله، كما شاهدنا ذلك في سورة عبس، وليس تصحيحًا لسوء خُلُق أو قلَّة خُلُق حاشاه.

وتأمَّل هذا الموقف من سيِّد المرسلين، وقصَّته المشهورة في غزوة الخندق حين كان يربط على بطنه حجرين بدل الحجر الواحد وكان يعمل مع صحابته في الغزوات وهو القائد مردِّدًا: (ما أنتما بأقوى منِّي، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما).

تكامل شخصيَّته وقدراته

لقد كان النَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم يدعو إلى الله بكلِّ طريقة، فيستعمل القوَّة مع من يناسبه مدخل القوَّة، واللِّين مع من مفتاحه اللِّين، والسِّياسة مع من مفتاحه السِّياسة، وتأليف القلوب مع من تُؤَلَّفُ قلوبهم، ولذلك فإنَّه ترك أثر شخصيَّة قديرة تتمتَّع بالكفاءة والموهبة في سياسة العامَّة.

وإنَّ إمامة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم للأمَّة لم تكن لخُلق دون خُلق بل هو إمام في قوَّته وفي عِلْمِه وفي حكمته

وفي عقلـه وفي خبرتـه وفي فطنتـه وفي خُلُقِـه وفي كُـلِّ شـيء، يتصاغر المرء أمام شخصيَّته.

لقد كـان دقيقًـا في نصـائحه وتوجيهاتـه وكلماتـه وأحكامـه وكان تأثير ذلك بالغًا.

الكفاءة الإداريَّة للنَّبيّ

لا تنفكُّ مواقف الكفـاءة الإداريـة تـتردَّد حين نتحـدَّث عن رسـول اللـه صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم القائـد للمهمـات الصَّـعبة، وتظهر هذه الكفاءة ببراعة في الأزمات، وهل تُعْرَفُ الكفاءة كما تُعْرَفُ في الأزمات؟ ففي غزوة الأحزاب، بسـط الشَّـورى وأخـذ الفكرة ثم رسـم المدينـة وضـبط حـدودها وحـدَّد المكـان الـذي سيحفر فيـه الخنـدق، والـزَّمن الـذي سيسـتغرقه وأبعـاده وطولـه وعرضه وعمقه، وكيف يصرف التُّراب الناتج عن الحفر والقوَّة البشريَّة اللَّازمة لإنجازه، وتقسيمها بحسـب الأدوار. وبينمـا هـو منشـغل تمـام الانشـغال بـترتيب الأمـور العسـكريَّة للأمَّة ويـوزِّع الفـرق للعمـل، في نفس الـوقت كـان يلقِّنهـا درسًـا في حفـظ مقامـات النَّاس، وجعـل للصَّـحابة الَّذين لا عشـيرة لهم مكانـة، حيث سـأله النَّاس: يـا رسـول اللـه فمـع من يكـون سـلمان الفارسـي؟ فقـال:"سـلمان منَّا آل الـبيت". بعـد أن كـان سـلمان رضـي اللـه عنـه عبـدًا يُبـاع ويُشـترى بلا عشـيرة لـه ولا أنسـاب

يتحوَّل إلى مرتبة آل البيت. فكيف سيتحوَّل سلمان بعد هذه الرَّفعة وكيف سيخدم الإسلام والمسلمين.

إنَّ مشروع حفر الخندق كان بحجم مشروع دولة ولم يكن مجرد حدث حصل في ذلك الزمان وللأسف قلَّما تُسلَّط عليه الأضواء بحجمه الحقيقيّ وأهميَّته وتفاصيله الجادَّة المتَّصلة.

فترى سيِّد الخلق الذي قارب على السِّتِّين من عمره وظهر الشَّيب في رأسه ولحيته، يحمل التُّراب بنفسه، وينقله مع العاملين. ويحلُّ مشاكل تعيقهم كالصَّخرة التي لا تنكسر، فيكبِّر صلَّى الله عليه وسلَّم ويضربها فتتفتَّت تحت يديه. ثم يعود إلى عمله الأوَّل. فهو القائد وقت القيادة والمتواضع لمن تحته.

وفي الواقع لقد حوَّل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عملية حفر الخندق إلى عملية إيمانيَّة تربويَّة من أعلى درجات الإيمان والتربية وعلى مثل هذا كانت سائر الأعمال وهذا درس من دروس كفاءته الإداريَّة.

ثم نشاهد كفاءته الإداريَّة التي لا تُبارى في التخطيط للهجرة، فكانت خطَّة الخروج من مكَّة هندسة وتخطيطًا بارعًا، يسير إلى الجنوب في حين هدفه الشَّمال، فيضلِّل أعداءه. ثمَّ اختياره للدَّليل مدروس بعناية، تمامًا كعنايته بتوفير الدَّعم اللُّوجستي، فمن ينقل له الأخبار، ومن يعفي على آثار الأقدام ومن يأتيه بالطَّعام. ولا يغفل مع شدَّة الحدث، عن ردِّ الأمانات بالتوقيت المناسب الذي لا يؤثر على ترتيبات هجرته التي يتربص بها كفَّار قريش. وغيره من تفاصيل عظيمة.

وبـرزت كفاءتـه الإداريَّة في طريقـة تحديـده لاختصاصـات الصَّحابة، فيقول: فلان أقضاكم، وفلان أقـرؤكم للقـرآن، وفلان أعلمكم بـالفرائض، وفلان سـيف اللـه المسـلول، وفلان أسـد الله.. وبلال أندى صوتًا.

فيحيـط بطريقـة غـير عاديـة بقـدرات الصَّـحابة فـردًا فـردًا. ليصنع منهم أعمدة بنت دولة الإسلام.

وبهــذا المعرفــة كــان يوجِّه الصَّــحابة لأداء أدوارهم أيضــا بحسب الكفاءة.

وحين كَثُر المسلمون واكتظَّ المسجد بالمسابقين للالتفاف حول نـبيّ اللـه صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم، ظهـرت أزمـة التَّعلم من النَّبيّ، فالصَّحابة الأوائل لم يعد بإمكانهم النَّقل عن رسـول اللـه وابتعـدوا عن الصَّـف الأوَّل، إلاَّ أنَّ رسـول اللـه صـلَّى اللـه عليـه وسلَّم عـالج الأمـر صـلَّى اللـه عليـه وسـلَّم بكفـاءة إداريَّة لافتـة، فقــال: "ليليــني منكم المهــاجرون والأنصــار". فتخلَّى لهم الصـفوف الأولى، وهم من شـهد الـدِّين والعلم الأوَّل، وهم من يواصـل دوره. لأفضـل نقـل للعلم وتوارثـه كـاملًا. فهـذه أمـور مصيريَّة لا ينفع معها المجاراة.

كفاءته ظهرت في تنظيمه للسَّفر أو الجهاد، وكيف يُنَصِّبُ الأمير ويجعله ضرورة وكيف يختـاره، ويصـنع وحـدة متكاملـة، فيجعـل الضَّـعيف مـع القـويِّ، فيرسـل الثَّلاثـة منهمـا اثـنين ميسورين، ومعهما فقير، فيعمل الفقير ويحصل على نفقتـه من أجره الذي يأخذه منهما، فيجمع هذا التَّقسيم بين إطعـام الفقـير

وراحة الميسور وزيادة الودِّ، والتآلف فيرجعون أكثر حبًا وتآلفًا، شبع الجائع وخدم الضَّعيف وتوثَّقت الصِّلة.

وهكذا بكفاءته الإداريَّة الَّتي أحاطت بالأمَّة، فإنَّه يعرف من يحيط به واحداً واحداً، فلا يخرجهم هكذا كيفما اتَّفق بل يختار هذا مع هذا بناء على الفوارق الاجتماعيَّة والماديَّة والجسمانيَّة وليستطيع أن يخرج لَبِنَات وخلايا تجمع المجتمع أقوى مما كان.

لقد كان مديرًا في كلِّ صغيرة وكبيرة، فيجعلها محكمة، فالصَّحابة ثمرة 23 عامًا من الإحكام، الإحكام الإداريّ والتربويّ على أقلِّ تقدير.

واليوم مشكلة أمَّتنا في هاتين الكلمتين: الإدارة والتربية.

فليس لدينا أزمة في الإخلاص إنما الأزمة أن يدخل بالإخلاص ثم لا يجد عملًا يتوفر فيه إحكام التربية والإدارة فيَخمُد ويَكْسُل فتنهار عملية الصِّناعة الإسلاميَّة.

الكفاءة الثقافيَّة

وتتجلَّى كفاءته الثقافيَّة في رسائله إلى ملوك العجم بعد صلح الحديبيَّة حيث أرسل لعظيم القبط في مصر ولكسرى ملك الفرس ولقيصر هرقل ملك الروم، ولكبير الأحابيش، ويظهر من خلال المصطلحات كما في رسالته لهرقل ملك الروم: "أسلم تسلم أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن لم تفعل

فإنَّمـا عليـك إثم الإريسـيين". وهـذه الكلمـة لم يسـبق أن استعملت، في العربيَّة، وشرحها علماء الحديث على أن معناها العامَّة والشَّعب أي الزُّرَّاع والصُّنَّاع والفلَّاحين، وقال المحقِّقون بـأن الكلمـة الإريسـيين، كلمـة رومانيـة، تسـتخدم من الـرُّوم كمصطلح يطلق على أصحاب المهن الحقيرة الصَّغيرة، التي كانوا يُعدُّون في المجتمع أغلبيَّة كبيرة.

فعلمه بلغة الرُّوم وعلمه بلهجات العرب، ولهجات الأقوام التي يعرفها، جعل من رسالته صناعة للتأثير في ملك.

لقد كانت ثقافته صلَّى الله عليه وسلَّم كاملة، وشخصيَّته عميقة، يستفيد من خبرات الصَّحابة كما استفاد من خبرات أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه في الأنساب ومعرفة الرِّجال واستفاد من الشُّورى في مناسبات عديدة.

الكفاءة السِّياسيَّة

كان رجل دولة بما تعنيه الكلمة من معاني وتعقيدات، يـزن الشخصيَّة التي أمامه ويتعامل معها بسياسة موائمة، يظهر ذلك في صُلْحُ الحديبيَّة، فأوَّل ما شاهد قريشًا وقد أرسلت سهيل بن عمرو قال متبسمًا: "إنَّما أرادت قريش الصُّلح إذ أرسلت هذا. وبناء عليه كان التَّفاوض".

وتغيَّر موقفه مع إرسال قريش أبا سفيان فعهد لأحد الصَّحابة أن يقف به في مكان بعيد، وأمر كتائب الجيش أن

تتجهَّز وتستعدَّ لتمرَّ من المكان الذي يراها منه أبو سفيان، فيتعجب الأخير من قوَّتهم وكثرتهم، فيقال له هؤلاء بنو فلان، ثم التي بعدها فيسأل وهكذا، تمرُّ به الكتائب فيزداد رهبة وهيبة، حتى تمرَّ به آخر الكتائب وهي أكبرها وأقواها فيقول: من هؤلاء؟ فيقال له كتيبة المهاجرين والأنصار، فينهزم أبو سفيان معنويًّا ويقول للعبَّاس بن عبد المطَّلب: لقد صار مُلْكُ ابن أخيك مُلكًا عظيمًا، فيقول ليس بمُلْك يا أبا سفيان وإنَّما هي نبوَّة.

ودخل سفيان بعدها على النَّبيِّ في حالة. وعند فتح مكَّة يقول النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

لقد كان على علم بمكانة الشَّخصيَّات النَّافذة في بلده، ويتعامل وفق ذلك.

ولم تكن هذه الكفاءة السِّياسيَّة مع خصومه فقط بل مع صحابته أيضا.

كما رأيناها مع الأوس والخزرج، وفي جوار اليهود، وبين المهاجرين والأنصار. لقد قضى على القبليَّة والوطنيَّة ورسَّخ محلها الإسلام بعدالته.

فرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الذي كان يصبر على محاولات اليهود زعزعة استقرار المدينة وإشعال الفتن، هو صلَّى الله عليه وسلَّم من تصدَّى لخيانات بني قَيْنُقَاع وبني

قريظة للعهود، فتصدَّى للأولى بالجلاء بما لهم، والثانية فكان فيهم حكم الخيانة جزاء وفاقًا.

وأما تحكيم سعد بن معاذ، زعيم الأوس الذين يعوِّل عليهم اليهود، فكان درسًا كبيرًا في السِّياسة، حيث حكم بأن يقتل الرِّجال وتسبى النِّساء والذَّراري وتأخذ أموالهم غنيمة حتَّى وصف حكمه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: "أمَّا لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات". فراحت شرفًا ومجدًا للأوس ورفع العتب عن غيرهم. وكان بإمكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يعلن الحكم فيهم لكن اختياره لسعد كان ذي فوائد جمَّة.

وتظهر الكفاءة الاجتماعيَّة في مواقفه الكثيرة في مواساة النَّاس عند الموت وعند بكاء الأهل، وفي وضع الحجر الأسود، ومواقف أخرى كثيرة التي رفع فيها الحرج على المسلمين واستوعب ضعفهم وأخطاءهم ليستمر الانسجام وتستقوي الأمَّة المسلمة.

الكفاءة العسكريَّة

من الصَّعب أن ألخص كفاءة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم في كل ميدان والعسكري خاصَّة بسطور فقد كان نبيّ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قائد جيش لا نظير له، وتظهر جوانب كفاءته العسكريَّة في قيادته للغزوات والمعارك بنفسه، وأيضًا قدرته على تقدير عدد الجيش من الأعداد من خلال عدد الذَّبائح التي

يذبحونها، ومعرفته بنوع الإبل وقبيلتها من روث الإبل، ومع نعيم بن مسعود في معركة الأحزاب حين قال له: (فخذّل عنَّا ما استطعت) بين اليهود والأحزاب حزبًا حزبًا. وهذا لتمام إداركه بطبيعة عدوه.

كذلك مواقفه العظيمة في معركة أحد كيف قلب الهزيمة لدرس ولذَّة انتصار وهو على الجبل يلقِّن صحابته كيف يكون الجواب استعلاء بالإيمان على الكفَّار. وكيف تعامل مع أول هزيمة لجيشه. ثم كيف تعامل مع بقيَّة الانتصارات.

وموقع فتح مكَّة الذي حمل من الدُّروس والعبر والرَّسائل والدَّلالات ما يعجز القلم عن تدوينه ليلخص كفاءة نبيّ الله صلَّى الله عليه وسلَّم العسكريَّة.

وما قصَّة عبد الله بن سعد بن أبي السّرح، وهو أخ عثمان بن عفان في الرّضاعة حين أسلم ثم ارتدَّ، وأهدر دمه حتَّى لو تعلَّق بأستار الكعبة إلا دلالة على درجة الرُّقي التي تعامل فيها الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم مع موقف قدومه. فبعد أن أشاح عنه حتى لا يبايعه من جديد وجَّه انتباه صحابته بقوَّة:"أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رأني كففت يدي عن بيعته فيقتله.!" بتمام الصِّدق والوضوح لا بالتَّلوُّن والخداع.

لقد كانت شخصيَّة مكتملة الاستقامة، عميقة الفقه والثقافة والإدراك والعلم والكفاءة سُجل له 47 سريَّة و27 غزوة مباركة.

كفاءته في القضاء

إنَّ المجتمع المسلم يحوي ما لابد منه في كلِّ مجتمع بشري من الاختصام بين بعض أفراده، وقدَّم لنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم دروسًا حكيمة مبصرة في سياسة النَّاس والحكم بالعدل والإنصاف وردِّ الحقِّ لأصحابه، دون أن ينسوا الفضَّل بينهم فكان يضع اعتبارًا للحالة النَّفسية للمرء ويراعي ظروف ضعفه، فمع أنه نهى عن سير النِّساء خلف الجنازات ومع ذلك هو من قال لعمر رضي الله عنه حين أراد أن ينهى امرأة تمشي في جنازة بحزن بالغ: "دعها يا عمر فإن المصاب جلل والخطب قريب".

فكان يسعى للصُّلح بين المتخاصمين مسلمين وغير مسلمين، يسدِّد ويقارب ولو بالحطِّ من بعض الحقِّ في سبيل الانسجام إن تراضيا وإلا فحكم بينهما بحكم الشَّرع، مخوِّفًا إيَّاهم من عظمة الحلف بالله كذبًا، وأن حكمه بالظَّالم لا يحلُّ للمبطل أخذ حقِّ غيره، ولا يحكم على مدّعى عليه إلا باعترافه أو بوجود بيِّنة، ويقضي بين النَّاس ويعالج مشاكل الخصومة وذات البين وفي نفس الوقت يطيب خاطرهم. كما اختصم عليّ وجعفر وزيد بن حارثة، في كفالة اليتيمة، فحكم رسول الله بها لجعفر رضي الله عنه كون أسماء بنت عميس تكون خالتها، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: "الخالة بمنزلة الأمّ" وأضاف: ليؤلف قلوبهم "أمَّا أنت يا جعفر فأشبهت خَلقي وخُلقي، وأمَّا

أنت يا علي فمنِّي وأنا منك وأمَّا أنت يا زيد فأخونا ومولانا". فرضي الجميع.

وكثيرة هي المواقف التي غلب عليها الحلم والتَّأني لدراسته صلَّى الله عليه وسلَّم لمآلات القرارات كقوله لعائشة: "لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم".

وموقفه مع رأس النِّفاق في المدينة عبد الله بن أبي سلول حين قال: "لا يتحدَّث النَّاس أنَّ محمَّدًا يقتل أصحابه، ولكن نحسن صحبته ما صاحبنا".

ومع كل ما يحمله من هموم فكان لا ينسى أحدًا، حتى أمَّ محجن رضي الله عنها التي كانت تنظف المسجد، ثم ماتت ودفنت فسأل عنها وحين علم بموتها قال: "أفلا كنتم آذنتموني"، "دُلُّوني على قبرها".

فهذا النَّبيّ المكلَّف بمجاهدة الكفَّار والمنافقين والحكم بما أنزل الله وبلاغ الرِّسالة، يقف على قبر امرأة سوداء ضعيفة تكنس لا يُؤبَه لها ولا يُلتفَت إليها.

وقد روى مسلم في صحيحه هذا الموقف النَّبويّ عن أبي هريرة رضي الله عنه: "أنَّ امرأةً سوداءَ كانت تَقُمُّ المسجدَ (أو شابًّا) ففقدها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فسأل عنها (أو عنه) فقالوا: مات. قال: أفلا كنتُم آذَنْتُمونى. قال: فكأنهم صَغَّروا أمرَها (أو أمرَه). فقال: دُلُّوني على قبرِها فدَلُّوه. فصلَّى

عليها. ثم قال إنَّ هذه القبورَ مملوءةٌ ظُلمـةً على أهلِهـا. وإنَّ اللـهَ عزَّ وجلَّ يُنوِّرُها لهم بصلاتي عليهم".

لقد كان نبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّم الذي امتدَّ نور دولته شرقًا وغربًا بخلافة وحضارة إسلاميَّة باهرة كان يعلِّم زوجته كيف تكون الفرحة في العرس، فيقول:

أتيناكم أتيناكم فحيُّونا نحيِّيكم ... ولولا الحنطة السَّمراء ما سمنت عذاريكم

ويصبر على طلباتها برفق ومحبة.

تعامل النَّبي مع الدَّواب

لقد أرسل الله نبيَّه محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم رحمة للعالمين ورحمته ليست مخصوصة بالإنس فقط بل هي للإنس والجنِّ والحيوانات وجميع المخلوقات.

فكان صلَّى الله عليه وسلَّم يحبُّ الخيل ويكرمها ويوصي بها ويسميها، ويرفق بالهرَّة ويطعمها ويسقيها، وينهى عن تحميل الحيوان فوق طاقته وإجاعته وإيذائه والرِّفق به، وحذَّر من دخول النَّار بسبب تعذيب الحيوان، وبشَّر بأن الرِّفق به سبب لدخول الجنَّة وتحصيل مغفرة الله عزَّ وجلَّ.

كما نهى عن التفريق بين الطُّيور الصغيرة وأمَّهاتها، ونهى عن وسم الحيوان في وجهه أو ضربه عليه، ونهى عن التمثيل

بالبهائم، وعن خصائها إلا لمصلحة، وبقتل الذي فيه ضرر منها، ونهى عن قتل الحيوان على سبيل العبث، ونهى عن سبِّها ولعنها وخاصَّة الديك، وكان يأمر بإحسان الذَّبح، وعدم إنزاء الحمير على الخيل، وغيرها.

الخلاصة

إننا نتحدَّث عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الذي نزلت الآيات السَّماويَّة بقول الله تعالى سبحانه عنه: (**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**) و(**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**) و(**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**) و(**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**) و(**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**) و(**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**) و(**أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ**) و(**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**).

فقدَّم منهج حياة ناجح للفرد وللدَّولة وللحضارة الماجدة، من استمسك بهديه نجى ومن أبى فلا يلومنَّ إلا نفسه.

هـذا غيض من فيض ومثـل هـذا الطَّرح يسـتوجب سـفرًا محقَّقًا.

✿ ✿ ✿

2

أبصر طريقك لمحمود شاكر: الولاء للدين لمواجهة كيد التبديل

نتناول الحديث في هذه السطور، عن مقالة أصيلة، تفرض نفسها فرضًا في زمن تمر به الأمة بتحديات كبرى قد يفقد معها المسلمون عقيدتهم وولاءهم لدين الإسلام العظيم.

وهي مقالة خطّها علامة ابن علامة ترعرع في عائلة تستلهم مفاهيمها من حدائق العلم ورياض الشريعة، إنه أبو فهر محمود شاكر ـ رحمه الله ـ مَن تزدان المكتبة الإسلامية بثراء معرفته وجاذبية أسلوبه ومتانة خلاصاته.

أبصر طريقك: دعوة بصير

وقد حملت مقالته المقصودة، عنوان "أبصر طريقك"، وهي المقالة التي نثرها الشيخ الكاتب في عام 1372هـ الموافق لـ 1953م إلا أنها كتبت لتكون دليلًا للمسلمين في هذا العصر، ذلك لما حملته من بصيرةٍ فذّةٍ وقراءةٍ ثاقبةٍ في الأخطار التي تتربص بهذه الأمة.

كما نصح الشيخ سمير مصطفى من قرأ هذه المقالة ورام إحراز فهمٍ عميقٍ لمعانيها بقراءة مقالتين لا تقلان أهمية عنها

وهمـا مقالة: "تـاريخ بلا إيمـان" و"لا تسـبوا أصـحابي" لنفس الكاتب. وبعضهم نصح بمقالة ثالثة بعنوان "باطلٌ مشرق".

أما الكاتب الفقيه فقد وقع اختياره على عنوان موفّق لهذه المقالة، وهو جزءٌ من شـطر بيت في قصـيدة لمـدرس بن ربعي، من شعراء الجاهلية، يقول فيها:

يَا أَيهَا الرجل المهدى قوارصه ... أبْصِر طريقك لَا يشخص بك البَصَر

وعلى هذا الأسـاس بـنى أبـو فهـر لبنـات مقالتـه الـتي تؤكـد المفاهيم الراسخة التي سبقنا بها صحابة رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم حين أخذوا هذا الدين بقوة.

وتـبرز أهميـة هـذه المقالـة في كونهـا تتنـاول قضـية الـولاء للإسـلام، الـذي يجب أن يترسـخ في قلب كـل مسـلم ومسـلمة، وإن لم يكن يملك المرء رصـيداً كافيـا من العلم، إلا أن عليـه أن يتمسّك بأهم معلم للحق في هـذه الحيـاة، إنـه الإيمـان المطلـق بدينه، والولاء اللامنتهي له.

الوَلاءُ للإسلَام

فلا يمكن أن يشـك المسـلم في دينـه البتّـة مهمـا عُرِضـت أمامه الشبهات وتواترت عليـه التلبيسـات، بـل هـو ممن يعلنـون للملأ بكل اعتزاز: "أن ديني ليس عرضة للنقـاش"، كمـا وصـف ذلك الشيخ سمير مصطفى في قراءة لهذه المقالة.

هذا المفهوم الأصيل والعميق الذي يريدنا محمود شاكر أن ننتبه له ونتمسك به، يُعدّ منارةً في الطريق المحفـوف بالأشـواك

اليوم والذي تتصيد فيه همة المسلم أيدي العبث والجاهلية بكل ألوانها، بل أيدي الكفر ومتاهات الإلحاد.

نَظرةٌ في تَاريخِ الحرْبِ على الإِسلَام

ومن يتأمل وصف شاكر لحالة الإسلام منذ ظهر في الأرض، يجد سبب العداء له يكمن في قوته وصلابة منهجه وقدرته على الانتشار في خريطة العالم بشكل مذهل، فأثار هذا الانتشار السريع والكاسح للإسلام في الأرض، العداء بشكل تراكمي، ليتحول إلى حرب صليبية شاملة، استغرقت قرونًا على محور الزمن، وظّفت فيها الجيوش والأسلحة والقوة العسكرية والخديعة والمكر.

ونلاحظ انطلاق الكاتب في بناء مقالته من التاريخ ومن مفهوم هذا الصراع في القرون الماضية ومن المواجهة مع الصليبية العالمية التي لا زالت إلى عصرنا اليوم.

ومع أن معسكر الإسلام وقتئذ لم يكن يمتلك قوة السلاح وكمية العتاد التي جاء بها الغزاة، إلا أنه تمكن من الصمود في معركة المواجهة العسكرية، ما دفع بالعالم الغربي للاتجاه لساحة أخرى لم تكن متوقعة، لعله يحرز نصرًا حاسمًا في معركته مع الإسلام، فامتدت الحرب الصليبية إلى ميدان الحياة نفسها، وتجسد مفهوم الغزو الفكري بكل أشكاله وأساليبه المظلمة.

تشخيصٌ دقيقٌ لواقعنا

وهي المرحلة التي نعيشها اليوم يصفها محمود شاكر بدقة متناهية، ويضعنا أمام مشهد خططت الحرب الصليبية فيه بتكتيكها الجديد، لدكّ الحياة الإسلامية دكّا، واضعةً نصب عينها، هدم الأسس التي تقوم عليها حياة المسلمين، وهدم علومهم ومعارفهم، وهدم آدابهم وأخلاقهم، وهدم تاريخهم وماضيهم وكل صفحة ناصعة من القوة والمجد تزدان به حضارتهم الإسلامية العريقة، لتفصل الأجيال المتوالية عن منبع العلم والأدب والأخلاق والتاريخ الأول، بل حتى اللغة، استهدفت، ليجد الجيل الجديد نفسه أمام لغة مختلفة عن لغة من سبق، ليجد نفسه بعيداً عن لغة القرآن، لغة توارثتها الأجيال الأولى بحرص وهمّة لأنها لغة لا تناجزها لغة في الثراء والدقة، إنها لغة أهل الجنة.

فيظهر مع كل يوم الانفصال والبعد عن المنبع الأصل، وتصبح معرفة المسلم بدينه مختلفة محرّفة تستند لمعطيات دخيلة، بعد أن تمكنوا من إقصاء المصادر الأصيلة.

وبمزيد من الجهد والإصرار من قبل أعداء الإسلام، تتوالى الهزائم في كل الميادين، وبدل أن يصمد المسلم بما لديه من أصالة ودين، يصبح هشّ البنيان يتلجلج مع كل ريح، لا ينفعه أي سلاح لتحصيل النصر المبين مهما بلغت قوته المادية ذلك أن الروح مهزومة داخليا.

ومع واقع الضعف المادي، تلحق هذه الهزيمة الفكرية بالهزيمة العسكرية وينال الأعداء من أمة الإسلام كل نيل. هكذا خطط الغرب لهزيمة الإسلام بمكر كبار.

لكن الجيل السابق، رغم ضعفه قوته العسكرية مقارنة مع الجيوش الصليبية، ورغم حجم الضغط وتوالي الغزوات وامتداد رقعتها، كان يحمل شيئًا واحدًا، جعله عصيًّا على هذه الحملات، بالرغم من أنه كان يشاهد لدى أعدائه قوة مادية مبهرة، لقد كان عزيز النفس أبيًّا، قادرًا على تمييز عدوه، والتفرس فيه، مهما لبس من لبوس النصح والخداع.

ذلك أن فطرتهم كانت سليمة، فجاءت مقاومتهم مقاومة سليمة، تعتمد على البغض في الله، والريبة من الأعداء، والتصدي لهم بقوة الإيمان والولاء والبراء، فلم يكن المسلم يتردد في القتال أو يتردد في رفض أي فكر دخيل على الإسلام بل يكفي فقط أن يعلم بأنه مصدره من أعداء الإسلام ليعلن البراءة منه، فكانت حقيقة محورية فاصلة بين ذلك الجيل وجيلنا اليوم من المسلمين.

هكذا سلط أبو فهر الضوء على الفرق بين هؤلاء الذين واجهوا الغزوات الصليبية أمس وبيننا اليوم، نعم فقد كانت تشع في زمانهم معاني الولاء وتصدح في الفضاء عقيدة العزة وتتحطم على صخرة الإيمان كل المكائد في حين لا زالت باهتة اليوم ضعيفة مطموسة! فكيف نطمع في تحقيق أي نصر!.

ولقد أشار محمود شاكر كـذلك لفريـق ممن سـبق سـقطوا في مكائد الغرب، أو استكانوا لعروضه في المسالمة وطالت مـع ذلك الحرب إلى أكثر من مئة وخمسين سنة.

تتجاذبهـا المواقـف، بين مـد وجـزر، ومكيـدة وزحـف، ومناورة وخداع، يهدف خلالها العدو إلى نصب شراكه وكمائنه والفتك بفريسته، وليصبح المسلمون بين يديـه بلا أدنى مقاومـة أو قدرة على الدفاع.

وهي ذات الاستراتيجية التي يستعملها العدو مع المسـلمين اليوم ولكنه وجد شريحة واسعة تتجاوب مع خططه.

وهي الشريحة التي سـمحت للعـدو أن يتسـلل لحصـون الإسـلام بسـبب ضـعف ولائهـا لـدينها فاسـتدرجت بأسـهل مـا يكون وأضحت تحطم بنفسها حصون الإسلام التي لا يكفل لها غيره، الأمان والعزة.

أَهدافٌ وَاضِحةٌ للحرْبِ على الإِسلَام

وبتعبير محمود شـاكر نسـتوعب أي خسـارة يتحـدث عنهـا الكاتـب، حين يقول "ذهب كل شيء تعتمد عليه الحياة البشـرية وبه تستقيم، إنه العلم والأدب والأخلاق واللغة والتاريخ!".

فهذه الأعمدة هي التي يستهدفها أعداء الإسلام اليـوم، فهم يحرفـون علمنـا، ويشـككون فيـه، ويضـربون أدبنـا ويفسـدون أخلاقنا ويشجعوننا على التفريط في لغتنـا واسـتبدالها بلهجـات محلية ولغات أجنبية، كما يعمدون لتحريـف تاريخنـا، ومـا دور

المستشرقين بالهيّن في هذا المضمار! بل كما يقول الشيخ سمير مصطفى، إن منهم من ألّف كتبًا دون أن يظهر اسمه عليها من شدة إخلاصه لما يبذله من جهود وتفاني في سبيل محاربة هذا الدين، فأي همة حملها هؤلاء المستشرقون!

لتَحْقيقِ تَبديلٍ لأُصُولِ هذا الدِّين

نعم لقد ذهب في هذه الحرب كل الذي كان ينبع من كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن حياة الأمة المسلمة في القرون الأولى التي تعد أفضل القرون كما نبأنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فماذا جاء بدله؟

جاء لنا مصدر آخر ينبع من حياة الشرك القديمة ومن الأناجيل المحرفة، وما استحدثته مسيحية القرن الحالي بكل تناقضاتها ونقائصها.

لقد ركز الغرب بقوة على قطع الصلة بين الميراث الإسلامي العريق، وبين الأجيال المسلمة، ليضيع كل خير يجب أن يصل الأبناء من آبائهم.

ولا تسأل بعدها عن تبديل المفاهيم والقناعات، وكيف تتحول الأفكار والآراء، وكيف تتغير معها المشاعر والأحاسيس، ولغة الخطاب، ولا تتعجب إن أنكر من أنكر على كتاب الله وعلى ما ورد عن سنة خير الأنام ، ولا عن الطعن في آثار الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وهذا مصاب جلل نشاهده اليوم بأم أعيننا دلالة على درجة النيل التي نالها منا المخطط الغربي في حربه على الإسلام!

أَصنافُ النّاسِ في التَّفَاعُلِ مع هذا الخَطر

ثم بحسب أبو فهر، كان الناس أمام هذا الحدث العظيم، والانحراف الكبير، أصنافًا، منهم من تجاوزه ولم يسأل عنه، ومنهم من بقي في موقف التائه لا يلوي على شيء، ومنهم من أنكره إنكارًا خفيفًا ضعيفًا، فرأى في تجديد ميراث الإسلام ليتوائم ومطالب الغرب وإلزاماتهم، حلًا، يبقي اسم الإسلام ولو ظاهرًا. وحسب أنه يحسن صنعًا!

ومنذ اندفع ذلك السيل المنهمر الذي جرف أصالتنا وميراثنا العقدي خلص شاكر إلى أن العالم العربي والإسلامي قد انقسم في نهاية المطاف إلى طائفتين: طائفة تنكرت لماضيها جملةً وتفصيلًا وأخرى جددت هذا الإسلام وألبسته لباس التغيير، ولكنها انطلقت من مفاهيم مستقاة من ثقافة ومراد الغرب، وفق معاييره التي حقن بها الشعوب خلال غزوه الصليبي للأرض وللفكر.

لنتأمل بعد هذا الوصف مشهد من يريد أن يقدم الإسلام للناس في ثوب جديد! ثم لا يألوا في تحقيق ذلك صبرًا ولا جهدًا ويحارب كل من أنكر هذا الفساد وأوضح خوار منهجه.

إن ما سلّط محمود شاكر عليه الضوء في هذه المقالة لنذير خطر عظيم لأمة الإسلام، وحريّ بكل مسلم أن يستدركه ويتعمق في معانيه، لأن خطورته ليست في مجرّد مواجهة بالسلاح في ميادين القتال يعرف فيها المسلم من هو عدوه، فيقاتله قتال المستميت معتزًا برايته البيّنة ودينه، بل هي تضليل المسلم، وهزيمته في مهده، في أصوله ومعتقده، بتبديل الإسلام

تبديلًا كاملًا تمامًا كما بدّلوا المسيحية الأولى إلى مسيحية جديدة لا تمت لها بصلة اليوم. فيصبح المسلم غير المسلم ولا داعي بعدها لحرب الإسلام فقد زال هذا الخطر العظيم ـ لأطماعهم وأهدافهم البشعة ـ بزوال أصله، وحلّ محله إسلام جديد غربي حيك خصيصًا لأجل مصالح الغرب!

وللأسف فإن دعاة هذا التبديل، أهل طائفةٍ "اتخذت كلمة الإسلام لغوًا على مذبّاتها"، وكان لهم أثر لا يُستهان به في حياة العالم الإسلامي الحاضر لأنهم يتوارثون الانحراف من جيل إلى جيل كلما ابتعدوا عن النهج الأول الذي بني عليه هذا الإسلام.

ولم ينطلق الانحراف من مرحلتهم فقط، بل هم أيضا وصل إليهم ممن سبقهم في فكر التجديد، أعمتهم الحياة الدنيا التي أبهرت أعينهم، وزلزلت عقائدهم، فطلبوا الدفاع عن الإسلام وإحياءه وتجديده وفق أسس لم يستمدَّوا أصولها من الحق الذي في دينهم، بل من أصول بعيد، هي أصول الحياة التي يعيشها العالم الصليبي الذي غلب وقهر وظهر جبروته في هذه الأرض. أو بتعبير إبراهيم السكران — ثبته الله وفك أسره ـ استمدوا أصولها من سلطة الثقافة الغالبة.

دُعَاةٌ على أَبوابِ جَهنَّم

ويقول محمود شاكر في صياغة مبهرة:

إن هذا الوباء الذي يجتاح العقل الإسلامي والحياة الإسلامية، قد نفذ إلى كلِّ ركن في العالم، وسارت حُمَيَّاه سَوْرة مستبدة بكثير من رؤوس الدعاة.

وما زاد الطين بلة أن هؤلاء الدعاة اعتلوا منابر الدعوة وفي ذهنهم أنهم يذبون على الإسلام الحقيقي والأصيل! وتمامًا كما نشاهده اليوم، فإن كل داعية حسب نفسه على شيء وغره إقبال الجماهير، "يطوفون به طواف الوثني بالصنم"، ومهما بلغ المنكر بأحدهم فلا يجد من ينكر عليه، أو يسأله من أين لك هذا؟

ذلك أنهم مشتركون في إنكار أصول هذا الدين، فيعمدون لتبرير كل موقف، وتلبيس الأفهام مع كل سقوط حر، ومحاولة التجاوز لما لم يقتنع به الداعية بنفسه. فكيف سيقنع به غيره.

وإننا نبصرهم بوضوح في عصرنا الحاضر قد شغلوا شاشات الفضائيات ومنابر الدعاية والتضليل، وصدرت منهم الطامات والنوازل، ولا زالوا يحظون بمتابعة الجماهير.

الأُمَّة بِحاجَةٍ لِفُرسانِ العَقِيدَة

وبحسب خلاصات محمود شاكر فلا بد أن يخرج من يعيد النظر في الأصول الصحيحة لدينه، أن يعيد إحيائها والذبّ عنها ومواجهة من يحاول تحريفها أو محوها تماما كما واجه السابقون المؤمنون بهذا الدين، عالم الجاهلية والشرك والكفر، بألوانه وأنواعه، فهدم الإسلام حصونهم ومسحها من وجه الأرض، ليقيم بدلها حصون الإسلام العظيم، التي بقت تنير فضاء هذه الأرض أربعة عشر قرنًا من الزمان وستبقى.

وفرسان العقيدة هؤلاء، من بذل حياته ونفسه وأغلى ما يملك في سبيل أن يحفظ مفاهيم الإسلام الأصيلة، هم من

سيسمحون للجماهير بإدراك الفرق والتباين بين الإسلام الأول الحقيقي الموروث عن السلف الصالح، وفق منهج أهل السنة والجماعة، وبين الإسلام المستحدث الهجين الجديد، الذي يروّج له الغرب بكفره، والمنهزمون من بني جلدتنا من خلفه، ويحاول هذا الحلف أن يرسخه بديلًا لإسلامنا، في أجيال تتوالى قد سقط الكثير منها في وحل هيمنته وسحر دعايته وخبث مراده.

ولكن كما يصف ذلك محمود شاكر، إن ظهور من يحفظ لهذا الدين أصوله، وتحقيق التباين والتمييز بين الحق والباطل، لا يعني نهاية الحرب وتحقيق النصر! بل يعني أننا سننطلق في رحلة طويلة شاقة، نتحدى بها طواغيت العصر، وجموع الكفر، بعقيدتنا الأصيلة ومفاهيمها المستقيمة، لا يشوبها شك ولا ريبة، لنمضي بلا لجلجة ولا اضطراب، يقودنا الولاء لهذا الدين وقوة اليقين، استجابة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم خشية أن يأتي (**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**). وهو بكل تأكيد، سبيل النصر المبين.

ثم ختم الشيخ العلامة مقالته بتأكيد هذه الخلاصات الذهبية، وأن من لا زال مغيبا عنها أو يحسبها ضربًا من ضروب التشاؤم والتثبيط، لن يغير رأيه من الواقع شيئا، وضرب مثلا لذلك، الأعمى الذي يعلم جيدًا أنه أعمى، ومهما قلت له أنك بصير بعينين لمّاحتين فلن يغير ذلك من كونه أعمى، ومثال آخر، لمن هو في مشهد هلاك وموت محتوم، وتحاول إقناعه

بأنه سينجو من الموت، وأنه خالد لن يكون للموت عليه سلطان! فهل سيغير هذا القول من حقيقة يعيشها بنفسه.

وفي الواقع، ما عسانا أن نقول بعد هذا التحليل الخطير لأبي فهر – رحمه الله ـ ، سوى أننا نعيش اليوم بالفعل مرحلة تبديل الإسلام تبديلًا كاملًا ولكننا في نفس الوقت نبصر معها من قام يذب عن أصول هذا الدين بكل ما أوتي من قوة لا يقبل مساومة ولا متاجرة ولا تنازلا ولا استهانة، أي أن مرحلة الجهاد التي نبأنا بها أبو فهر قد بدأت ولابد من صبر وثبات يحدوها لتحقيق النصر المنتظر، ولا نملك مع هذا الوصف إلا النداء الشامل الكامل لأمة الإسلام قاطبة عنوانه "وا إسلاماه!" ليلتحق الجميع بالركب وتتراص الصفوف بنيانًا مرصوصًا، لم يبدلوا تبديلا.

✿ ✿ ✿

3

كيف تخوض معركة تربية النفس الأشد والأخطر؟

إن كنت ممن وفقه الله لهدى الإسلام ومنّ عليه بالاستقامة والوعي السليم وأكرمه بفضل المحبة والخدمة لهذا الدين، فلم يعد أمامك ما تخشاه إلا خطرًا واحدًا خلال مسيرتك للعلياء. إنها نفسك أنت، وقلبك بلا شك.

فأن تعرف الحق هذا إنجاز عظيم ولكن الثبات على هذا الحق هو الإنجاز الأعظم والسبيل الوحيد لجني ثمار استقامتك ومعرفتك. وإن ضعف التربية النفسية وهشاشة الأصول القلبية التي تهدد العاملين اليوم لا زالت تمثل ثغرة كبيرة يُنكث معها الغزل، كما خلص لذلك أئمة السلف والعصر.

أئِمَّةُ الإسْلامِ والحَثُّ على جِهاد النَّفس

وقد برع بعض هؤلاء الأئمة في تفصيل حالات النفس البشرية وأوجبوا على صاحبها جهادها، لما في مآلات التراخي في هذا الشأن من عظيم مصاب وفشل.

ولعل إمام هذا الفن، كان العلامة ابن القيم – رحمه اللـه – الذي كتب فيه كعارف متدرب إلى جـانب كونـه عالمًـا متبصـِّرًا، ولهذا كـانت أطروحاتـه تشعّ حكمـة وقـوة، فـاق بهـا تخصصًـا، أستاذه الـذي علمّـه. فمـدارج السـالكين وحـادي الأرواح والـداء والـدواء، عكسـت تفـوق كاتبهـا في مسـألة علم تطهـير الأنفس وتزكيتها وكشفت عن أسراره ومواهبه في علاج أمراض القلوب وتقويم أصولها.

ولم يزل الدعاة والعلماء يشددون على العناية بهذه النفوس التي ينكشف معـدنها وضـعفها في ميـادين الاحتكـاك والصـقل والابتلاءات والتفاعلات بين جموع البشر.

الشَّيخُ الدَّاعِية والقَائِدُ المُجاهِدُ

وقـد خـبر العـارفون بمجـال الـدعوة للـه والتحـريض على الاستقامة والتمسك بمنهج أهل السنة، أن النفـوس الـتي انـبرت لهـذا الميـدان تقـع في هنّـات وتسـقط في طامـات يعـترف بهـا الصـادقون الـذي أدركـوا أن مجاهـدة النفس للثبـات على درب العطاء والصبر هي مقياس النجاح في كل خطواتهم على محـور الزمن.

بـل حـتى فرسـان الجهـاد، الفريضـة الربانيـة العظيمـة الأثـر والعقـبى، اتفقـوا مـع ذات الخلاصـات في أن ميـدان الجهـاد بالسنان يكشف طبيعة النفـوس بشـكل عجيب ويمتحن صـلابة أصـول كـل قلب نفـر في سـبيل اللـه مهمـا صـدقت نيتـه ظـاهرًا وخلصت وجهتـه أمـام الملأ، فحثّ أئمـة هـذا العلم على أهميـة العناية بجهاد النفس قبل جهـاد الأعـداء للثبـات وإحـراز النصـر المبين.

ومن تأمل حديث رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم الـذي أخبر فيه أن للشهداء أعلى المنازل بعد النبيين والصديقين وشاء الله أن يصل عددها لمائة درجة كلها للمجاهدين في سبيل الله، حيث أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم قال: «إن في الجنة مائة درجة أعـدها اللـه للمجاهـدين في سـبيل اللـه، مـا بين الـدرجتين كمـا بين السـماء والأرض»؛ علم حكمــة الخــالق سـبحانه، الخبـير بنفـوس عبـاده، وأدرك أن التفاضـل بين هـؤلاء يكمن في القلب هـذه المضـغة الـتي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله كما جاء في الحديث الشريف.

بل إن إهمال العناية بهذه النفس ومحاسبتها باستمرار وترك فريضة مجاهدتها بلا تسويف أو فتـور، ليعتـبر المـرض الأفتـك

الذي قد يقع فيه الداعية الشيخ والقائد المقاتل قبل غيرهما من أصناف العباد باختلاف المراتب الإيمانية.

قَبَسٌ مِن التَّاريخِ في تَربية النَّفس

ومن يتأمل في سير السلف الصالح من سطروا صفحات ناصعة من جهاد النفس والأعداء، علم أن الحلقتين متصلتين اتصالا بليغا، فهذا الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يعلمنا درسا في جهاد النفس وترويضها وإخضاعها لإرادة الحق في قلب المعركة حين أخذ الراية وتقدم بها في غزوة مؤتة، وهو على فرسه فجعل يستزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه   لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس وشدوا الرنه   مالي أراك تكرهين الجنة
قد طال ماكنت مطمئنه   هل أنت إلا نطفة في شنه

وقال أيضا:

يا نفس إلا تقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت   إن تفعلي فعلهما هديتي
وإن تأخرتي فقد شقيت

قَاعِدةٌ في جِهاد النَّفس

إن ما نجده في خلاصات أئمة الإسلام وعلى رأسهم ابن القيم رحمه الله، يؤكد أن حفظ الجذوة الروحية منضبطة بالقرآن والسنة وفهم سلف الأمة على نحو مستقيم هي سبيل الثبات في طريق النجاح والظفر.

ولا يمكن أبدًا أن يخرج العبد من الظلام إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان ولا من الجاهلية إلى الإسلام إلا إذا عمل عملًا دؤوبًا لتغيير نفسه وتطهير قلبه ولإقامة خُلقه وسلوكياته ولتصحيح ذاته، مدركًا تمام الإدراك أنها عملية مجاهدة ضخمة وتغيير جذري وإخراج لجيل يختلف عن الجيل الذي سبق، كما لخص ذلك ببصيرة ثاقبة، الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل — فرج الله عنه وجزاه الله عن أمة الإسلام كل الخيرـ.

قال حسن البنا رحمه الله: "أن تكون الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمة التي تحاول هذا أو من الفئة التي تدعو إليه على الأقل إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في صفات أربع: إرادة قوية لا يتطرق عليها ضعف، ووفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر، وتضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له

يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه والخديعة بغيره".

فهذا أحد أعلام الأمة ومؤسس جماعة من جماعات المسلمين الكبرى يؤكد في بداياتها أن الأمة في مسيس الحاجة إلى بناء النفوس وتشييد الأخلاق وطبع أبنائها على خلق الرجولة الصحيحة حتى يصمدوا لما يقف في طريقهم من عقبات ويتغلبوا على ما يعترضهم من مصاعب وأن الرجل سر حياة الأمم ومصدر نهضتها وأن تاريخ الأمم جميعا إنما هو تاريخ من ظهر بها من الرجال النابغين أقوياء الأنفس. وقد أدرك ذات المعاني غيره من أعلام الأمة من جماعات أخرى عاملة، واتفق الجميع بإجماع تام على وجوب تربية النفس والعناية بالقلب لكل فرد من أفراد الجماعة.

عِلْمٌ قَائِمٌ بِذَاتِه

إننا نتحدث عن منهج صياغة نفوس المسلمين وتربيتهم وإنشائهم وتزكيتهم وتطهيرهم ومعالجة الآثار الجانبية لاستقامتهم وللثبات كمسلمين. إنه علم قائم بذاته، يربي الأجيال بعلم وليس بهوى، يربي النفس على الاستقامة والثبات والكفّ عن حظوظها المهددة للآمال في مسيرة العمل.

وقد استوقفتني طريقة الشيخ حازم لعلاج هـذا النقص في النفس البشـرية حين يُشـخِّص، ووجدتـه مطابقـا لقاعـدة في العلاج مشهورة في الطب البشري، وهي علاج مسببات المرض لا أعراضه، فبعض الأطباء يعمدون لتقديم مخفض للحمى قبل النظر في مسبب هـذه الحمى، فتـأتي علاجـاتهم سـطحية مؤقتة وما تلبث الحمى أن ترجع! ولكن الطبيب الحاذق يقـدم العلاج الـذي يحقـق إبـادة للجرثومـة المسـببة فتختفي مـع اختفائهـا أعراض الحمى.

وعلى هـذه الطريقـة، من كـانت مشـكلته الغضـب الزائـد، فلننظر لماذا يغضب قبل أن نعظه في مسألة الغضـب؟ فـإن كـان غضبه للمال، عالجنا حبه للمال بتعليمه الزهد وتبصـيره بـالورع وحكمة الله في الأرزاق، وإن كان الغضب لأجل أحـد من صـلبه فلابـد من تعليمـه التقـوى وحب العـدل والخـير مـع غـيره قبـل نفسـه، ومن كـان غضـبه لأجـل حب الإمـارة وسياسـة الجمـوع والظهور فلابد من تعليمه حجم جريمته وسوء مطلبه وخطـر مـا يحسبه أمرًا هينا فيزهد فيها وتخشـاها نفسـه وتتلاشـى مـع هـذا كل ثورة غضب لأن الدافع لها قد تلاشى.

ومن النـاس من يتعـظ بالـذكر والعمـل ومنهم من ينفعـه الصـمت والتفكـر والخلـوة والاعتكـاف، ومنهم من يقوّمـه المسابقة في التصدق والنظر في حاجات المسـاكين، ومنهم من

يجد الشفاء في القرآن والذكر، ومنهم ما يزجره الحرمان وقلة ذات اليد ومنهم من يعالجه معايشة مواطن الموت كالمقابر والمستشفيات وخطوط القتال.

وكم من تارك لسنة يُعاقب بالهزيمة في الحرب كما ذكر ذلك ابن النحاس ـ رحمه الله ـ في كتابه مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، حين ذكر قصة القوم الذين استعصى عليهم فتح حصن من حصون الأعداء وبعد اجتماع ونظر اكتشفوا أن السبب كان تفريطهم في سنة السواك، فما أن استدركوها حتى فتح الله لهم الحصن بنصر عظيم، قلت: أولئك قوم تركوا سنة، ونحن قوم نفرط في الفرض ونطمع بعدها في النصر، فتأمل يا صاحب القلب!

ولن يحقق أي عامل مسلم أو عاملة مسلمة اليوم أهدافهما في مسيرة الحياة ما لم يعتني كل منهما بالعلوم الحقيقية لهذا الدين التي تحيي القلوب وترشد الإنسان لسبيل الرشاد والثبات. يتزود بها الإنسان باستمرار دون انقطاع كضخ القلب للدماء في شرايين الجسد ليحيى ويسعى وإلا فإن مصير انقطاعه الموت.

قال تعالى: **(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)** فاطر 6. وفي هذا تنبيه على واجب استفراغ الوسع في محاربته

ومجاهدته كأنه عدو لا يتوقف ولا يضعف في محاربة العبد على عدد الأنفاس، إنها معركة مستمرة لا تنقطع وهي الأشد والأخطر على الإطلاق.

تَشخِيصُ طَبيب القُلوبِ: ابن القَيِّم

ولا يفوتني الاستشهاد في هذا المقام بعصارة اللبيب في مراتب الجهاد لابن القيم التي لا يخلو كتاب يتناول فريضة مجاهدة النفس إلا واستشهد بها، ذكرها في كتابه الماتع "زاد المعاد في هدي خير العباد" ـ المجلد الثالث ـ حيث قال: "فجهاد النفس أربعُ مراتب أيضًا:

1. إحداها: أَنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدَّارين.
2. الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعْها.
3. الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَنْ لا يعلمهُ، وإلا كان مِن الذين يكتُمون ما أنزل الله مِن الهُدى والبينات، ولا ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنجِيه مِن عذاب الله.

4. الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربَّانِيينَ، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمى ربَّانياً حتى يعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه، فمَن علِمَ وَعَمِلَ وعَلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيماً في ملكوتِ السموات.

ومن تأمل في هذه الكلمات أدرك عظمة جهاد النفس، أمام هواها وميولاتها ونزعاتها التي لا يقوى المرء على التخلص منها، ولكن يمكنه أن يحصرها في حدود المباح والمكروه في شريعة الله كما يمكنه الرقي لمراتب المسابقين في الدرجات العلا، بترقية نفسه والحرص على ثباتها، وأما السبيل لذلك فهو دوام المحاسبة ويقظة الضمير والخشية من الله العظيم ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾.

للسَّالِكِ طَريق اللَّه

فيا أيها المسلم المقبل في طريق الله، عليك بتربية قلبك بالعبادات القلبية، وسياسة نفسك بالتدرب على الصبر والقناعة والحكمة والبصيرة. وعليك بوقود الفكر، وهو القراءة النافعة

من مشكاة العلوم الإسلامية ومصادر العقيدة الصحيحة والتزود بالفقه النيّر ورقائق العارفين والعبر من تاريخ الإسلام المجيد.

وكما قال أحد العارفين بأمراض القلوب: "يا هذا عليك بعروق الإخلاص وورق الصبر وعصير التواضع، ضع هذا كله في إناء التقوى وصب عليه ماء الخشية وأوقد عليه بنار الحزن على المعصية وصفه بمصفاة المراقبة، وتناوله بكف الصدق واشربه من كأس الاستغفار وتمضمض بالورع وأبعد عن نفسك الحرص والطمع، تشفَى من مرضك بإذن الله".

ثم عليك بترويض جسدك ليسمع لك ويطيع، فتعوده على الصوم وعلى الصدقة وعلى المشي في حاجات المسلمين وعلى صلاة القيام وعلى التدريب والرياضة والحزم وكل ما يدخل في سبيل إعداد النفس لعظيم المهمات، وكل بحسب ما يُسّر له.

كن قائد نفسك سائسها لا المنقاد لهواها وميولاتها، دليلك في ذلك شريعة الرحمن وسنة خير الأنام ونبراسك تجارب السابقين الأولين من الأخيار ومن اتبعهم من الأحرار. فإن مجاهدتك هذه النفس هو السبيل لتحقيق الفوز، أولم تتدبر قول الله سبحانه وتعالى وهو يقسم ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

يقول ابن القيم — رحمه الله — في تفسير هذه الآية: "علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا

وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد: والذين جاهدوا أعداءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه."

فأي عاقل يفرط بعد هذا القسم العظيم في مجاهدة نفسه وتربيتها على الاستقامة والمحاسبة وحسن الأداء إلى آخر رمق. في تطويعها لله وتعويدها الصبر على طاعته واجتناب معصيته فليست المشكلة أن تعلم وإنما أن تعمل بما علمت، ثم تثبت على ما عملت، ولا تحدثني بعدها على بركات جهادك التي سنراها في نفسك وفي أسرتك وفي جماعتك وفي أمتك، ثم لنترقب فجر النصر مستبشرين!

✿ ✿ ✿

4

كيف يضبط القرآن النفس البشرية طول فترة الاستضعاف

تمر الأمة الإسلامية بمرحلة استضعاف ليست الأولى في تاريخ المسلمين منذ ظهرت رسالة النبوة العظيمة، وليس الاستضعاف إلا نوع من الامتحان الذي تمر به الأمة قدرًا وابتلاءً للتمحيص والاصطفاء، ولا شك أن له سننًا ومفاهيم ومعالِمٌ يستند عليها المسلمون ليتجاوزا شدائده بثقةٍ ونجاح، تمامًا كما للتمكين سنن ومفاهيم ومعالم إن غفلت عنها الأمم وغرقت في ترفها انهارت دولها وإن وصلت لأوج تألقها وعطائها.

القُرآن العَظِيم

ولا أعظم مرجعًا ولا أقوى دليلًا للمسلم من القرآن العظيم الذي جعله الله سبحانه وتعالى سبيل النجاة والفوز الأكيد لمن تمسك به واستنار بهديه واسترشد بمعانيه. فالقرآن يضبط النفس البشرية ـ بكل تعقيداتها وتناقضاتها ـ طول فترة الاستضعاف، ويقدم العلاج لها رغم ما تعانيه من تشوهات

تتجلى بوضـوح في طريقـة بحثهـا بإلحـاح عن مخـرج من هـذا الاستضعاف.

ومن تأمل خواتيم سورة هود، ومـا أدراك مـا سـورة هـود؟!، وجد التشخيص والحل الذي على كل مسـلم ومسـلمة التمسـك بـه وحفظـه بـالقلب والجـوارح والأعمـال لتجـاوز محنـة البلاء والاستضعاف التي نمر بها اليوم.

ذلك أن المقاييس التي يسـير وفقهـا المسـلمون في حيـاتهم تختلـف عن مقـاييس غـيرهم من البشـر، إنهـا مقـاييس ربانيـة تستقي من نور اللـه وتمضـي في عبوديـة وتوحيـد لا ينفصـلان، وهـذا سـر نجـاحهم وتميزهم كخير أمـة أخـرجت للنـاس. على عكس الفكر المادي المتحجر الذي يقيس كل شيء وفق قوانين هندسية بحتة وحسابات بشرية قاصرة، تنفصل فيهـا الـروح عن معية ربها، فتهوي بصاحبها في مهاوي الـردى، وتتخطفـه الطـير وتـرمي بـه في وادي سـحيق، فـارتفعت لـدى أصـحابها نسـب الانتحـار، وأقبلـوا بانـدفاع مرضـى للعيـادات النفسـية لإسـكان نفوسـهم المكتئبـة بـأقراص مهدئـة؛ ذلـك أنهم يفتقـدون نـور الهداية والإيمان الـذي هـو سـر ثبـات الإنسـان في الاستضـعاف كما في التمكين، وتلك الأيام نداولها بين الناس.

سُورةُ هُودٍ وحِقْبَة الاسْتِضعَاف

لقد نزلت سورة هود على رسول الله صلى الله عليـه وسـلم وهو في حزن شديد في مكة خلال عام سُـمي بــ"عـام الحـزن"،

وهو العام الذي فارقته فيه رفيقة دربه وسنده وزوجته السيدة خديجة رضي الله عنها، وعمه أبو طالب الذي كان ينافح عنه ويذود عنه بكل ما أوتي من قوة، وفي وقت غلب الشر على مكة، وعمّتها نزعات الكبر والغرور من رؤوس المجرمين، وبلغت الحرب المعلنة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها حتى ما كاد يدخل في الإسلام أحد من مكة أو خارجها.

قال المقريزي في إمتاع الأسماع: "فعظمت المصيبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بموتهما وسماه عام الحزن". وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف تلك الحقبة: "ما نالت قريش مني شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب".

فأنزل الله سبحانه سورة هود لتشد أزر نبيه صلى الله عليه وسلم، ولتكون دليلًا لأمته عند كل مرحلة شدة وتمادي الأعداء في الطغيان. وقادت لنا آياتها أمثلة عميقة عظيمة من قصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام الذي جعل الله عصره آخر عصر ينزل فيه عذاب الاستئصال، وجعل ما بعده من عصور مراحل تدافع بين الخير والشر يوفَّى في ختامها كل إنسان أعماله في مشهد مفاصلة عظيم. وهكذا أصبح حساب كل أمة لديها كتاب وتتبع لرسول مؤجلًا إلى يوم القيامة.

تَحْلِيلُ نَفْسِيَّات

لقد قدمت لنا سورة هود تحليلًا لشخصية بني إسرائيل، تلك الشخصية المتمردة على النص، التي احترفت المماطلة والتملص من التكليف، شخصية تعاني من تشوهات جمّة أثرت على تفاعلها مع الوحي، فلم يخضعوا لعظمته ولم يأخذوا توراتهم بقوة إلا بعد أن نتق الجبل فوقهم ورأوا آيات ربهم.

فالقرآن بسرد هذه الأمثلة لبني إسرائيل يربينا على العقيدة ويزودنا بالإيمان ويعلمنا السنن ويلقننا مفهوم البلاء، لنتحمل ونجتهد، سواء تحت بلاء التمكين أو الاستضعاف تحت مبدأ العبودية لله وحده سبحانه لا غير.

ولكننا نعيش في زمان فقدنا فيه هويتنا المسلمة، وفقدنا فيه القرآن ضابطًا لسلوكنا وتفسيراتنا وتوجيه مشاريعنا، وانشغلنا بالبحث عن الأسباب المادية، وانبطحنا مع التفكير الأرضي ننشد مجرد إنجازات أرضية ونسينا أن الله ينظر في قلوبنا قبل كل شيء وكيف تثبت القلوب والأفئدة بدون قرآن!

الثِّقة المُطْلَقة

فلنلخص كيف تعالج خواتيم سورة هود الأزمات النفسية التي يمر بها الإنسان في حالة الاستضعاف، ولنسلط الضوء على أهم ما على المسلمين التمسك به وهم في مرحلة الشدة وقد تداعت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، وإن أول ما

يشد الألباب قول الله سبحانه وتعالى في أواخر هود (**فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ**).

فمن هنا المنطلق والأساس الذي تبني عليه ثباتك وسبيل نجاتك، فإياك أن تشك في ضلال الباطل وفي الحق الذي معك، إياك أن تراجع الأصول الثابتة تؤزك الشكوك البغيضة، فرأس مالك في هذه المعادلة مبني على اليقين، على كتاب لا ريب فيه، والحذر تمام الحذر من الانهزام أمام قوة الباطل وجبروته وبطشه وتكنولوجيته وأسلحته، فهذا ليس دليلًا على صحة منهجه، بل هو الامتحان لصحة اعتقادك وإيمانك وصبرك على الابتلاء به.

دَجَاجِلَةٌ

فحال التقدم الدنيوي عند الغرب كحال الدجال الذي يفتن الناس بقوته وخوارقه، وهذه ثغرة عظيمة قد يؤتى منها المسلمون حين ينبطحون منبهرين بقوة عدوهم في حين لا بد أن يقودهم الاستعلاء بالإيمان للدوس بالأقدام على كل مبهر في صفّ أعدائهم. وهنا يتجلى من جديد إبطال سحر سلطة الثقافة الغالبة والاعتزاز بأصول دين الإسلام وتراثه وعقيدته، مهما بلغ بالمسلمين البلاء من مبلغ، هذه قضية ليست للمناقشة ولا للمساومة، بل دونها الموت.

فالمسلم المنتصر في الشدائد هو من يتمسك في ثقة بالوحي الذي أنزل إليه، وبمنهج الإسلام القويم، ولا ينجر

خلف دعاوى أعدائه المبهرَجة بالفتن، يدعونه للتخلي عن دينه في حين يتمسكون بدينهم ويحاربونه وفق ذلك.

وما يساعدك على الثبات هو إدراك أن الصراع مستمر إلى يوم القيامة، وأن إبليس منتظر ليوم الحساب، وأن الجهاد ماضٍ ليوم الفصل وأن، الانتصار في المعركة هو انتصار المبادئ والإسلام

والله جلّ في علاه خبير بما تعملون، فكثير من الناس يسقطون ساعة الابتلاء بسبب انشغالهم بباطل أعدائهم، وتسلل الريبة بين لبنات الحق الذي معهم، والأصل في المسلم أن يحسم هذا الصراع بقول واحد: (لكم دينكم ولي ديني)، يحسمه بيقينه الأكيد أن لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، وأن الجميع محاسب بما قدمت يداه!

المَنْهَجُ والطَّرِيقَة

ثم بعد الثقة المطلقة فيما لديك من عقيدة أيها المسلم أمامك المنهج والطريقة التي تسير عليها حركتك في هذا البعث الإسلامي الجديد الذي يخرج من رحم الاستضعاف، وهي في آية (**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)

وقال أهل العلم عن هذه الآية إنها أشد الآيات في القرآن، وبعضهم قال إنها من أشد الآيات في القرآن، ولا عجب فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شيبتني هود!".

والاستقامة تكون على القرآن وعلى طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم بدون ركون للذين ظلموا وأشركوا، والركون هنا بمعنى الرضا بما هم عليه حتى وإن كان الرضا بتفوقهم العلمي أو التكنولوجي والانبهار بهم! فهذا يدخل في مفهوم الركون إليهم.

ويلخص الحسن البصري رحمه الله هذا المفهوم بقول: "الدين بين لاءين: لا تركنوا، ولا تطغوا".

فالإنسان في قلب الصراع عبد لربه يدافع عن الحق الذي معه وفق تعاليم دينه لا يطغى ولا يتعدى، لا تقوده روح الانتقام بدون أدنى ضابط فحسب، فهذا تشويه نفسي.

وكذلك الركون للكافرين والمشركين بالتنازل عن أجزاء من الدين في سبيل تحقيق حلول خاطئة من علمنة أو لبرلة أو أمركة للإسلام، فهذه طريق للهزيمة لا للنصر مهما جادل قومها للتبرير والإقناع.

لأن الدين يُنصر بالثبات على أسسه التي لا يمكن التنازل عنها، ووفق قاعدة (لا تركنوا) و(لا تطغوا) معًا، أي لا تتنازلوا وتضعفوا ولا تغلو وتعتدوا، قفوا في خط مستقيم بين اللاءين.

زَادُ الطَّريق

ثم يقدم لك القرآن الزاد لهذه الاستقامة التي لا تتم بدون الصلاة والصبر المدرستين الملازمتين للمسلم. وما أروعها من

آيات تلك التي تحث المسلم على الصلاة لتمحى سيئاته! قال تعالى ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** (114) **وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾. فلا حجة لمذنب ولا معذرة لضعيف في تضييع فرص الالتحاق بالركب والاستدراك.

مَشِيئة اللَّه .. مَعِيَّة الله

ثم إن تثبيت القلوب المؤمنة لا يكون بشيء كما يكون بإدراكها التام أن هذه المعركة تمضي بمشيئة ربها، وأن أعداءها فيها هم في الحقيقة أعداء الله، وأنهم على الباطل الذي لا ريب فيه! ويقترن ذلك بالتسليم لحكمة الله في أن يسمح الله لأعدائه بالظهور حينًا، وتأخير عقوبته أحيانًا. ذلك أن الله يمهل، ولكنه لا يهمل!

كل ما على المسلمين هو الاستقامة بيقين لا يتخلله شك، يتمسكون بدين الله بلا ركون ولا طغيان، زادهم في المسيرة الصبر والصلاة، حتى تتحقق سنة الله. وبهذا يضبط القرآن الانفعالات النفسية التي تميل هنا أو هناك، والاختلافات القدرية التي لا مناص منها، ويشغلها بالثبات طول حركتها في الحياة.

فالله يريدنا أن نعبده كما أمرنا، لا كما تهوى أنفسنا أو تطغى، دون إفراط ولا غلو، ذلك أن الانحرافين أخطر ما على الدين، يخرجانه من طبيعته التي جاء بها للعالمين.

إن سورة هود التي افتتحت آياتها بالدعوة لتوحيد الله في عبادته والتوبة والإنابة والعودة لله في نهايتها، تحمل في مضمونها معنى العبودية لله وحده سبحانه فلا يشرك في عبادته أحد، بإقرار تام أن الدين كله لله، ولا يبالي المؤمن بسطْوة الظالم ذلك أن يوم الفصل يُهلِك اللهُ الأمة الظالمة المشركة، وينجي المؤمنة الصابرة المحتسبة، وسنجد هذه القاعدة تتكرر على مدار التاريخ كما يعلمنا ذلك القرآن العظيم.

إثْبَات

فإن الله سبحانه لا يهلك الظالمين ويمنّ علينا بهزيمتهم إلا بعد أن نثبت أحقيتنا لهذا النصر بثباتنا على دينه الحق، وما دام المسلمون لم يخوضوا هذه المعركة بإيمانهم وعقيدتهم، ولم يتبرأوا من أعداء الله ولم يفاصلوهم ويفرّقوا منهجهم عن منهج أعدائهم، فكيف ينتظرون أن تنصرهم معية الله سبحانه ويحوزوا فضله. وكيف يطمعون بنصر مؤزر لا يناله إلا المؤمنون الثابتون على طريق الاستقامة، يعبدون ربهم كما يحب ويرضى.

وفق هذه القاعدة التي عرضتها سورة هود ينبغي لأمة الإسلام إدراكها، وترتيب حركةِ نهوضها ومقاومة العدوان عليها. إننا بحاجة للقرآن لنعبد الله على صراط مستقيم، ولنثبت أفئدتنا وأنفسنا لا تتأثر بأمواج الفتن وتربصات الشياطين التي لا تهدأ، لأن هناك عاقبة تنتظر كل إنسان في نهاية الطريق وما

أروعها من معان تسوقها لنا خاتمة هود (**وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ** (121) **وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ** (122)- **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** (123).

وإنما العاقبة الحسنى والنصر لمن تمسك بنص الوحي والقرآن، لم يزغ عنه قيد أنملة، ولا يبالي المؤمن بالاستضعاف بعدها، ما دام قد وعى وأدرك وعمل بهذه التوجيهات والتوصيات الربانية الموجهة له في محنته. فهل من معتبر؟

✿ ✿ ✿

5

كيف نحول مداد العلم إلى مداد العمل؟

سُؤالٌ يخطر ببال الكثير من المسلمين اليوم؛ كيف أقفز من مرتبة الوعي والإدارك لمرتبة الإنجاز والعمل؟ كيف أغير من واقعي الذي ميّزت الحق فيه من الباطل لأكون في فريق الصالحين المؤثرين؟ كيف أحقق المفاهيم التي أحملها وأومِن بها رغم العقبات؟ كيف أصبح ذلك المعطاء والمسابق؟!

بعض النفوس البشرية تستعصي الانتقال، تجده عقبة صعبة لا يمكن تجاوزها، وقد يستغرق منها العمر كله وهي تبرر تأخرها بعدم القدرة على التغيير أو العمل. وأخرى تسوّف تارة وتنجز أخرى، فلا تكمل خيرًا أبدًا، رغم قدرتها على فهم الواقع بدرجة امتياز.

ولذلك فإن تلخيص الأسباب التي تعين الراغب في الإنجاز لتحقيق قفزة إلى الأمام، تستحق منا وقفة وبُعد نظر.

مَطْلبٌ شَرعِيٌّ وَأوَّلِيَةٌ

لابد من التنويه بداية إلى أن السعي لمثل هـذه المرتبـة لهـو من مطالب ديننا الحنيف، فـإن اللـه ـ سـبحانه وتعـالى ـ يحب معالي الأمور، ونبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أوصانا بسؤال الله الفـردوس ـ لأنهـا أعلى الجنة ـ، ولأجـل الوصـول إليهـا أوصـانا كذلك بالمسارعة في الخيرات مهما كان الظرف.

قال ـ صلى الله عليـه وسـلم ـ في الحـديث الصـحيح:" إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها". وعلى هذا النهج خطى الخلفـاء الراشـدون والسـابقون الأولـون والنـاجحون المسلمون عبر رحلة التـاريخ حـتى تـراءت في صـفحات مجـده أبيات النابغة الجعدي يقول:

بلغنا السماء مجدنا وسناءنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مطلعًا

لن أطيـل في اقتبـاس الأدلـة الشـرعية والأمثلـة من التـاريخ والواقـع على ضـرورة رفـع الهمم والتطلـع لأعلى المـراتب، والمسابقة في سبيل الله، وعلى فضل التميّز بالإحسان والسـبق، بل سنلخص في نقاط بعض أهم العوامل والأسباب الـتي تـدفع المسلم للإنجاز وتحقيق التغيير.

- **الدعاء**

في الواقـع مهمـا حاولنـا التحـذلق والتـذاكي، فإنمـا نحقـق المسابقة والتوفيق في أي عمل أو عبادة بفضـل من اللـه وحـده. فكيف لمن يرجو الخير وقد ألمّ بمعالم الحـق، أن ينتظـر ارتقـاءً وتميّزًا دون أن يطرق باب وصال السماء.

دون أن يمسـك بقـوة بجيـد العقيـدة الغـراء! دون أن يهـرق دموعه في سـجود رجـاء وابتهـال، دون أن يُـري اللـه منـه حسـن الإقبال وصدق الطلب. من هنا البداية؛ الوقوف على باب (إيـاك نعبد وإياك نستعين) فبدون هذه الاستعانة باللـه وحـده لا ترجـو ـ أيها المقبل ـ الكثيرَ.

• خير البر عاجله

ما أن يقرأ المرء الفكرة ويستلهم من أنوارها العزم، وتتراءى له الأماني والغايات نضرة خضرة في أفق المشاهدة. حتى يشـعر وكأنـه جـدد إيمانـه وشـحذ همتـه وانطلـق كسـيل جـارف يشـق الصخر.

ولكن، ما أن يمر اليوم واليومان ويغلق المقبل ذاك الكتـاب الملهم أو يـدبر عن تلـك المقالـة الشـيّقة المفعمـة بـالتحريض، حتى يعود للتكاسل والتسويف وربما الإحباط والخجل!

والسبب وراء هذه الحالة معلوم لمن فقه طبيعة الصراع على الأرض؛ إنها مسـابقة الشـيطان لقطـع طريـق العمـل لـدى ذلـك

الإنسان المقبل، فما أن يتراءى له الخير حتى يثنيه هذا العدو المبين عنه بدهاء ومكر ثم تموت فكرته وينقرض إلهامه ويسقط في كرسي العجز.

والقاعدة الأولى لتجاوز هذا الفخّ هي:"خير البرّ عاجله"؛ فالمسارعة في العمل هي خير وسيلة لإحداث التغيير، والشيطان لنا بالمرصاد ولكن لا نلبث أن نسبقه نحن بالأداء حتى ننعم بإغاظته و ببركات المسابقة.

والمُطَّلِع على سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدرك حرصه على تعليم صحابته ـ رضي الله عنهم ـ هذا المبدأ العظيم، فحتى في الموقف الذي أخبر فيه الصحابي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه يحب صاحبه في الله، طلب منه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يتأخر وأن يسرع في إعلام أخيه بهذا الشعور النبيل في حينه.

وكذلك الأمثلة في المسابقة على بذل المهج الغالية في سبيل الله كثيرة لمن أراد الاستزادة، أو أحب أن يبصر كيف يكسر التردد أمام عتبة اليقين.

- **المسابقة ولو بالخيال**

جبلت النفس البشرية على حب النجاح والتميّز، ولا شك أن الأمر يزداد إلحاحًا في مضمار سباق يسابقنا فيه شخص

مثابر يلفت الأنظار، وبهذا المبدأ يمكن للمقبل أن يبقى ملهمًا يشع عطاء كلما استذكر شخصًا يعرفه سبّاقًا للخير بهمة وقّادة.

فإن لم يجده في الحقيقة والواقع، فليتخيل لحظة واحدة أنه موجود في هذا العالم وأن الملائكة يتحدثون عنه وأنه يذكر في السماوات لصدقه وإخلاصه، فيحرك ذلك لواعج النفس ويدفع المرء للعمل بخشية مختلفة. إنها خشية أن يدخل يومًا الجنة فينظر في الأعلى فيجد أقوامًا قد سبقوه فوق، كانوا بجواره حين كان هو يلهو ويشقى.

فلأي سبب سبقوه؟ لا شك أنها جديّة المسابقة. وهذا يرسم لنا مشهدًا مشرقًا لمسابقة عمر بن الخطاب لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ . فقد كان عمر أحد المبشرين العشرة بالجنة، ولكنه دأب على مراقبة الصديق خشية أن يسبقه لخير حتى أدرك مكانته وبكى! ولمثل هذا الرقي فليعمل العاملون.

- **لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها**

جميل أن نتأثر بفكرة وأن نسارع لمشروع، أو أن نعجب بخطة جديدة لمستقبل عطاءاتنا، ولكن حذاري من الانطلاقة المتحمسة المتهورة، التي لا تراعي حجم طاقاتنا وظروفنا، التي تريد كل شيء أو لا شيء، والتي لا تعرف الصبر ولا الحكمة

المطلوبين لتحقيق الإنجاز؛ ذلك أن أحد أهم أسباب الفشل تلك الانطلاقات الحارقة التي تحرق كل أمل في تحقيق توازن القوى، للدفع والشحذ والعطاء وحفظ الغزل.

فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ويشمل هذا مفهوم (قليل دائم خير من كثير منقطع)، فإن استلهم المقبل فكرة العمل لتكن بدايته بقدر استطاعته، ولو كان ذلك بوتيرة ضعيفة، وكذلك كل عمل ينوي المرء أن تكون له فيه يد.

فلست مطالبًا بتحقيق تغيير بارز في الأمة منذ أول لحظة صدق، بل أنت مطالب بأن تعذر إلى الله بحسن إقبالك واستمرارك وثباتك وإخلاصك، (لا تُكَلَّف إلا نفسك) ثم لا تحمل همّ النتائج فهذه يكفلها الله سبحانه وقتما شاء. وسنن الله جارية، لا يمكن لبشر أن يغيرها.

وقد يعتقد بعضهم أن أي عمل خير يمكننا القيام به يكفي للمعذرة أمام الله، وهذا خطأ، بل علينا أن ندرك أنه مرهون بحجم الاستطاعة. فمن كانت لديه الاستطاعة على الإنفاق وإخراج الصدقات في سبيل الله، ثم يقارن نفسه بفقير لا يخرج إلا رغيف خبز كل ستة أشهر. فقد يتحول من مسابق للخيرات إلى مقتصد، وربما ظالم لنفسه.

بل عليه أن يسابق ذلك الذي يخرج الصدقة بحجم يليق وما آتاه الله من فضله وفي أفضل موطن ووقت. ثم تلك الاستطاعة تعني أن تحاول المسابقة بشكل مستمر يتدفق حبًا لله وخدمة الإسلام.

فتخيل أنك تسهر على عمل في سبيل الله، ثم يسهر على مثل عملك آخر مسابق، فهل يطمئن لك قلب أن تنام وهو ساهر! تخيل للحظة كيف هي همتك أمام همته، كيف هي دوافعك أمام دوافعه. هذا تمامًا ما يدفع المسلم اليوم للعمل بلا كلل ولا ملل، حين يشاهد غيره يعمل كذلك. فتحسسوا المسابقين.

- **الكتمان**

لطالما ضرب لنا السابقون أمثلة في المسابقة لامعة، يبذل فيها المقبل بإحسان وخشية، فذاك زين العابدين يحمل على كتفيه المؤونة لبيوت الفقراء ليلًا وهو أمير المؤمنين، ولم يعلم خبره أحد حتى وافته المنية، فاختفى خيره واستفقدوه لكنهم وجدوا —عند غسله— آثار مسابقته حفرتها الأثقال على ظهره وكتفيه. فعجب الناس لحرصه وحكمته.

وما يجب أن يحرص عليه العازم على التغيير وتحقيق القفزة لمرحلة الجني، أن يقلل الكلام ويكثر من الفعال. فإن

كثرة الكلام تذهب بركة العزم والإقبال، وقد تقطع له الطريق لحظة غرور أو رياء وربما حسد.

وليستذكر المؤمن (**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**) ،وإنها لشعرة واحدة بين القول وتصديقه بالفعل، فليحذر المسابق حين ينوي عملًا أن يكون ممن يمقته الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وليحرص على ألا يترك أمرًا صالحًا حدّث به أو أوصى به إلا وعمل به ـ إن أمكنه ذلك ـ .

• التزود

لا شك أننا كنفوس مرهقة من إرهاصات الحياة وتجاذبات المشاغل، تلفح وجوهنا تيارات الغفلة والنسيان، ثم ذلك الصراع المتجذر في قلب أمتنا يدفع بأحزاننا كل يوم لتنفجر للخارج كثورة غضب أو سخط أو إحباط أو حتى كمد.

كل هذا وأكثر، يستنزف أفكارنا وهممنا وأوقاتنا وضمائرنا ولكن لا بد أن يكون بشكل إيجابي، وأن يصبح الأسى سبب الإصرار على التغيير. وأن يكون واقعنا دافعًا لنا للعمل بيقين.

وحتى نثبت، فلننظر في كتاب الله ـ سبحانه ـ ، الذي جعل من ذكر الله زادًا للثبات، ثم تلك الكتابات النيّرة التي يخطها أهل العلم والحكمة، والتي ما أن تقرأها ـ أيها المسلم ـ حتى تشرق شمس الهمة في نهارك، وينير ليلك قمر التفاني.

فلا يحرم المقبل نفسه من قراءات مفيدة وصحبة صـديقة، ثم بحث مواطن الخير ليستزيد منها حكمة ومعرفة؛ فلا يسـتوي الذين يعلمون والذين لا يعلمـون. ومن اختـار لنفسـه الـرعي في سفاسف الأمور فلينظر لمن اختار لنفسه معاليها وازدان عطـاؤه بلمعة المسابقة في سبيل الله، لعله يرقى.

• إنها معركة

إن الواقع الذي يعيشه المسلم اليـوم يفـرض عليـه فرضًـا أن يكون مسابقًا، بل يعد من الواجبـات الأساسـية والمعـالم الأولى التي علينا أن نقـف عليهـا إن أردنـا النصـر، النصـر على كـل من يحـارب الإسـلام ويهـدم بنيانـه ويسـلب المسـلمين عـزتهم ودنياهم.

مستضـعفون في كـل زاويـة في الأرض، مسـتعبدون بشـتى ألوان الرق، مسـتهدفون من كـل درجـات الظلم. فيكفي أن ينظـر المرء لسهر عـدوه على كيفيـة هـدم بيتـه ليفـر النـوم من جفنيـه؛ فيزداد إصرارًا على الحراسة!

الشـاهد من هـذا الطـرح، أن المعركـة حقيقـة واقعـة وتـدور رحاهـا في كـل يـوم بشـكل أكـثر وضـوحًا من ذي قبـل، وأن المسـلمين الـذين أدركـوا حقيقـة الصـراع بين الحـق والباطـل

وأبصروا معالم طريق النجاة والفوز وبقيت حجتهم عالقة في عدم القدرة على العمل، حجتهم داحضة.

بل عليهم أن يستذكروا إصرار أعدائهم على الهيمنة عليهم وإذلالهم. (**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**)، ولن يغفل عاقل أو تفتر همته وهو يشاهد هذا الواقع الدامي، وفي ذات الوقت يحمل في قلبه آيات الذكر الحكيم ويقين المسلم الأبي، بل سيزداد إصرارًا على العمل في سبيل الله.

عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسًا وأشد تنكيلًا.

- **الموت**

لا يمكن لبشر أن يجزم كم بقي له من عمر ليعيشه في هذه الأرض، ولا يمكن لأي طبيب ولا عالم أن يعرف تحديدًا كم سيعيش أو متى سيموت؛ فالأعمار بيد الله وحده ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومن أبصر الموت أو أماراته يومًا، ووقف عند الخط الفاصل بين الحياة الدنيا والآخرة. سيدرك تمامًا كم هي رخيصة

هذه الدنيا، سيعلم ــ بلا شك ــ أن رحلة الفناء هذه لا تساوي شيئًا فيما ينتظره غدًا بعد خط الموت ذاك.

ولأنه خط بحق فاصل، أوصانا نبينا ــ صلى الله عليه وسلم ــ بذكر هادم اللذات، واستذكار لحظة الرحيل التي لا عودة بعدها. والتي قد تكون في أي حين!

فكيف سيكون أي عمل يقبل عليه المسلم، من عبادة أو بذل، لا بد أنه سيكون من "مودّع". والمودّع لا يفرط في لحظة ناهيك عن ساعة، ولا يهنأ له بال حتى ينجز كل ما عليه قبل أن يرحل. فمن وعى هذه لن تفتر له همة، ومن غفل فليمر بجانب مقبره لعله يذَّكر أو يخشى.

- **لذة الإنجاز**

شعور رائع ذلك الذي ينتابنا عند الإنجاز، إنها السعادة لتحقيق النجاح، وهو المحفز أيضًا لمزيد من الإنجازات. والإنجاز في مضمار السباق للآخرة يختلف عن الإنجاز في مضمار السباق الدنيوي الداني.

ذلك أنه لا يخضع لقوانين البشر ونزعاتهم الشريرة والخبيثة، ولا ينافس على أساس مادي بحت يأسر عطاء الروح السامي. فمضمار السباق للآخرة راقي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، تحكمه قيم ثقيلة جدًا في ميزان الحق. هو مضمار

نظيف لا يقبل إلا الطيب، جعله الله سبحانه للمسابقين بصدق والعارفين.

لهذا فرأس أمر النجاح فيه والفوز هو الصدق، والإخلاص، والحرص على الإتقان، وكل ما يدور في فلك العمل في سبيل الله لا النفس. فلا يخشى مسابق فيه من أن يهضم له حق أو يخسر صفقة؛ فالصفقات المعقودة مع الله كلها رابحة.

وحتى أقرب الصورة أكثر فإنك ما أن تقبل على عمل في سبيل الله سواء كان حجمه صغيرا أو كبيرا فإن لذة الإنجاز فيه تستشعرها بقدر صدقك وإخلاصك وإتقانك له. وهذه لذة يحققها المسلم عند كل عمل صالح، فتأمل معي أيها المثابر كم هي محطات النجاح والسعادة التي ستشعر بها خلال مسيرتك، والتي ستدفعك دفعًا لتحقيق إنجاز جديد.

إننا لا نقيس الانجازات في هذا الميدان بمقايس البشر الفانية بل نقيسها بمقاييس ربانية تبارك في مساعي الصادقين، ولهذا فالسعادة التي سيشعر بها العامل في سبيل الله مستمرة متدفقة عند كل لحظة عطاء وبذل، ولا يحكمها حجم الماديات أو تبخسها آراء البشر. وتلك حياة طيبة فطوبى لمن أحسن الاحتساب.

- **الاستدراك**

المسابقون بشر، وهم يخطئون، قد يضعفون وقد يعيشون الكبوة، ولكنهم أصحاب قلوب حيّة نابضة لا تتوقف مهما كانت عقبات الطريق صعبة. بل تستمر مستدركة؛ لأنها تعلم يقينًا أن أي إنجاز سيحسب لصالحها، وأن أي تراجع يمكن تعويضه بمزيد بذل.

فلا تستبطئ من التقدم بإصرار وإن سقطت مرة أو مرات. فإنما هي حياة واحدة فلنحسن معيشتها في سبيل الله.

- **الصحبة الصالحة**

كثيرة هي المشاريع التي تفشل بسبب الأرضية التي نبني عليها أسسها، أو بسبب دائرة الأشخاص الذين نعتمد عليهم في وضع لبناتها. لهذا فإن من أهم أسباب العمل بهمة أن نتفحص العاملين معنا. وأن نحرص على انتقاء الجادين وأصحاب الشعور بالمسئولية لا المتواكلين المسوفين اللا مبالين.

- **التخفيف من اللهو**

لم يحرّم الإسلام اللهو، بل ضبطه بشروط وقيود حتى يتزن المرء ويتزن معه المجتمع وتحقق الغاية من وجوده على الأرض. لكن بعض الأشخاص رغم همتهم التي تتقد أحيانًا بشكل ملفت يسرفون في ساعات اللهو والترويح بالضحك الكثير.

ولأن كثرة الضحك تميت القلب، ولأن اللهو الكثير يضعف الهمة ويشغل القلب عن ساعات الجدّ لابد لمن يحرص على المسابقة أن يخفف من ارتياد مواطن اللهو، ويجعلها لمامًا –إن لزم- في مناسبات الأعياد مثلًا أو أفراح العائلة أو اجتماعات الأحباب.

مع العلم أن العمل يتطلب استراحات يروح بها العامل عن نفسه، وهي ضرورية ليستمر عطاؤه مبشرًا، لكن ليكن بميزان وقدر معقول، فالشيء إن زاد عن حده انقلب إلى ضده.

وذاك صلاح الدين الأيوبي فاتح بيت المقدس، فتحه بإصرار على العمل والجدّ، لا بكثرة اللغط واللهو حتى حرم نفسه الابتسامة. وهذا لا يعني ألا نبتسم أو نضحك فهذا في صميم النفس البشرية التي خلقها خالق (**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ**)، إنما يعني ألا ننشغل عن جدنا بلهونا.

- **النوايا**

(**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرء ما نوى**)، وهذه تكون قبل الشروع في العمل، وأيضًا خلال المسيرة، والتي يجب أن نراجع خلالها نوايانا باستمرار وننظف قلوبنا فيها من كل زائف ونقبل بصدق سائلين المولى ـ عزّ وجل ـ أن يستعملنا ولا يستبدلنا.

فقد ينطلق المسلم بنية طيبة ثم يتذوق لذة النجـاح وينقلب هدفه للعلـو في الأرض؛ فيحبـط سـعيه وينقض غزلـه، واللـه ـ سبحانهـ الخبير بعباده، نسأله العفو وحسن الخاتمة!

✿ ✿ ✿

6

الفوز والنجاح، مفاهيم يجب أن تصحح

النجاح! مصطلح فضفاض، يتسابق على تحقيقه البشر بغض النظر عن عقائدهم، وجوهر صلاحهم من فسادهم، إنه المصطلح الذي تتجاذبه الأنفس بنسبية متغيرة، تتأثر بنظرة المجتمع والعرف، وبطبيعة الشخص والروح، أو بحسب مقاييس العقول التي تُعتمد للتقييم النهائي، وهي فلسفة بمعنى الكلمة، فما قد تراه نجاحًا في حياتك قد أراه الفشل بعينه.

وما قد أراه فشلًا قد يراه غيري منتهى النجاح، فدعونا في هذه السطور نحدد مفهوم النجاح كما يجب أن يكون، ونصحح مفاهيم معوجّة قد نالت من إنجازات المسلمين كل منال، وبخست ما يستحق التقدير، في حين رفعت للسقف الكثير من الفاشلين!

مِنَصَّةُ الانْطِلَاق

بداية، فإن الحكم على أي شيء في حياتنا ينطلق من منصة واحدة، هي إيماننا وعقيدتنا الإسلامية، ولا يمكن أن نصل إلى نفس النتيجة إن كان الانطلاق من منصات مختلفة، فحين

ننطلق من الإسلام لابد أن نصل للمفاهيم السليمة التي أرادنا الله أن نفقهها ونلتزم بها.

وتأملت في قصص النجاح في تاريخ هذا الدين فلم أجد أروع ولا أبهر من قصة نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم الذي استطاع في ظرف وقت قياسي أن يقيم دولة إسلامية وُجدت من العدم، في بحر متلاطم الأمواج من ألوان الجاهلية والتيه والفتن.

إنها عبقرية نجاح بمعنى الكلمة، لا يمكن أن يناجزها نجاح آخر في هذه الدنيا إن أردنا المقارنة. كيف لا ونورها لا زال ممتداً منذ أكثر من 14 قرنًا رغم كل الكيد الذي كيد للإسلام؟ وعلى ذات الخطى نجح الخلفاء الراشدون، ليس فقط في حفظ دولة الإسلامة شامخة منتصرة، بل أيضًا في تجاوز العقبات والمكائد التي كانت تتربص بالإسلام والمسلمين في محطات شتى على محور الزمن.

نجاح آخر سطرته عبقرية الإسلام عند قيام كل دولة إسلامية أو حضارة إسلامية أو عطاء إسلامي، مقياسه يقيّمها بإنصاف أهل العلم وطلاب الشريعة، لا أهل الدنيا والرغبات العابرة القصيرة.

ثم من هذه العقيدة الإسلامية نفسها نستلهم الدروس والعبر، وما قصة أصحاب الأخدود إلا مثال عظيم لعمق مفهوم النجاح في ديننا الحنيف. فليس النجاح دومًا مرادفًا لسلامة الجسد والنجاة من الموت، بل قد يكون النجاح بعينه قذف

النفس في النار فتنتصر العقيدة ويصيح الثبات شامخًا: لقد نجحت ولم يهزمني طاغية. أو على خطى من سبق حين تلقى ضربة الغدر فصاح بيقين صارخ: فزت ورب الكعبة.

ولو سألتني ما تعريف النجاح في مفهوم الشريعة عند الأجيال السابقة لقلت: إن النجاح الكامل في قناعاتهم كان في اتباع منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه السلف الصالح، أما غير ذلك فتخاريف البشر. ولهذا كل من حاد عن هذا المنهج سقط سقوطًا مدويًا وأفل نجمه بين يوم وليلة. كمثل حضارة الأندلس التي قامت بقصة نجاح مبهرة لعبد الرحمن الداخل، وانتهت بانتهاء من خلفه حين حادوا عن سبب رقيهم وتفرقوا شذر مذر.

النِيَّةُ للَّه ربِّ العَالَمينْ

وقد يفرق بعضهم بين النجاح في تحصيل الأسباب الدنيوية والأهداف المادية، وبين سباق النجاة من النار والظفر بالجنة، وهذا خلط كبير لا يقع فيه صاحب بصيرة.

فالمسلم لا يقدم على شيء في حياته بنية النجاح إلا وارتبط كليًا بسبب وجوده وخلقه: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ .

بَيْنَ القُصُورِ والدِّقَةِ في التَّوْصِيف

ولننظر في تعاريف البشر القاصرة التي تعـرّف النجـاح على أنه تحقيق الأهداف المرسومة باجتهـاد الشـخص أو بدهائـه، أو تحقيق ما هو متعارف عليه أنه نجاح في وسـطه، كـإحراز درجـة علمية أو مرتبة اجتماعية أو الـدخول في طبقـة الأغنيـاء أو ذيـاع صيت وشهرة وغيره مما ألفه الناس.

ولكن هذا التعريف غـير دقيـق ولا يمكن أن يمثـل النجـاح الحقيقي، فلـو فرضـنا أن الأهـداف المرسـومة تعـني بنـاء نـادٍ ليجمع كل فاسـق وراقصـة وليـدرّ من الأمـوال الكثير، فهـذا في أعين المستثمر الاقتصادي مربح ثمين وقصة نجـاح تُـدوّن، أمـا في عين البصـيرة فهـذا الفشـل بعينـه، بـل الهلاك، ولـو كسـب صاحبه الملايين!

كذلك حال من يستعين بمحرّم لتحقيق النجاح، فلا يمكن أن أبني مشروعًا بمال مسروق، أو أنهبه من مظلوم، ثم أعتـبر مـا بنيته نجاحًا أشكر عليه. وذات الأمر حين تكون درجـتي العلميـة في ما لا ينفع الناس، بل يضـرهم، وإن وصـلت للـدكتوراه، وفي ذات السـياق حين أتقلـد منصبًا أظلم فيـه أكـثر ممـا أعـدل، إلى غيره من أمثلـة. لننتقـل الآن لمفهـوم النجـاح في الإسـلام كيـف ضبط هذه النسبية، بحسب القاموس فـإن النجـاح رديـف الْفَـوْزُ وَالظَّفَرُ بِالْخَيْر، وإن شئت أن تحـدد السـبيل للـدخول في طبقـة الفائزين فما عليـك إلا أن تفتح كتـاب اللـه وتبحث عن كـل آيـة

ذُكر فيها "الفوز" أو "الفائزون" لتخلص لسر النجاح العظيم والحاسم الذي لا يجادل فيه عاقل.

النَّجَاحُ فِي القُرآنِ

يقول جلّ في علاه:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَولُونَ من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار وَالَّذين اتبعوهم بِإِحْسَان رَضِي الله عَنْهُم وَرَضوا عَنهُ وَأعد لَهُم جنَّات تجْرِي من تحتهَا الْأَنْهَار خَالِدين فِيهَا أبدًا ذَلِك الْفَوْز الْعَظِيم﴾.

فكان الاتباع بإحسان معلمًا في الطريق.

ويقول أيضًا:

﴿وَمن تَقِ السَّيِّئَات يَوْمئِذٍ فقد رَحمته وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْز الْعَظِيم﴾.

فكان تجنب السيئات معلمًا آخر في الطريق. ثم الآية العظيمة:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

فكان الولاء لهذا الدين وتقوى الله معالمة بارزة في الطريق.

وتدبّر معي قوله تعالى:

﴿لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾.

فكان الإيمان والجهاد بالمال والنفس معالم أخرى في الطريق. وإلى غيره من آيات عظيمة تلخص مدار الأمر كله حول **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَه وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِه فَأُولَئِكَ هُم الفَائِزُون﴾**.

وبمعنى آخر، فإن النجاح هو أن يتمثل الإسلام في المرء بكامله، يلتزم بأوامره وينتهي عن نواهيه، يتبرأ من كل وثنية وشرك ويتشبث بعقيدة التوحيد الخالص لا يشوبها دخن، تمامًا كما كان الصحابة رضي الله عنهم يعتزون بإيمانهم ويعتصمون بالحق، فشهد الله لهم بالنجاح والتفوق بامتياز، قال تعالى: **﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّه﴾**، وحين سابق الصحابة للنجاح بمفهوم القرآن فلا عجب أن بلغ الإيمان ببعضهم إلى درجة أن يقول:

لو كُشِف عنِّي الحجاب لَمَا ازْددت يقينًا.

ومن تدبر القرآن يجد الدقة في توصيف النجاح بشكل متناهٍ يُذهِل العقل كيف يمكن لمسلم أن يفرّط فيه، فمن كان يعتقد أن النجاح هو أن نحقق ما نحبه وما نخطط له فعليه أن يراجع قناعاته، يقول الله عز وجل: **﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾**، فانظر أيها المسلم

لتأييد الله لعبده، كيف يكون التأييد نجاحًا وظفرًا ينجيك من مشاريعك التي طمحت أن تطأ بها ثريا النجاح، فصرفها الله عنك لما هو خير وأنجح منها لغيب لا تعلمه.

وهذه الحكمة لا يعلمها إلا الله سبحانه مَن خلق فسوى، وقدر فهدى. وقد يدخل النجاح في أبسط الأمور في حياتك، كنجاحك في رسم بسمة على ثغر حزين، فعن ابن عمر أنّه قال:

قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟، قَالَ: «سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ كُرْبَةٌ تَكْشِفُهَا عَنْهُ فِي دَيْنٍ تَقْضِيهِ عَنْهُ أَوْ جُوعٍ تَطْرُدُهُ عَنْهُ».

نَظْرَةٌ أَعمَق لِمَفهُومِ النَّجَاح

وبهذه النظرة العميقة لمفهوم النجاح يصبح مشروع الحصول على شهادة أو مرتبة ما فاشلًا إن لم يقترن بإخلاص النية لله وجعلها صالحة لخدمة المسلمين ونصرة ورقي الإسلام، وإلا فلن تنفع أشهرَ طبيب شهرتُه ونجاحه في أعين الناس يوم وقفة حساب يوم القيامة.

وكذلك المهندس والباحث والطالب لغرض في هذه الدنيا، ما لم يقرن إنجازاته بنية الإسلام العظيم، وبهذا المفهوم يتزن عطاء الروح، وتتزن معه المشاعر في الخسائر والمدلهمات، وحين يقع المرء في الكبوات سيصبح الفشل راسخًا لديه كنجاح بحد ذاته، إذ أن تجاوز العقبات أيضًا نجاح.

ودعوني الآن ألخص في نقاط حقيقة النجاح كيف تكون في حياة المسلم:

– فالمسلم ناجح مهما فشل في تحقيق أهدافه المادية في الحياة، ذلك إن ثبت على نهج الاستقامة كما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكما كان عليه السلف الصالح. فكل فشل في حياته لا يقدح في كونه ناجحًا، لأن النجاح الأول هو في حسن الاتباع والثبات والسمو فوق ماديات الأرض.

– النجاحات في المشاريع الدنيوية بما فيها مشاريع الدراسة والتجارة والعمل، كلها يجب أن تصب في كفة خدمة الإسلام والتقرب إلى الله بنية المسلم المسابق، واليد العليا خير من اليد السفلى، وإلا فهي فاشلة.

– من الخطأ الذي يقع فيه الأبوان إجبار ابنهما على أن يكون طبيبًا أو مهندسًا ولا ثالث لهما، وهذا بسبب مفهوم خاطئ يحصر دائرة النجاح في هذه الوظائف فقط. فليس المهم أن أضع ابني فيما يراه الناس نجاحًا، بل الأهم أن يكون ابني قادرًا على أن يسد هذا الثغر بكامل رغبته وقدرته، وإن كانت مواهبه ستتفجر في غير الطب والهندسة فعليه أخذ الأسباب المعينة لتجربة المجال الأكثر موائمة وتركيبته النفسية وقدراته العطائية. وهذا هو النجاح.

– من المهم أن يكون الوصول لتحقيق الأهداف محكومًا بتقوى الله، فلا يتسلق المرء ولا يسرق ثمرات غيره ثم يحب أن يُحمد بما لم يفعل. وهذا حال الهمم المغشوشة، والتي وإن

صفّقت لهم الجماهير وسجلت أسماءهم كأفضل الناجحين فهم في المفهوم الحقيقي للنجاح مجرد فاشلين.

– كلما فشل الإنسان في امتحان دنيوي عليه أن يتطلع لما بعد هذه الحياة، وينظر كيف هو تقييم هذا الفشل بميزان الآخرة، حتى يحقق التوازن ويدرك أهمية تجاوز الإخفاقات المقدّرة. فإن كان خسارة في الدنيا والآخرة فهذا منتهى الفشل، وإن كان خسارة دنيوية وفوزًا أخرويًا فهذا النجاح بعينه وهذا العزاء.

– علينا أن نتفق تمامًا على أن تحقيق الإسلام في أمتنا هو من أهم الأهداف التي يجب أن ننجح في تحقيقها، وأن الاستسلام للعدو والمحارب للدين مهما جلب علينا من منافع دنيوية هو الفشل الذريع مهما ألبسوها من حجج واهية ومعاذير. فإنما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن مَاء!

– علينا أن نفتح كتاب الله وسنة نبيه الكريم وسير من سبق من الصالحين وننظر كيف كان مفهوم النجاح لدى هذه القمم، وكيف أنه أيضًا محض فضل من الله، يهبه لمن يشاء، فإن شئت أن تنجح أيها المسلم فعليك الاستعانة بالله أولًا وأخيرًا، ثم الاستلهام ممن سبق.

– كل نجاح في أعين الناس ليس بالضرورة أن يكون نجاحًا بالمعنى الحقيقي، فقد تجد الخير في غير ما يرومه المجتمع، كأن يكون خيرك فيما يرونه فشلًا! والله خبير بعباده وبصير بهم. فاسأله أن يدبر لك لأنك لا تحسن التدبير، واسأله من فضله العظيم.

- لابد من ترسيخ مفهوم الفشل في مكانه الصحيح، وتصحيح نظرة من يعتبر المطرب والراقص الذي اشتهر ناجحًا، فهـذا في مقاييس أهل البصيرة إنما هو مشهد فشـل وظلم للنفس والغير. كـذلك لابـد من ترسـيخ مفهـوم النجـاح في مكانـه الصـحيح، فالثـائر على الظلم والنـاهي عن المنكـر نـاجح وإن لم يحقـق تغييرًا.

- ثم في العلاقات الاجتماعية وقصص الزواج والطلاق، والتي هي قدر مقدور على المرء وإن كان يتحمل مسؤولية اختياره، إلا أن النجاح والخسارة فيهما لا ينظر لهما بميزان البشر بل بميزان قاعـدة المفاسـد والمصـالح في الـدين، فـالزواج من رجـل لا يصلي لا يختلف عن وأد البنات في الجاهلية، وإن كان في أعين الناس زوجًا غنيًا ناجحًا. وطلاق مشركة لا تخشى اللـه ولا تتقي حدوده فتستعين بالسحر والسحرة يعتـبر مكسـبًا ونجاحًـا وليس قصة فشل.

- إن النجـاح الـدنيوي إن لم يقـترن بموافقـة الشـريعة وقاعـدة المفاسد والمصالح فهو فشل مهما لمع في أعين الناس وتناقلته الألسن.

وخلاصة القول، حين نـدقق في قصـص الفشـل بين غسـق القرن الغابر، وغلس القرن الحاضر، نجد أن محطات نجاحاتنـا على مستوى الأمة معدودة للأسف، وذلك حين ابتعدنا عن نـور شريعتنا وركنا لأعدائنا واستسلمنا لهزيمة النفس!

فأيها الساعي للنجاح انفض عنك غبار الفشل واليئس، وسابق لجنة الخلود؛ فرضا الرحمن مطمعك، وخدمة الإسلام هدفك، ونصرة المسلمين طريقتك، ولا تبالِ بمن يتهمك بالفشل ويطالبك بالتراجع أو التبديل على ما كان عليه السلف، فإن الشاعر يقول:

ومن تعود في الإخفاق خاطره ... خال النجاح على الأهداف إخفاقًا

✿ ✿ ✿

7

مفاهيمٌ عن الوحدة يجب أن تُصَحح

نقرأ عن الوحدة الكثير ولكن تطبيقها في حياتنا عسير، بالرغم من اتفاقنا على أهميتها وضرورتها كشرطٍ للنجاة في بحر متلاطم الأمواج، وللخلاص من استضعافٍ قد عطّلنا في المسير.

وقفة

ولكن كيف نجمع بين أحاديث وجوب الوحدة والجماعة، وأحاديث واقعية الفرقة والاختلاف، وأحاديث البشرى بنصر الله للفرقة الناجية والتمكين للأمة الواحدة في مشهد واحد؟

الوحدة والجماعة

لم نختلف يومًا بشأن أهمية الوحدة وضرورة تحقيقها كعمود أساسي تقوم عليه قبة النصر. كيف لا وهي أصل ثابت في هذا الدين، فنصوص القرآن ما فتئت تذكرنا بها وبضرورة تحقيقها وكذلك نصوص الحديث تنبّه لذلك وبتكرار يرسخ

في القلب، وبهذا الهدي أوصى أئمة الإسلام السابقون واللاحقون.

ومن ذا لم يردد قول الشاعر في قصصٍ طفولي أو في مقالٍ راشد:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرًا   وإذا افترقن تكسرت أفرادًا

وكم من روايات الأدب والخطب نسجت حروفها بيانًا ساحرًا لترسّخ في أذهاننا أن الوحدة قوة وأن الفرقة ضعف!

ولا تنازعوا فتفشلوا

ولم نختلف أيضا في أن أحد أهم أسباب ضعفنا وتداعي الأمم علينا اليوم هو ذات المرض الذي حدّثنا عنه قبل عقود شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله — حين قال: "وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها، وأمرائها وكبرائها هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها. وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال ـ تعالى ـ: (**وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**). فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به وقعت

بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا؛ فإن الجماعة رحمة، والفرقة عذاب».

وهذا تماما وصف حال أمتنا اليوم، فقد تفرقت هذه الأمة بشكل عميق مؤسف، من تيارات وجماعات، ومذاهب واتجاهات، تتجاذبها الأفكار والمناهج، تستنزفها الخطط والاستراتيجيات العابرة، يبدد طاقاتها التيه والعبث، ويُمعن البعد عن الدين والخصومات، في حالة الاختلاف والفرقة المزرية. ينادي الجميع بالوحدة، ولكن دعواتهم فاشة لم تحقق تلاحما يوما بين الجماهير حتى في أحلك الظروف والمصائب بل وحتى في الثورات إلا أن يكون لحظيا عابرا.

لماذا الفشل؟

ذلك أن في الجهة المقابلة للوحدة والاجتماع المطلوب، ما نبأنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن الفرقة قدر هذه الأمة، والاختلاف كائنٌ لا محالة بين أبنائها، ولا أوضح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبيان ذلك حين قال: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلى واحدة قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي".

ثم إن تـدبر هـذا الحـديث يـدفع بخلاصـات قيّمـة حاسـمة تسـهّل علينـا فهم الواقـع الـذي نعيشـه اليـوم وتبسّـط المفـاهيم وتجيب عن أسئلة عالقة!

ولعل أهم خلاصة نسلّط الضوء عليها، أن كل من حاد عن هدي النبيّ صلى الله عليـه وسـلم، وسـار على غـير نهجـه ونهج صحابته الكرام رضي الله عنهم فقد خرج عن تعريـف الجماعـة التي يجب أن تتبـع ويجب أن يلتحـق بهـا المسـلم ويلتحم فيهـا مع من فيها كالبنيـان المرصـوص وهي الفرقـة الناجيـة، ويجعـل الأمر أكثر جلاء، قول ابن مسعود رضي الله عنـه: "الجماعـة مـا وافق الحق ولو كنت وحدك".

إذن قبل أن ندعو للوحدة لابد من تحقيـق شـرط الاعتصـام بحبل اللـه سـبحانه، والاقتـداء بهـدي نبيـه عليـه أفضـل الصـلاة والسلام. ومن حقق هذا الشرط، فقد أصبح تلقائيا في الجماعـة وأصـبح من الفرقـة الناجيـة! ولا عـبرة بمسـميات الـدول أو التنظيمات أو الأحزاب والجماعات والتكلّفات الزائدة.

مـع الأخـذ بعين الاعتبـار أن الانحـراف في مجـال العقيـدة وموضوعات الإيمان يأتي في مقدمة أسباب الخـروج عن دائـرة الفرقة الناجية ولهذا كـانت فـرق القدريـة والـروافض والخـوارج والمرجئـة من أوائـل الطوائـف دخـولاً في فـرق الهلاك، وكلمـا

كانت الشعب المتفرقة لهذه الطوائف أكثر انحرافا عن عقيدة السلف، كانت أشد إيغالا في هاوية الهلاك.

أما بقية الفرق التي ابتعدت عن الفرقة الناجية بقليل أو كثير، فليس معنى الحديث أن مصيرها الخلود في النار، بل أن مصيرها مصير المسلم العاصي أو المبتدع من أهل القبلة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ما لم يصل للشرك والكفر. (**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**)، بهذا نكون أدركنا مفهوم الوحدة في شريعتنا ومفهوم الفرقة الناجية، والسبيل للانتماء إليها.

مفاهيم خاطئة

وحين نتأمل بتبصر في مشهد الفرقة الذي تعاني منه الأمة نكتشف ذلك التباين في فهم سليمٍ لمفهومها لغة واصطلاحًا، فمنهم من جعلها تحت يد السلطان وإن كان جائرًا ومنهم من جعلها تحت راية حزبٍ بذاته وإن كان متعصبًا، ومنهم من جعلها في مذهبٍ بعينه وإن كان منفردًا ومنهم من حصرها في الوطنية والقومية وهي بالأصل دعوات جاهلية. وكل منهم يستشهد بآية (واعتصموا بحبل الله جميعا)، وهذا إن دلّ فإنه يدل على ضعفٍ في فهم واستنباط معاني الآية وحِكَمها ومغازيها.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : "الاعتصام نوعان: اعتصام بالله، واعتصام بحبل الله... فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به: يعصم من الهَلَكَةِ، فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصدِهِ، فهو محتاج إلى هداية الطريق، والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له".

وهذا تحديدا منهج الفرقة الناجية، وهو منهج النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم، وهو المنهج الذي يتسع معه سقف الإسلام فيضم كل مسلم موحّد آمن بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قولا وعملا، دون أن يكون ثمّة حدود لهذه الوحدة لا جغرافية ولا عرقية ولا نفسية.

وثمة هناك مفهوم آخر للوحدة وجب تصحيحه، وهو الحال في المدلهمات والنوازل، حيث يجتمع البشر غريزة وفطرة لتجاوز المصائب والأخطار، نشاهده عند قيام الثورات في بلاد وإن كانت كافرة أو اشتعال مقاومة عند أمة مستعمرة وإن كانت غير مؤمنة، ذلك أن غريزة حب البقاء تقود فطريا الجماهير للوحدة وإن كانت وحدةً لا يُضمن استمرارها وصلابتها بعد زوال الخطر أو تغير المعطيات، إلا أن أسباب بقائها مرهون باستمرار بقاء المصالح التي تجمعها.

ولا اعتبار لوحدة في الإسلام ما لم تقم على إعلاء كلمة الله ونصرة دينه وإقامة شريعته، وهذا الفرق بين وحدة المسلمين ووحدة الكافرين. لهذا لا يقاس الإيمان بالكفر ولا يقتدي مؤمن بكافر. (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله). فلن تجمعنا العلمانية ولا الديمقراطية ولا الاشتراكية ولا غيرها من دعوات جاهلية بل يجمعنا فقط شريعة الإسلام الربانية (**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**).

أحاديث النصر والتمكين

لا شك أن حقيقة ثبات الفرقة الناجية وتأييد الله ونصره تعالى لها لا يخفى على أحد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك".

وهنا يبرز دور العلماء والدعاة في دعوة الناس للاعتصام بحبل الله المتين وفق مفهومه الصحيح، ويأتي بعد ذلك دور أهل الحل والعقد وكل من له وزن في ساحته، ليجمعوا المسلمين حول قضايا دينهم وأمتهم بالنظر لأولويات الظرف الذي يعيشونه والمصاب الذي ألمّ بهم وبإخوانهم في أقطار

الأرض الواسعة. ومهما طالت المسافات فإن العقيدة تقربها ومهما تباعدت الشعوب فإن الاعتصام بحبل الله يجمعها.

مفارقات

ولي هنا وقفة ألم، وقفة تأمل بالغ الشجن! حين أنظر كيف اتحد الغرب على كفره، وكيف تمكن النصارى على اختلاف فرقهم، من بروتستانت وكاثوليك وغيره، بأناجيل محرّفة مختلفة وحتى ملحدين، كيف تمكنوا من إقامة كيان واحد يحفظ لهم وجودهم ويحقق لهم أهدافهم، في حين أننا أبناء أمة واحدة، وقبلة واحدة وقرآن واحد، ولا زالنا لم نتفق ولم نتحد ولم نؤسس ولو حتى حلفًا واحدا!، فأي وعي وحرص لديهم وأي تقصير وعجز لديناَ!، رغم أن فرص وحدتنا أكبر من فرص اتحادهم وصلابة أسسنا أقوى وأدوم من صلابة أسسهم.

وما يجعل من الطرح أكثر إلحاحًا، أن نشاهد الروافض قد نجحوا في تحقيق شرط الوحدة للعمل، فاتحدوا مع النصيرين والحوثيين مع العلم أنهم يختلفون اختلافا عظيمًا في معتقداتهم بل ومنهم من يكفّر الآخر، ومع ذلك حين أصبح خيالهم الصفوي متصلا، تحركوا بكيان واحد. وأصبح من يعتبر عليّ – رضي الله عنه ـ نبيًا ومن يعتبره ربًا يقاتلان معًا من يؤمن بالله أحدًا صمدًا، ولأن أهل السنة ضعاف متفرقون،

انتزعوا منهم أهم العواصم الإسلامية، كبغداد ودمشق وبيروت وصنعاء واكتمل هلالهم الشيعي!

هذا المشهد كفيل بأن يعيد إلى أذهاننا أهمية الوحدة والسعي المستمر لتحقيقها، وأن ننتبه إلى تقوية الفرقة الناجية لا فرق مبتدعة أو عاصية. فإن أحسنّا البناء والتراصّ، لا تسألن بعدها عن الإنجازات والنجاحات وتنفيذ الخطط البارعة لإحقاق النصر والتي تستمد حكمتها من معين القرآن والسنة للإرتقاء بحضارتنا وتحرير أمتنا. مهما حرص أعداءنا على تكبيل أيدينا أو كسر إرادتنا ومهما تآمرت الأحلاف.

خطوة نحو إقامة الخلافة

كيف ونحن أمة كتبت لها الخلافة في الأرض، ولن تكون وحدتنا اليوم وتراص صفوفنا لإقامة شريعة ربنا إلا خطوة أولى نحو إقامة هذه الخلافة في أرضنا، بقوة يقيننا وإرادتنا وتلاحمنا. لا يحكمنا إلا الله وحده، لا نقبل له شريكًا ولا لشريعته بديلًا.

ويدخل في هذا تجاوز حدود "سايكس بيكو" التي استند لها الغرب بسياسة "فرق تسد" للهيمنة علينا. ويدخل فيها تجاهل كل دعاوى عصبية منتنة أو حزبية مقيتة قد أمعنت في تعميق جراحاتنا وخلافاتنا، ويدخل فيها أيضا اعتبار العالم

الإسلامي كله دولة واحدة وأختم بشرط آخر هو لبنة أساسية في حصن الوحدة، ألا وهو ضرورة توحيد جبهة العلماء في مشارق الأرض ومغاربها وفق منهج الفرقة الناجية وما كان عليه السلف الصالح، وإعادة الاعتبار لهؤلاء العلماء الربانيين وتجاهل علماء السلطان والمصالح، المتسلقين باسم الدين، وذلك بالتفاف الجماهير حولهم والدفاع عنهم ونصرتهم كما كانت تلتف الجماهير بالأمس حول ابن المبارك والعزّ بن عبد السلام وابن تيمية – رحمهم الله – فكان ثمرة ذلك وحدة بديعة حفرت تاريخا ماجدا للمسلمين وحضارة إسلامية هي الأرقى في سلّم حضارات البشرية، لا يزال صداها يتردد في فضاء المستقبل.

لقد عرفنا أسرارًا لهذه الوحدة وأبصرنا الطريق لها، فلم يبق إلا أن نثبت على درب الاستقامة ونلتزم بواجباتنا قبل السؤال عن حقوقنا، لنجد نسيج وحدتنا مبهرًا، بألون شتى، يقذف الإعجاب في قلوب ناظرينا ويبشّر بنصر في الأفق القريب يتلألأ كلما أحسنّا الظن بربنا وأخلصنا الإقبال وأتقنّا العمل ومن كان الله مولاه فمن يقدر على هزيمته! سبحانه هو الناصر الأعلى والأكبر.

✿✿✿

8

حتى يُغيروا ما بأنفسهم، قد وعينا فمتى ننطلق؟

توالت النوازل والنكبات على أمة الإسلام تباعا منذ عقود من الزمن، والمسلمون مكبّلون مقرّنون بالأصفاد، يدورون في دائرة تيه وعبث غير قادرين على الخروج منها، رغم كل المحاولات والانتفاضات على قوى الظلم والشر، ورغم إدراك شريحة واسعة لأسباب هذا الضعف والجمود والتراجع الذي تجاوزته الأمة مرارا من قبل في عصرها الماجد.

في حين يبسط الخبراء والعقلاء في كل يوم نظريات وحلول تبدو صائبة وثاقبة لأزمة الأمة، إلا أن النهضة الحقيقة لم تتحقق بعد ولا زال التجاوب مع جزء محدود من هذه الأمة، إن قارنا حقيقة نسبة هذا الجزء بالعدد الحقيقي للمسلمين على وجه الأرض.

إن أول العقبات التي يتناولها المصلحون هي عقبة "التغيير"، وهي الخطوة الأولى التي نجحت في تعديها فئة من المسلمين ولكن عددهم لا يكفي لإحداث التغيير الجذري الذي يرتقي لمرتبة أمة كاملة تعدادها فاق المليار.. فلابد من

حد أدنى من نسبة التغيير لنشهد التحول الكبير المنتظر والذي بالنظر للمعوقات والأغلال التي تحبس الأمة المسلمة عن القفز إليه أعتقد أن الأزمة العظيمة يعود أصلها لأزمة فردية بادي البدء.

فالأمة نسيج من المجتمعات المسلمة منتشرة في الأرض، كل مجتمع مؤلف من وحدات تشبه الخلايا في النسيج، كذلك حال الأسر في هذا النسيج المجتمعي، فإن حللنا مكونات الأسرة وجدناها تشمل أفرادا بعينهم، لكل فرد منهم وظيفته ودوره في هذه الأمة، ولو دققنا النظر في داخل كل أسرة لوجدنا المشكلة لا زالت في داخل هذه الخلية وتحديدا في هذا الفرد الذي لم ينجح بعد في اجتياز عقبة التغيير وتحقيق التأثير في مجتمعه ..مما يظهر أثره لزاما في حركة تغيير الأمة قاطبة. فلو تحمل كل فرد مسؤوليته في إحداث التغيير في نفسه وفي ما يملك فيه سلطة أو تأثيرا، وزادت درجة الوعي والإدراك بين الأفراد تباعا وتصاعدا، حينها يمكننا الحديث عن تغيير حقيقي يرقى لحجم مصاب هذه الأمة.

إن المتأمل في حالة الفرد المسلم- إلا من رحم ربي- ، رجلا كان أو امرأة ليشعر بالأسى لذلك البعد الحقيقي عن فقه الدين الإسلامي الذي ينتمي إليه، وهو فقه رائع لا يملك إلا أن يخرج فردا متوازنا معطاء مسابقا يُقتدى به في كل المضامير،

سواء الأخلاقية أو العملية أو الاجتماعية أو العسكرية أو السياسية أو غيرها، لأن الغالب عليه تلك القوة الإيمانية التي تحدد خطواته وتوجّه طموحاته لما فيه خير نفسه وخير أمته. قوة تدفعه للمسابقة بالخيرات وللإعداد لنيل الأجر والثواب ولمراقبة الجودة والإتقان .. فكيف لا تخرج أمة هي خير أمة أخرجت للناس.

نعم ندرك جميعنا أن البداية تبدأ من النفس، منا نحن، ولكن للأسف لا زال التسويف والتواكل والتبرير داء العصر، وكلّ ينتظر من ينطلق أولا أو من يحقق التغيير مسبقا.. وهذا ضرب من الخيال، فلا بد من تكاتف ووحدة جهود، بتغيرك أنت وتغير زيد وعمر وسلمى، سنخرج بنسيج في الأمة أكثر قدرة على تقديم القدوة واستجداء النصر والتمكين من ربّ العالمين، فهي طريق امتحان وبلاء وعقاب، لا ينجو فيها إلا من وعى وأدرك رسالة ربّه وأخذ الكتاب بقوة لم تغره حياة دنية ولم تستغفله نفوس مطيّة، واستمر في سبيل سار فيه خير سلف ليكون بحق خير خلف.

إنها قصة كفاح طويل يقضيها المسلم في ترسيخ مفهوم تلك الرسالة النبيلة العظيمة، رسالة الإسلام الذي لم يحملها على مرّ العصور إلا من كانوا أهلا لحملها، فبلّغوا الأمانة وحفظوا العهد وأبلوا البلاء الحسن في تشييد مجد أمة يغيظ

الأعداء ويخلق في أنفسهم ذلك الاحترام المرغم لأمة مسلمة عرفت كيف تترجم المبادئ والقيّم أفعالا على أرض الواقع كما أدركت كيف توظّف الهمم لتحقيق أعظم حضارة إنسانية في عالم الوجود.

نعم نحلم جميعا بعصر الأندلس وأيام الخلافة المزدهرة وصدر الإسلام الأول حين عمّ العدل الأرض فتسابقت أجناس البشر لتقديم الولاء ودفع الجزية وهم صاغرون. حين كنا ندرك معادلة الازدهار والنجاح، فعلمنا أن كينونتنا لن تكون إلا بدين ربنا.. أما اليوم فلابد لمن غيّر وبدّل وتخلى عن الإسلام أن يتخلى عنه الإسلام وأن يسلبه المجد والعزة والقوة، هكذا هي المعادلة أخذ وعطاء، لو أعطينا الإسلام حقه لما منعنا حقنا في التباهي بحضارة الإسلام الماجدة.

ولنرجع للبداية لأول الطريق حين نرى آية ربنا تبيّن لنا السبيل للخروج من دائرة العبث والتيه بكل وضوح:

﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾

الآية الكريمة آية عظيمة تدل على أن الله تبارك وتعالى بكمال عدله وكمال حكمته لا يُغير ما بقوم من خير إلى شر، ومن شر إلى خير ومن رخاء إلى شدة، ومن شدة إلى رخاء حتى يغيروا ما بأنفسهم، فإذا كانوا في صلاح واستقامة وغيروا غير

الله عليهم بالعقوبات والنكبات والشدائد والجدب والقحط، والتفرق وغير هذا من أنواع العقوبات جزاء وفاقا قال سبحانه:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

فأيها المسلم .. أيتها المسلمة.. ما نسبة التزامك بالإسلام، ما نسبة تطبيقك لفروضه واهتمامك بعلومه وتفقهك فيه، إن الحد الأدنى الذي على كل مسلم ومسلمة حفظه، هو إقامة فروض الإسلام ومجاهدة النفس والاستعانة بالعبادات القلبية والسعي للإتقان والإحسان في كل عمل يقوم به وفي كل خطوة يقدم عليها، فالإتقان والإحسان عبادة تقلّصت في هذه الأيام، والغش أصبح فنا يتسابق فيه المسلمون بكل فخر وتباهي رغم التنبيه النبوي الصريح (من غشنا فليس منا)، فلو أن كل امرئ تحرى أن يجعل من عمله سواء ـ الدنيوي أوالأخروي ـ عملا متقنا هدفه الإحسان، لما انبهر أحد بحضارة غربية أو تطور غربي أو تفوق،فأساس سباق الغرب لنا إتقانهم وإحسانهم في أعمالهم الدنيوية.

في حين برع المسلمون في التواكل والتسويف والغش والخداع وبحث الحلول الاتكالية والطرقات الملتوية، في سبيل

الذّعة والخنوع، تأملوا معي لحظة واحدة لو أن الفرد كان متقنا لعمله ملتزما بفروض دينه ومتأسيا بأخلاق الصالحين ومكارمهم لابد أن يحبه من حوله ويلتمسوا فيه القدوة فيمكنه حينها التأثير وجذب الأقرب فالأقرب بدعوتهم وشغل فكرهم بما هو الأعظم اليوم، إنه مصاب الأمة، ونوازلها، كيفية نصرة هذه الأمة ونصرة دين الإسلام، ولابد لكل من ذاق لذة حمل هذا الهمّ أن تصغر كل المطالب أمام عينه وتتقزم كل الهموم الأخرى، ويشغل روحه وتفكيره أمة الإسلام والسبيل لحريتها واسترجاع مجدها الذي ضاع بسبب خنوعنا وذلتنا وهواننا على الناس.. إنها مجرد قفزة واحدة إن وصلت تلك القناعة للنفس ورسخت أن هذا هو الهدف الذي يجب أن نعمل له ونكرس له حياتنا وفكرنا، لتغيرت حياة المسلم والمسلمة تماما، ولأصبح يشعر بالهمة تتدفق لعروقه وللقوة تشتعل في حواسه وللعطاء ينطلق من جوارحه، نعم هو كماء الحياة يحيي الروح لتستجيب لنداء ربها وتقوم بواجبها في مرحلة هي الأحلك في تاريخ الأمة..

إن وصلنا لزرع هذه المفاهيم بيننا سيصبح الأب متقنا في أبوته وفي تربيته لأولاده وفي عمله وفي علاقته مع أهله وجيرانه وكذلك الأم وكذلك الأبناء وكذلك الطبيب والمهندس والتاجر والطالب وكل فئات الأمة، سيسعون لأن يقدموا تلك الصورة

النقية المبهرة للمسلم والمسلمة، فلن تجد إلا النظام وإلا الإيثار وإلا الخلق الحسن والجد والعمل لتحقيق التغيير المنشود.

أيها الناس، لماذا ابتلانا الله بهذه النوازل، عقابا كان أم ابتلاء، لأننا ابتعدنا عن حبل الله وعن هدي نبيّه صلى الله عليه وسلم، و الحل واحد لا غير، هو العودة لديننا وأخذ هذا الكتاب بقوة والفرار إلى الله، ومن ابتغى العزة بالإسلام أعزه ومن خدم الإسلام خدمه ومن ضحى للإسلام رفع الله منزلته وذكره.

أيها التواق لمجد أمة عظيمة، لا تستصغر العمل، فحتى لو كان تنظيف شارع أو رمي قمامة فهو في آلة التغيير خطوة مهمة ولبنة أساسية لانتظام الحركة وتحقيق الإتقان والإحسان، لا تعجز عن ترسيخ مفهوم العمل والتعاون لله وفي سبيل الله، به تنتعش الروح وتشعر ببركة العطاء وبركة الصدق وبركة المسابقة.. وإن نجحت في ضبط نفسك على هذه الطريق ستجد لك رفقاء وكلما اتسع النسيج كلما ظهر ذلك جليا في الأمة، وكلما ساد الخير تغلب على الشر وعلى البؤس والخنوع.

هكذا قام أسلافنا حين اجتمع عليهم الأعداء، تداركوا أنفسهم وتخلصوا من أحقادهم وتطاحنهم ثم قاموا قومة رجل واحد ورصوا الصفوف وأعدوا العدة فهزموا أعتي قوة وأقاموا صرح الإسلام شامخا لا يخشى فيه المسلم أحدا إلا الله.

وحتى يستقيم العمل وحتى نُقبِل بلا ملل، لابد من غذاء لتلك الأرواح لابد من وقود وشحذ للهمم، فلا أفضل من صحبه المشاعل والقناديل ومن الإبحار في كل ما فيه فائدة ومنفعة، والعلم هو أفضل بحر نغوص فيه فنخرج باللآلئ والدرر.

كيف تخشع إن لم تذكر الله، وكيف تُلهم نفسك وتُوقد همتك إن لم تذاكر سير العظماء والفاتحين، وكيف تسابق وتتفوق إن لم تطالع تاريخ المسلمين ورقائق الأسلاف الصالحين. فهل يمكن لسيارة أن تصل بدون وقود لوجهتها، كذلك الروح لابد لها من وقود، ووقودها العلم والعبادة، فإن حصلت عليهما أنار الله لها الدرب ومشت بقوة وعزم تتخطى بخطوات ثابتة كل العواقب والصعوبات ويقينا ستصل.

واقعية هذا الدين أنه أمرنا أن نتحرك ولكن في حدود استطاعتنا، وهذا من رحمة الله بعباده لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولكن لا يقل أحد (لا أستطيع) قبل أن يجرب قبل أن يفجر تلك الطاقات الكامنة في ذاته، قبل أن يمهد نفسه للعطاء، وينبهر بنفسه من قوة الإيمان كيف صنعت رجالا قاموا لهذا الدين فأذهلوا العالم، فيقتدي ويطبّق.. إن القلب إن آمن هانت في عينه كل الصعاب وأصبح النجاح والإنجاز هو الفن المتقن لا غير.

لا شك أن المؤامرة كبيرة وكبيرة جدا على أهل الإسلام، واليوم وقبل أي تأخير ليراجع كل منا مصادر علمه ومصادر معرفته، بل حتى مصادر ترفيهه وتسليته.. حتى القنوات التي يتابع هل هي مأجورة عميلة أم هي محايدة سليمة، فليصنف مصادر المعلومة لديه، وليتحرى النظيفة السليمة الأقرب للحق، وليجعل ذلك سنة في حياته، لا تقع عينه إلا على طيب ولا يبحث إلا في الخيرات يتجنب مواقع الشبهات والشياطين إنسهم وجنهم، وليحفظ نفسه ومن يحب من لوثات الفكر ومن دس السم في العسل ومن حرف لعقيدة سامية بحقن الثقافة الغربية والانهزامية ..

على المعلم أن يجعل من فصله قدوة وعلى المدير أن يجعل من مدرسته مثالا يُحتذى به، وعلى الأم والأب أن يجعلا من أسرتهما لبنة قوية في بنيان الأمة. وكذلك كل مسؤول هو مسؤول عن رعيته، فالعامل في مؤسسته والتاجر في سوقه والساعي في حاجات الناس في مجتمعه.

✿ ✿ ✿

9

تسع خطواتٍ عملية للتغيير، فمتى ننطلق؟

أولا: اجعل نيّتك لله وفي سبيل رضاه، ورسخ في ذهنك أن النية الصالحة لوحدها لا تكفي لابد من ارتباطها بفعل وعمل ونتائج على أرض الواقع.

ثانيا: تخلص من كل تلك المشاعر والمثبطات التي تلقي باللوم على الآخرين في تشخيص حالتك، فالقوة في التغيير تنبثق من داخلك ولا يمكن للخارج أن يوقفها حين تندفع .. هذا هو الشعور بالمسؤولية والتخلص من تحميل الآخرين مسؤوليتك فتمضي بقوة دون حظ للتثبيط.

ثالثا: انقد نفسك بصدق وشفافية، حدد قائمة المشاكل والأخطاء و نقاط الخلل في حياتك، ارصد مواقع الزلل والضعف والتقصير وداوها بالتي هي أحسن، وكن حازما في إيجاد العلاجات السليمة والحلول الناجعة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت

والعـاجز من أتبـع نفسـه هواهـا وتمـنى على اللـه الأمـاني) رواه الترمذي.

رابعا: خُطّ لنفسـك جـدولا يكـون فيـه حـد أدنى للعبـادات وبرنـامج إيمـاني يـومي لا تتنـازل عنـه مهمـا حصـل ، واجعـل الالـتزام بـه أمـرا مصـيريا ولابـد أن يشـمل البرنـامج ورد تلاوة للقرآن يومي.

خامسا: صنّف علاقاتـك واهتماماتـك، كـل مـا قـد يثبـط انطلاقتك قم بتحييده وإبعـاده من سـاحتك ولـو مرحليـا، فلابـد للانطلاقـة من عـزم ولابـد للعـزم من وسـط يعينـه، ولا تتحجج بعائلة غير واعيـة أو مدركـة ولا ظـروف ماديـة قـاهرة، فالإنسـان حر في نفسه وفي داخله لا يمنعـه شـيء من هـذه الحريـة كمـا لا يمكن لقـوة أن تمنعـه من الاتصـال بربـه ودعائـه، ولم نـر أكـثر تأثيرا سلبيا من صحبة مثبطة أو رفقة بهمة خاملة .. ولسرعان ما ينعكس الحال مع رفقـة الهمم العاليـة والأرواح الـتي تسـمو إلى سموق القمم.

سادسا: حدد خريطة الأهداف المرحلية والمستقبلية، مـا ينقصك لترتقي به تعلمه وما تـرى أنـه مهم للأمـة المسـلمة خـذ

غماره بثقة ويقين أنك ستناله إن وجدت في نفسك الرغبة له، وابحث عن كل ما يعينك في هذا التغيير، من كتب من أفكار من أشخاص مؤثرين من مصادر ملهمة، خاصة وأن العالم اختصر اليوم في صفحات الأنترنت فلم يعد لك من حجة للانطواء أو التخلف. لابد أنك ستجد من يشاطرك نفس الاهتمامات في العالم ويحمل نفس أهدافك فاستفد من هذا الفضاء الرائع لمن أراد أن يخدم أمته.

أيها الباحث عن الخلاص والارتقاء، لا يعقل أنك لم تتدبر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم أو أنك لم تقرأ عن صحابته وروائع إنجازاتهم وعلو هممهم أوأنك لم تدري كيف قامت الحضارة في خلافة الأمويين والعباسيين أو أنك لم تتعلم من عبد الرحمن الداخل كيف أسست همة رجل واحد خلافة الأندلس المبهرة، وكيف ينطلق الرجل من لا شيء ليصنع كل شيء..

في يوم من الأيام، وبينما كان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بين حاشيته قال لهم: (أخبروني من صقر قريش من الملوك ؟)، قالوا: (ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك،

وسكن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء)، قال: (ما قلتم شيئًا).

قالوا: (فمعاوية)، قال: (ولا هذا)، قالوا: (فعبد الملك بن مروان)، قال: (ما قلتم شيئًا)، قالوا: (يا أمير المؤمنين، فمن هو؟)، قال: (صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًّا مفردًا، فمصَّر الأمصار، وجند الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام مُلكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شكيمته).

كيف ترضى أن تكون جاهلا بتاريخ فلسطين أوتجهل كيف قامت دولة المرابطين أو أن تغيب عنك تفاصيل الحروب الصليبية. أو أنك لا تدرك كيف يسير النظام العالمي من حولك وكيف تحاك المكائد والمؤامرات على أمة الإسلام، اختر ما شئت من المصادر، كتبا كانت أو محاضرات وكل ما من شأنه أن يوسع دائرة معرفتك ويضاعف درجة العلم لديك، حتى تصل لدرجة تجعلك على استعداد للمشاركة بإيجابية في أي أمر يخص الإصلاح والدعوة وبناء جيل النصر والتمكين، إن لم نقل يجعل منك بنفسك أهلا لتكون أحد قادة هذا الجيل.

سابعا: لا تخبر أحدا بعزمك حتى يظهر في عينيك في جوارحك وتصرفاتك، فعادة الحديث عن التغيير قبل الشروع فعليا فيه أول أسباب الانتكاس والتراجع، ينتهزه الشيطان لتهوين أهميته وقد يغلب القول على الفعل فتثبط الهمة ويقعد المرء، ولكن حين تكون الأفعال هي المهمة وهي الأبلغ من كل كلام، ستسعى حتما للدفع بكل طاقتك للعمل بجد مدخرا طاقة الحديث عما تنوي الإقدام عليه، فيكون التأثير أكبر، ثم حين تنجو من هذه المرحلة وتضع لنفسك موطأ قدم في موكب التغيير هنا يمكنك الحديث بثقة فقد أصبحت مجربا وحرّي بك أن تنصح وتدعو من تحب.

ثامنا: كن مؤثرا فيمن حولك واجذبهم إليك واحدا واحدا، فإن لم تنجح فلا تيئس وجرب في دائرة أخرى وانتخب لها آخرين ولو كانوا مجاهيل بالنسبة إليك ..

تاسعا: الآن وقد أعددت نفسك وكسرت روتين حياة مثبطة وهزمت خمول نفس متضررة، تذكر أن من جدَّ وجد، ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل، وأن العارف المصرِّ هو من يجني ثمار تعبه ويبلغ أهدافه، واجعل نصب

عينيك (**وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا**) ولابد بعدها من حفظ هذا الإنجاز والحرص على ديمومته، وإياك بنقض الغزل فهو يبدأ من استصغار الذنب، بل كن بهمة عالية وروح سامية تسابق للقمم لا ترضى لنفسها سقوطا للدنية.

شبهات وجب ردها

- نظرية المؤامرة: هي نظرية زرعت زرعا في مجتمعاتنا المسلمة، ما إن نذكر قدوة حتى تتوجه أصابع الإتهام إليها وما إن نتحدث عن إنجاز حتى تحوم به تشويهات المؤامرة، والكل يبحر في فلك المؤامرة، حتى لا يأمن مسلم من أخيه.. فأي نجاح يحققه لابد أن يكون خلفه مؤامرة، وبالعكس أي فشل يقع فيه لابد أن خلفه مؤامرة، – حقيقة- هي حلقة متعبة مستنزفة وتعبث بشباب الأمة، ولا زالت تعتبر من أهم الأسباب التي تعيق التغيير. فمهما حاول المرء أن يغير، سيبرر كل سقطة أو فشل بأنه بسبب المؤامرة وبالتالي لن يتمكن من تحقيق أي تغيير لأن التغيير أمر

داخلي، لا يمكن أن يتحقــق إن كــانت القناعــة في أن السبب خارجي..!

- نظريــة الانهزامية: كلمــا بــزغت همــة تريــد أن تحقــق تغييرا وجهت لها عبارات التخذيل والتثبيـط، لـو أنـك في بلاد الغـرب لحققت، أمـا هنـا فـأنت مقيّـد، فقـد أصبح محفـورا في أذهـان الشـباب المسـلم أن تحقيـق التغيـير يكـون بـالهجرة للغـرب، وأن النجـاح مرهـون بتغيــير الأرض والعيش تحت ظــل حكومــة تحــترم الحريات وهي البلاد الغربية حسب مـا تم تعويـدهم .. جرعات مستمرة من قناعة أن (الغرب أفضل).. تخلـق تلك الانهزامية والاستسلام لكل مـا يواجـه المسـلم في حياتـه وهي نظريـة مدروسـة، عملت عليهـا الولايـات المتحدة بقوة حين كرست إنتاجاتها السنمائية ومملكـة هوليــود لإنتــاج الأفلام الــتي تعظم القــوة الأمريكيــة والرجل الأمريكي وتصغر من الرجل المسـلم والعـربي وتخلق في نفسه ذلك الشعور بالتدني والضـعف، حين ينبهر بسنما موجهة خصيصا لخلق هـذه الانهزاميـة في

نفسـه ويصـبح أكـبر مـا يشـغل بالـه أن يتشـبه بـذلك الممثل الكافر أو تلـك الممثلـة السـاقطة لمـا أبهـره من قوة أو "تحضـر" مزعـوم، في الواقـع هـذا الصـنف من الشباب لو أدمن على قـراءة تـاريخ المسـلمين لتغـيرت نظرته تماما، فتاريخ المسلمين حقـائق ووقـائع صـادقة لا تحريـف ولا تمثيـل فيهـا، وقصـص نجاحـات وبطـولات لا تزويـر فيهـا، بينمـا هوليـود فهي محض تمثيـل ولا تمت للواقـع بصـله، إنهـا بطـولات وهميـة يريدون من خلالها إصباغ صفة القوة والعظمة والريادة لجـانبهم في العـالم ولم يجـدوا أفضـل من التمثيـل لترسيخها في أذهـان المسـلمين، وهـذا مـا يفسـر غـزو السنما الأمريكية ديـار المسـلمين وشاشـاتهم الفضـائية وتجارة الفيديو، فقد استُدرج شـبابنا ليفرغـوا حـنينهم للعزة والمجد في أفلام العدو المتربص بهم..!

من أين أبدأ؟

كثيرا ما يـردد المـرء (ولكن من أين أبـدأ؟) ويمكث أمـدا يفكـر من أين يبدأ، ثم يـبرر تخلفـه بعـدم تـوفر الفرصـة، وهـذا مجـرد تهرب في الواقع، لأن التغيير يبـدأ من دائـرة التـأثير الـذاتي لكـل شخص وهي دائرة تشمل كل القرارات والأفعال التي تقع تحت تأثيرك وحدك ، وتحتاج إلى قرار منك أنت وحـدك، ولا تحتـاج إلى التدخل من أي طرف آخر. فابدأ بها اليوم ولا تسوف، انطلق ولا تتـأخر، فقـد انطلـق آخـرون ورأوا من لـذة المسـابقة مـا إن عرفته لسارعت للفوز بها بدل الركون لحيـاة مملـة مثبطـة تتـوق للمجد ولا يمكنها أن تصل إليه إلا في خيالها وأحلامها. وشـتان بين لذة الحقيقة ولذة الخيال.

✿ ✿ ✿

10

27 قاعدة لإدارة الوقت والتوفيق بين الاجتهاد الديني والأعمال الدنيوية

إدارة الوقت، تلك الثروة التي يجهل الكثيرون حقيقة وجودها، تُعد لبنة أساسيةً في بناء حصن عطاء المسلم وقوة تأثيره. وبالتأمل في سِيَر من سبق، ثم اجتهادات من لحق، نجد أن إدارة الوقت عندهم تعتمد على محورين رئيسيين:

الأول: البركة، التي نحن بأمس الحاجة لها.

الثاني: التنظيم، الذي يجعل من الوقت موائمًا لأهدافنا.

وحول هذين المحورين يكون العطاء الأمثل لهذه الثروة الأهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعمتان مَغبون فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ»، فهو الغبن بعينه أن يمتلك المرء الوقت والصحة، أي المساحة والقدرة، ثم يضيعان منه هدرًا بلا مبالاة بدل أن يستثمرهما فيما فيه الخير والصلاح للمرء نفسه، ولمن حوله أو تحت رعايته.

سؤال مُلِح

ولكن السؤال الذي يطرحه المدركون لقيمة الـوقت هـو مـا الخطة الأنسب للتوفيق بين الاجتهاد الـديني والأعمـال الدنيويـة في عالمٍ مكتظٍّ بـالهموم؟، وكيـف نسـطّر أفضـل جـدول، سـواءً كـان صـاحبه مرتبطًـا بـدوام بعينـه، أو كـانت ربّـة بيت تـؤدي وظـائف الأم والمربيـة، وفي ذات الـوقت تحمـل همّ العبـادة والمسابقة لنيل المراتب العُلى، ويزداد الأمر صعوبة لـديها حين تكون عاملة خارج البيت، وغالبًا ما يشتكي كل طرف من ضـيق الـوقت، وعـدم القـدرة على الموازنـة بين المطلـبين الـدنيوي والأخروي، ويحاول بعضهم التفريـق بين كلا المطلـبين وجعـل وقت محدد لهذا أو ذاك. في حين أن الجمع بينهما هو الأفضـل والأكثر بركة.

ولنلخص الآن في نقـاط أبـرز القواعـد الـتي يمكننـا عن طريقها إتقان فن استغلال أوقاتنا أحسن ما يكون:

فقه الأولويات: ويشمل كل فرض وواجب له الأولوية في برنامجنا. والأساس فيه هو الصلاة، التي هي عماد الدين، وكـل

ما يشترك في هذه الأولويات، ولكنها تزيد وتتغير بحسب اهتمامات المرء ومسئولياته.

تجارة الوقت: ويدخل في هذا المعنى شراء الوقت وعدم الاستهانة بالدقائق والثواني، لا فقط الساعات والأيام. مثال على ذلك اختصار الطرق للوصول إلى عنوان نريده، أو الاستعانة بسيارة سريعة بدل حافلة بطيئة، أو دفع الفواتير عن طريق الإنترنت بدل التحرك لمراكز الدفع والوقوف في الطوابير، وغيرها من أساليب شراء الوقت.

التفويض: وهنا يتم التخلص من عبء بعض النشاطات بتفويض من نثق فيه ليتمّها ويوفّر علينا جزءًا من وقتنا، كتفويض من يتولى شراء الحاجيات من السوق، أو المساعدة في تنظيف البيت بحسب الحاجة لذلك.

جمع المهام معًا: أو اصطياد عدة عصافير بحجرٍ واحدٍ، ويدخل في هذا المعنى أن نجمع المهام التي يمكننا القيام بها كلها في آن واحد. فمثلًا أن تشتري أغراضًا، وتنجز مكالمة هاتفية، وتستغفر الله مئة مرة، وتتصدق بصدقة خفيّة، وتصل رحمًا؛ كل هذا يمكن أن تقوم به خلال جولة واحدة. وأكثر

العبادات التي يمكننا أن نجمعها مع الأعمال الدنيوية الأخرى هي عبادة الذكر، وللأسف يحرم الكثيرون أنفسهم من فضلها. فالأم حين تقوم بمهام البيت يمكنها أن تذكر الله آلاف المرات، وكم من مرة يمكن للراكب في طريقه والعامل في عمله والطالب في جامعته أن يردد "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله".

قاعدة الإقصاء: وفيها يدخل مفهوم تنحية الأمور التي تشغل وقتنا بلا فائدة، سواء بشكل مؤقت أو نهائيّ.

قاعدة التنويع: النفس البشرية مجبولة على حبّ التنويع وتمل بسرعة من "الروتين"، وعلى المرء أن يحسن تنويع اهتماماته، وفي بعض المرات نضطر لأن نفاضل بين برامجنا، تمامًا مثلما تُشعِرنا ألوان المعروف لذة في العطاء. فاليوم صدقة، وغداً صلاة وقيام، وبعده مساعدة، وربما كفالة يتيم، أو صناعة تطوع، وتلك الأيام نتسابق فيها لنيل الأجر الكبير.

قاعدة الإلمام بالأهمّ: الظروف التي تمر بها الأمة الإسلامية تفرض على كل منا متابعة يومية لأحداثها والمساهمة في

نهوضـها، ولعـل كتـاب الشـيخ إبـراهيم السـكران "الماجريـات" يفيد أكثر في هذا الأمر.

قاعدة الاقتصاد: كل ما يمكننا تأجيله أو التخفيف منه في سـبيل إيجـاد متسـع لمـا هـو أهم يـدخل في بـاب الاقتصـاد، وتدخل فيـه أيضًـا المحافظـة على مـا لـدينا من أدوات؛ حـتى لا نضطر لمعاودة البذل لتحصيلها، فيصبح الوقت المستغرق فيهـا مضاعفًا.

قاعدة التعاون: يمكننا توظيف قاعدة التعاون حين نعلم أننـا سـننجز بشـكل أسـرع وأفضـل، وليس على حسـاب أوقاتنـا وإتقاننا.

قاعدة الاستدراك: كثيرة هي المهام التي نعجز عن تأديتها في وقتهـا، ولكن معنـا الـوقت لاسـتدراكها، وبحسـب أهميتهـا يمكننا تعجيل أو تأخير هذا الاستدراك.

قاعدة التوفيق: وهي أن نُوفِّق بين الأخذ والعطاء في نفس الـوقت. مثلًا أن نعمـل عملًا وفي نفس الـوقت نتعلمـه، أو أن نُحفّظ طفلًا القرآن ونحفظ معه في آن واحد.

قاعدة حسن الصحبة: وجود بعض الأصحاب في حياتنا مغنم، فيوفرون علينا عناء البحث عن معلومةٍ أو خبر، أو أداء بعض المهام، أو يكفي أن تذكرنا رؤيتهم بالله، فيتصلون حين يكون التحفيز للمسابقة في الخيرات وحسن الاقتداء والنظام، وبالمثل يجب أن نكون بدورنا.

قاعدة الحزم: حين نجد أنفسنا قد تأخرنا كثيرًا، كأن يُمضي المرء أسبوعًا دون قراءة للقرآن أو ذكر أو أي تقرب من الله، فليحزم أمره وليقطع كل ما بيديه ويقتطع بالقوة وقتًا لهذه العبادة؛ فيختلي بنفسه لأداء ما عليه من ديون. والاختلاء مهمٌ جدًا للإنجاز، كأن يبعد عن الضوضاء، ويغلق هاتفه، ويفتح مصحفه ويقرأ ما شاء الله حتى يسكن قلبه، ونستعين بقاعدة الحزم أيضًا في كل مرة لاحظنا تهاونًا في أداء عباداتنا، أو حتى واجباتنا الدنيوية.

قاعدة ما لا يُدرَك كلُّه، لا يُترَكْ جُلُّه: وتسمح هذه القاعدة بتحصيل أعلى قدر من الخير بدل الخير كله، وتُناسِب هذه القاعدة المريض أو المبتلى أو كل شخص يعوقه عائق عن الأداء الأمثل له.

قاعدة الوفاء: يدخل في نشاطاتنا اليومية الكثير من تأدية الأمانات والوفاء بالعهود، فلا تأخذ على نفسك حمل أمانة أو عهد دون التأكد من أنك ستؤديه حق التأدية.

قاعدة ﴿لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها﴾: مشكلة الكثيرين منا أنهم يريدون كل شيء أو لا شيء، كمن يريد أن يحفظ القرآن كله في شهر!، وللأسف لا يضع في حسبانه طاقته البشرية أو ظروفه أو تحديات الحياة، لهذا وجب أن نقدم بحسب قدرتنا، ولا نكلف أنفسنا أكثر من قدرتها. وكذلك كل الأعمال التي نقوم بها، نقدرها بحسب قدراتنا وليس بحسب رغباتنا الحالمة!

قاعدة الآن وليس غدًا: الكثير من الأعمال يمكننا إنجازها دون تسويف، وكلما ترفعنا عن التسويف كلما كان معدل إنجازاتنا مرتفعًا، والأجدر بنا أن نطبق قاعدة: «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد».

قاعدة المحاسبة قبل النوم: بعض الأعمال يمكننا استدراكها قبل النوم، مثل ذكر الله بالاستغفار والتسبيح والحمد، وهي قاعدة تسمح بالمحاسبة لكل أدائنا اليومي،

ومعرفة درجة إتمامنا لحقوق وواجبات تقع على كاهلنا. وحين نبصر تقصيرًا ما نعزم على تعويضه في الغد المشرق بالمسابقة. قاعدة العقاب: فلا بد من عقاب للنفس حين تقصر كثيرًا في أمر، فحين يكون هناك الكثير من الغيبة أو الذنوب المتراكمة في هذا الأسبوع يكون العقاب بتكثيف العمل الخيري؛ كإخراج الصدقات أو الاستغفار المضاعف والإحسان لمن أسأنا إليه، وإيقاف أي نوع من اللهو ليدخل العقاب الإيجابي في برنامجنا اليومي كأولوية.

قاعدة المواسم: لا يمكن أن نفرّط في موسم عظيم كرمضان أو كالعشر الأوائل من ذي الحجة أو في عمرة أو حج أو أي موسم نلمس فيه تميزًا في الأجر. كذلك يدخل فيها العطل والإجازات التي يفضل أن نُحسن استثمارها أحسن استثمار.

قاعدة حسن الاختيار: قد نضطر للاختيار بين أمرين ،كأن نُخيَّر بين وجهة ووجهات، أو عمل من بين الأعمال، فلا بد من اختيار الأفضل دومًا، من ناحية المكان والجدوى والفائدة.

ويدخل في هذه القاعدة البدء بإنجاز الأعمال والواجبات التي لا تستغرق وقتًا كثيرًا بشكل سريع قبل الاستغراق في إتمام أخرى تستوجب وقتًا أطول. وهذا هو فن سرعة الإنجاز بتمرير السريع السهل؛ حتى لا يحرمنا الطويل الصعب لذة الإنجاز.

قاعدة أفضل أداء: حتى لا نضطر لأن نعيد العمل ونستهلك مجددًا وقتًا آخر لإنجازه، نحاول قدر المستطاع تقديم أفضل أعمالنا بإتقان، ونختصر بذلك الكثير من التكرار وإعادة المحاولة.

قاعدة الاستثناءات: لكل قاعدة استثناءات، فقد يقطع سيلَ العمل مرضٌ أو وفاةُ قريب، وهناك حالات كرب أو نوازل أو حرب وقصف، يختلف فيها أداء المرء، ولا يشغل جدوله إلا الأولويات ثم الحدث الذي هو فيه.

قاعدة انتهاز الفرص: كثيرًا ما تصادفنا فرصة لعمل خير أو ارتقاء دون تخطيط مسبق؛ لذلك، وهذا من فضل الله علينا، فعلينا أن ننتهز الفرص ونركب أمواجها، فهي ثمينة، وبمثل الكنز لمن صادفها في حياته. وحين نسمع عن فرصة أداء عمرة أو الالتحاق بدورة مميزة لا نفوّتها كياسةً.

قاعدة المرونة: في التعامل مع الوقت، لا يجب أن يكون اتباع البرنامج بشكل ملزم إجباريّ مع بعض المهام، بل يمكن تحريك محطاته بمرونة خلال محور الزمن، لكن بالحفاظ على نفس الأهداف.

قاعدة استراحة المقاتل: لا يمكن لأي نفس بشرية أن تقدم أفضل ما لديها دون أن تحصل على محطات استراحة تأتي بشكل يسمح لها بالانطلاق أقوى مما كانت عليه. وهي المحطات التي تتوقف فيها الانشغالات الدنيوية، لكن لا تنفك تتمسك بجيد السماء المتين من ذكر وقرب ووصال، بما يسكن النفس ويقوّيها.

قاعدة تحصيل البركة: حتى نستشعر البركة في أعمالنا؛ لا بد أولًا من جعل النيّة صالحةً، فحتى الأعمال الدنيوية يمكن أن تكون النية فيها دخول المرء في مفهوم حديث (اليد العليا خير من اليد السفلى)، وفي كل عمل إن رافقه ذكر لله أو صدقة أو مساعدة لأحد ما، كتفريج كربة مسلم أو أداء دين عنه وغيره، ستنعكس تلقائيًا بركة في حياته.

كذلك صلاة القيام، فركعتان قبيل الفجر لهما من الأثر الكبير في باقي اليوم لمن جرّب هذه العبادة العظيمة. وفي صلاة الضحى بركة وقت وصحة!، وكل من التزم ورده للقرآن تحدث عن بركة في الوقت عجيبة. وهنا يظهر فضل الله سبحانه مع من يكّد في يومه، وليله قد جعل عمله الدنيوي وحركاته وسكناته عبادةً، وبين من يلهث كأنه آلة. ورغم إتقانه فن التنظيم، إلا أنه يفتقد للبركة ويشكو ضيق الوقت.

قاعدة الاستعانة بالله والدعاء: فلولا معونة الله لنا ما كنا لننجز أيّ إنجاز في حياتنا، ولن نتمكن من إيفاء برامجنا اليومية حقها من الأداء توقيتًا وإتقانًا. لهذا لا بد من قاعدة ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ قاعدة طلب المعونة من الله سبحانه في كل أمر يستعصي علينا أو حتى يسهل.

ختامًا يمكننا اعتماد هذه القواعد، بعضها أو كلها، أو التنويع بينها لتحقيق أفضل استغلال للوقت. ولا بد أن يكون جدولنا اليومي جدول السعداء لا الأشقياء، من خلال أداء مهامه كعباد لله لا عباد للدنيا ﴿**قل إن صلاتي ونسكي ومحياي**

ومماتي لله رب العالمين * لا شريك له بذلك أمـرت وأنـا أول المسلمين﴾. وفقنا الله وإياكم لخير ما يرضى.

✿ ✿ ✿

11

حين يكون لسان الحال أبلغ من لسان المقال

لقد ابتليت أمتنا اليوم ببعدها عن تطبيق الشريعة الإسلامية وجهل أغلبها بعظمة هذا الدين وانبهار أبنائها بحضارة الغرب الكافر وركون الأكثرية للدعة والكسل، وغيره الكثير مما يؤخر رفع البلاء إن لم يكن العقاب، ويبعد النصر، ويبدد أحلام الصعود الحضاري الإسلامي من جديد، ولابد أن الدعوة لله والتذكرة والموعظة الحسنة وتكاتف الجهود لرفع درجة الوعي وعودة الأمة لأسباب الالتزام والتطبيق والعمل لخيري الدنيا والآخرة، حل لأغلب مشاكل الأمة إن أثمرت الجهود وتجاوب المسلمون وقاموا ينفضون عنهم غبار الخنوع والذلة والقعود.

إلا أن هذه السبيل التي سلكها الأنبياء والرسل ومن بعدهم الصحابة والتابعين ومن خلفهم من الصالحين، يهددها داء خطير ومرض مزمن ينقض الغَزْلَ ويفتك بالزرع ويهدم البنيان ويحبط الجهود ويعيدنا في دائرة الصفر والانهزامية والفشل والركون للأعداء، إنه داء التناقض بين الأقوال والأفعال، والذي إن انتشر وتفشى بين الدعاة والعلماء والعاملين لصحوة هذه

الأمة والدفع بعجلة التغيير والتقدم والازدهار، إن حصل ذلك هدم كل ما تم بناؤه، وكسر قيد الثقة بين جموع الأمة وهذه الطبقة الحساسة في المجتمع؛ فضاعت القدوة وافتقد الناس الأمانة وأضحوا بلا بصيص أمل يندفعون إلى حفر الإحباط والفشل.

سبب مقت الله

إنها أزمة أخلاقية إيمانية، تهدد حركة التغيير... إنه مصاب عظيم وجلل يفقد المصداقية ويبخس الجدية؛ ولهذا حذر الله منه وبشدة، فقال سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: 2ـ3]

لقد جعل الله هذه الحالة سبب مقت من الله والعياذ بالله، وهذا لخطورتها في المجتمع الإسلامي وتشويهها لصورة الأمثلة الحسنة والقدوات الناجحة التي يجب أن تكون قناديل تنير لجموع المسلمين الطريق. فعن أسامة بن زيد ـ رضِي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ يقول:

(يُؤتَى بالرجل يومَ القيامة فيُلقَى في النار فتندَلِق أقتابُ بَطنِه، فيَدُور بها كما يَدُور الحمار في الرَّحَى، فيجتَمِع إليه أهلُ النار

فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنتُ آمُر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه) متفق عليه.

فحين يصبح الحديث مستهلكا يحدث به مرء بوجهين متناقضين، بشخصيتين مختلفتين فإنه مهما بلغ من معرفة وشهرة وقبول بين الناس، فإن ما يحمله من علم ينتهي إن بقي في حيز الكلام ولم يطبَّق، وسيندثر تماما إن خرج إلى حيّز التناقض والعكس.

فقد يبهر الناس طليق لسان، بذاكرة قوية، يحفظ النصوص ويحسن الطرح والربط والشرح، يتكلم فيؤثر ولكن كل هذا لا يُعتدُّ به أمام من يحدثك عن تجربته الناجحة وعن سلوكه المعروف به وعن حديث يطبقه قبل أن يتصدر لتبليغه، هذا الذي يحظى بالتقدير والإعجاب والاحترام بحق.

ظاهرة منتشرة

وقد انطبعت هذه الصورة اليوم في كل المستويات وعلى جميع الأصعدة، سواء عند الأفراد، أو الجماعات، أو الدول، أو الأمم، أو الحضارات، وهي مقياس يقيس عليه الناس النجاح

والفشل، المصداقية والكذب، العقلانية والمبالغة، الإنصاف والإجحاف، العدل والجور، الحرية والأسر وكل خير وشر!

فما أقبح أن يكون الداعية والخطيب الذي يحاضر الناس في المروءة وحسن الخلق، أكثر الناس إذاية لأهل بيته، وأقلهم صبرًا على جيرانه، وأشهرهم سمعة بلا مروءته! وهذه قاصمة لمصداقية خطبه ومحاضراته.

نعم يحب المرء أن يظهر بتلك الصورة المثالية والقدوة المحترمة، ويسعى جاهدًا لبناء قاعدة ثقة في الأمة وبين أهل الشأن والأمر، ولكن هل هي حقيقة تلك الصورة التي يحملها هذا المرء أم أنه على عكسها التام وعلى النقيض المحبِط! هل هو بحق يؤمن بتلك المبادئ التي يحاضر عنها أم أنها مجرد كلمات لا تستحق الجهد والحرص لتحقيقها؟

فكيف يمكن لامرئ في مقام النصح أو الأمر أن ينهى عن الشر وربما نزه نفسه عنه، وهو غارق فيه أو متلوث ومتصف به! قال تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ فكيف وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: 44]

وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه:

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾. [سورة هود: 88]

فكيف إن كان المتحدث رئيس دولة أو عالمًا أو داعية أو قائدًا أو مديرًا أو مربيًا، ثم يكون كلامه مناقضًا لأفعاله! بل ما ينطق به لا يؤمن به ولا يعتقده فعلا، ولا يخرج عن كونه حديث لسان ولعبة كلمات ومفردات! وكيف إن كان الوصف ينطبق على جماعة برمتها أو دولة أو أمة! إنها بحق نهاية مؤسفة محزنة.

ثغر وجب التنبه له

إن هذا الثغر الذي يتسلل منه سيل الإحباط الجارف ويستعين به الأعداء لتقييد أمتنا واستسلامها التام هو الذي يجب أن نتصدى له، إن كنا ركبنا موجة التغيير وأردنا لأمتنا الخير؛ فلنرقب تصرفاتنا وسلوكياتنا، وكذلك أفعالنا قبل كلماتنا، فمهما نمّقنا الكلم وزيّناه وحبكناه ليطرق القلوب فلن يساوي شيئًا إن لم يكن حقيقة وواقعًا معاشا على الأرض، لن يعدو كونه حبرًا على ورق إن لم يصبح مبادئ نناضل لأجلها ونرسخها في سيرتنا ويعرفنا الناس بها فعلًا أكيدًا لا قولًا سديدًا فقط، قال الشيخ السعدي رحمه الله : " النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة ".

وقد تفرس من سبق في هذا الأمر وسارع بخشية لمداواته وكذلك كان أمير المؤمنين عمر ــ رضِي الله عنه ــ إذا نهى الناسَ عن شيءٍ جمَع أهلَ بيته فقال:

"إنِّي نهيتُ الناس عن كذا وكذا، وإنَّ الناس يَنظُرون إليكم كما يَنظُر الطَّير إلى اللحم، وايمُ الله، لا أجد أحدًا منكم فعَلَه إلاَّ أضعَفتُ له العقوبة ضعفين".

إنه لأمر تفشى اليوم بين الناس، فالرئيس يحدث بما لا يفعل، والمدير يكلم من حوله بما لا يطبِّق، والداعية يحاضر في الخير وهو الأبعد عنه، والأب يحث على الصدق وهو يكذب، والأم تدعو أبناءها للتحلي بالأخلاق وهي ببذاءة لسان وسوء خلق! هذا إلا من رحم ربي.

عن أنسٍ ــ رضِي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ــ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ:

(أتيتُ ليلةَ أُسرِي بي على قومٍ تُقرَض شِفاهُهم بِمَقارِيض من نارٍ، كلَّما قُرِضَتْ وَفَتْ، فقلتُ: يا جبريل، مَن هؤلاء؟ قال: خُطَباء أمَّتك الذين يقولون ما لا يفعَلُون، ويقرَؤُون كتابَ الله ولا يعمَلُون به)؛ رواه البيهقي.

أين الخطر؟

في الواقع حين يكون المرض قد أصاب هذه الشريحة المؤثرة في الأمة يكون التشخيص مخيفًا ويعكس حقيقة مُرة أخرى: وهي أن المنابر يعتليها من ليس أهلًا لها، وأن الأمانة يبلِّغها من لا يحفظ لها حقها، وأن التسابق على الظهور والشهرة أصبح أكبر إنجاز، وأن النجاح محصور في ثناء مخدوع من الناس! وأن التحايل والدهاء في هكذا مواقف يعد طريقًا مختصرة للفوز بلقب الداعية والعلامة والمثال الناجح المبجل بين القوم!

وما يزيد الطين بللًا أن المصاب بهذا الداء لا يشعر به، بل يدفع عنه الغرور والعجب بالنفس والكبر أي فرصة لليقظة والتدارك والتوبة لله والمحاسبة للنفس والحزم معها، مما يجعل في نظره النصيحة حسدًا، والتنبيه حقدًا، والتذكرة غيرة، والدعوة لله نفاقًا، بل وقد يصل الأمر أن يسقط في التبرير بالكذب ومداراة الخطأ بخطأ أكبر منه، والدخول في حلبة دفاع عن نفسه بوصفها الحكمة والخيار الحسن!!

وَغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى   طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهْوَ عَلِيلُ

فأيها الناس، إن التحايل لا يبني مجدًا، وإن بنى هالة إعجاب يومًا! فإنها فقاعة ستختفي مع أول وكزة صدق وامتحان على أرض الفعل وميدان العمل!

فاحرصوا على متانة أساس البنيان قبل الحرص على جمال مظهره الخارجي، ومن بنى بنيانه على شفا جرف هار، انهار به ومن أسسه على تقوى من الله وخشية كان له بحسب نيّته فيه... لنتقن واجب حمل الأمانة وتبليغ الرسالة، لننصح لله بجديّة ولندعُ لله بجوارحنا قبل ألسنتنا... حتى نستمتع جميعًا بثمار الصدق مع الله ونحقق التغيير الذي تنشده أمتنا، ومن فرد إلى جماعة إلى أمة إلى حضارة إلى مستقبل نفخر به ويكون لنا حجة.

✿ ✿ ✿

12

من تاريخنا نبني مستقبلنا: العز بن عبد السلام سرٌ من أسرار النصر

حين نقلب صفحات تاريخ أمتنا، نشعر بالاعتزاز والفخر، ذلك لأننا نرى بأم أعيننا كيف نجح من سبق بتجاوز المحن والنوازل بحكمة وحزم وصبر، لأننا نشاهد القدوة قد ارتسمت في البطل المسلم مجاهداً كان أو أميرًا أو عالمًا، أو حتى جنديًا، كل قد علم أهمية ثغره، فلم يستكينوا مستضعفين بعد أن ارتشفوا من شراب العز والمجد، بل قاموا يتسابقون لتسطير بطولات المسلمين التي فاقت بطولات غيرهم من البشر، كيف وقد انتظمت في عبادة لخالقهم ومروءة وحسن خلق! إننا في كل مرة نتذكر انتصارًا من انتصاراتهم الساحقة، نشعر بأهمية تدبر شخصياتهم والاعتبار بتجاربهم والاستفادة من خبراتهم والتأمل في أسباب انتصارهم وتفوقهم وقدرتهم على تجاوز مرحلة الاستضعاف.

حقبة مرت على المسلمين كانت من أظلم وأحلك الأزمان، حين اجتاحت جيوش التتار الهمجية الجرارة البلاد ولم تترك

خلفها إلا الدمار والخراب وجثث المسلمين على الـثرى تسـقيه بدمائها الحمراء.

تأملت في حال المسلمين آنذاك وكذلك قرر العلماء أن من أبرز الشخصيات التي كان لها التأثير الحقيقي في التغيير من الضعف إلى القوة ومن التفرق والتشرذم إلى الوحدة والاتفاق، كان سلطان العلماء الشيخ الإمام العز بن عبد السلام رحمه الله.

عاقبة الثبات على الحق وعاقبة الثبات على الباطل

الشيخ الذي عاش في الشام، ثم في مصر، وعايش دولة بني أيوب التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي، وكانت دولة قوية في بداية عصرها، ولكن في آخرها تنافس أمراؤها على الملك ووصل الأمر للاقتتال، بل للخيانة حين لجأ بعضهم إلى التحالف مع الصليبيين لقتال إخوانهم من المسلمين. واقعهم كان مؤلمًا ولكن خروج الإمام العز بن عبد السلام في هذه الحقبة كان في غاية التأثير للإنكار على السلاطين الظلمة، وبشخصيته القوية التي لا تخاف في الله لومة لائم، كان ينكر عليهم علنًا وأمام رعيتهم في كثير من الأحيان. لقد تمكن الشيخ من تحقيق التغيير لأنه أخذ هذا الكتاب بقوة فقاد جموع الأمة

وأثّر فيها بهمّة، لقد كـان ينطلـق من مبـدأ صـريح، يختصـره في قوله:

"فإنّا نزعم أنَّا من جملة حزب الله ـ عز وجـل ـ ، وأنصـار دينـه وجنده، والجندي إذا لم يخاطر بنفسه فليس بجندي".

ولقـد سـجل التـاريخ أروع المواقـف لهـذا العـالم الصـادع بالحق، من أبرزها موقفـه مـع الملـك الصـالح إسـماعيل حـاكم دمشـق آنـذاك: حين ولّى العـز بن عبـد السـلام خطابـة الجـامع الأموي، وبعد فترة حالف الملك الصالح إسـماعيل الصـليبيين، وسـلّم لهم بعض الحصـون وبعض المـدن وذلـك من أجـل أن يستعين بهم على قتـال الملـك الصـالح أيـوب في مصـر. وأمـام موقف الخيانة هـذا والمـوالاة لأعـداء الله ورسـوله ـ صـلى الله عليه وسلم ـ ، صعد العز بن عبد السلام على المنبر، وأنكر على الصالح إسماعيل تحالفه مع الصليبيين، بل وقطع الدعاء لـه في الخطبة، فغضب الملك الصالح غضبًا شديدًا، وأمر بإبعـاده عن الخطابـة، وسـجنه، وبعـدما اضـطرب أمـر النـاس، أخرجـه من السجن ومنعه من الخطابة.

وتوجـه العـز مباشـرة إلى جهـة بيت المقـدس، فأرسـل إليـه الملـك الصـالح إسـماعيل مرسـالًا يلاطفـه ويلايِنْـهُ بـالكلام الحسـن، يقـول لـه: ليس بينـك وبين أن تعـود إلى منصـبك

وأعمالك وزيادة على ما كنت عليه، إلا أن تأتي وتُقَبِّل يد السلطان لا غير، فما كان جواب هذا العلم القدوة إلا أن ضحك ساخرا من المرسال وقال له:

"يا مسكين، والله ما أرضى أن يُقَبِّلَ الملك الصالح إسماعيل يدي فضلاً عن أن أُقَبِّلَ يده، يا قومُ أنا في واد، وأنتم في واد آخر، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به".

فهددوه بالسجن، فقال:

"افعلوا ما بدا لكم". فسجنوه في خيمة، فكانت جنته التي يقرأ فيها القرآن ويتقرب فيها من ربه.

ولأن طريق الصالح إسماعيل ومحالفته الصليبيين كانت طريق هزيمة بحتة، انتصر عليه الجند المصريون وتمكنوا من فك أسر الإمام العز بن عبد السلام ليذهب معهم إلى مصر أين استقبله سلطانها، نجم الدين أيوب أحسن استقبال، وقلده المناصب الكبيرة في الدولة. ورغم أن الملك الصالح أيوب كان متميزا بالقوة والمهابة الشديدة التي لا يستطيع معها أحد أن يتكلم بحضرته أو يشفع لأحد ، ورغم تقديره البالغ للعز بن عبد السلام إلا أنه لم يفلت من إنكار الشيخ عليه، ومن توجيه الخطاب إليه مجردًا من أي ألقاب، مما كان يثير الدهشة، كما حدث وأن ناداه في جمع مهيب لينكر عليه وجود خمر تحت

ولايته، فما كان من الصالح أيـوب إلا الإقـرار والإذعـان للحـق، وحين سُـئل العـز بن عبـد السـلام في مجلسـه باسـتغراب: أمـا خِفْتَه؟ قال:

"لا والله، استحضرت عظمة الله – عز وجـل – وهيبتـه فـرأيت السلطان أمامي كالقط!".

أمة عرفت قدر علمائها

تميّزت مجالس العز بن عبد السلام بتعليم الطلاب مواقف البطولة والشجاعة كما يعلمهم الحلال والحـرام، وبتلقين الغَيْـرة على الدين كما يلقنهم الأحكام؛ فكانت مختلفة لأنها تبني جيلًا يتأسـى بفضـائل السـابقين من الصـحابة الأخيـار، وتعـد رجـالا يحملون همّ هذا الدين والدفاع عنه بـأرواحهم وأنفسـهم، وحـق له ذلك وهو القدوة والمثل اللامع في حيـاتهم، ولن نسـتطيع أن نلخص المواقف الكثـيرة العظيمـة لهـذا السـلطان بحـق، إلا أنـه لابـد أن نعـرج على موقفـه وأمـراء المماليـك، وثباتـه على فتـواه فيهم.حين رفض أن يدوّن بيع وشراء العقود للمماليك، حتى لو كان أميرًا أو قائدًا في الجيش إذ لابد أن يُبَاع ويحـرَّرَ فمـازال في الشريعة عبدًا.

فأثـار هـذا الأمـر غضـب المماليـك، ورفعـوا أمـره إلى السلطان، فعلم العـز بن عبـد السـلام رده عليهم حين قـال: هـذا أمر لا يعنيه. فكان أن قام العز بن عبد السلام مباشرة بعزل نفسه من القضاء. ثم بجمع متاعه وأثاثه ليخرج بزوجته وطفلـه على حمار، ومشى بهذا الموكب المتواضع يريد الخروج من مصر إلى بلده الشام. لكن، ولأنه إمام الأمة وعالمها، ولأنه حفر في قلوب الناس مكانة لا تُبخس أو تهان، ولأنه بلغ مبلغ ثقة وقدوة لا تهزم! ولأنها أمة تعرف قدر علمائها؛ خرجت جموع الأمة كلها وراءه على رأسهم العلماء والصالحون والعباد، فضلا عن الرجال والنساء والأطفال، الجميع خرجوا وراء العز بن عبد السلام في موكب مؤثر مهيب.ثم ذهب بعضهم إلى السلطان فقالوا له:

متى راح هؤلاء ذهب ملكك!

فأسرع الملك الصالح أيوب للعزّ يسترضيه ويرجو عودته مقابل ما يريده، فكان رد الشيخ أن فتوى المماليك هي الحق، وإن لم يُقضى بها فلا عودة له، فاضطر الصالح أن يذعن له قائلًا: لك ما تريد، افعل ما تشاء! فرجع العز واغتمّ المماليك لفتواه فحاولوا معه ليغيّر رأيه من جديد؛ فلم ينجحوا في ذلك، فاقترح بعضهم قتله فانطلق نائب السلطنة ومعه مجموعة من الأمراء بسيوف مسلطة وقلوب تنبض عزمًا على قتله، ثم طرقوا

بابه، فلما رآهم ولد العز بن عبد السلام ـ عبد اللطيف ـ ، هاله الموقف، ورجع إلى والده يحذره: يا والدي انجُ بنفسك. الموت، الموت، فسأله العز بن عبد السلام: ما الخبر؟! فوصف له حالة القوم وأنهم جاءوا لقتله، فقال العز بن عبد السلام لولده مقولته العظيمة:

يا ولدي، والله إن أباك لأحقر وأقل من أن يقتل في سبيل الله ـ عز وجل ـ

ثم خرج مسرعًا إلى نائب السلطنة، ليواجهه وجها لوجه، فتجمد الأخير ويبست أطرافه فور ما رآه، وأصابته حالة من الذعر والرعب، واضطرب حتى سقط السيف من يده، وسكت قليلاً ثم بكى وقال: يا سيدي، خبِّر ماذا تعمل؟ قال العز: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: تقبض الثمن؟ قال: نعم. قال: أين تضعه؟ قال: في مصالح المسلمين العامة، فطلب منه الدعاء وبكى بين يديه ثم انصرف.

وهكذا أقام العز بن عبد السلام الفتوى وباع الأمراء كما تنص الشريعة في حالة المماليك، وكانت هذه الواقعة التي لم يحدث لها مثيل في التاريخ.

من أسرار النصر

ولعل أحد أسرار انتصار المسلمين في تلك الحقبة هو:

- حلقة الوصل المتينة بين الأمة والعلماء، كان التواصل مباشرًا، والتفاعل مؤثرًا، فضلًا عن قيام العز بن عبد السلام تغيير المنكر بيده، وكيف لا يقدر عليه ومِن خلفه أمة تسانده وجموع العلماء والفقهاء تؤازره، الذين لم يكونوا يحملون إلا الحب والولاء لبعضهم البعض، فلم يتمكن أحد من تفرقة صفوفهم.

- ولهذا؛ إن كان العز بن عبد السلام قد حكم على رجل وإن علا منصبه بسقوط عدالته فإن هذا الحكم يجوب بلاد المسلمين ويُعلَّم، ولا يقبل من الساقط عدالته شهادة بل ولا كلمة وإن كان من كان.

- إن بصيرة العز بن عبد السلام كانت من أحد أسباب النصر الذي حققه المسلمون في عين جالوت، لأنه نصرًا أقيم على العدل والإنصاف والمال الحلال، فلم يكن العز بن عبد السلام ليستحي من قطز يوم كان يجمع للتتار ما يخص تمويل الجيش ونفقاته.

بل رفض أن يفرض أي مال على الناس حتى ولو كان لأعظم مهمة تحفظ الأمن والأمان للأمة من عدو اجتاح بلاد العراق والشام وبات على أبواب مصر، حتى يحضر الحاكم ما عنده وعند حريمه، ويحضر الأمراء ما عندهم من الحلي والأموال.

- والعز بن عبد السلام لم يصل لهذه المرتبة بكسل أو تسويف أو تواكل، بل كان مسابقا بالخيرات على قلة ذات اليد، ومجتهداً في الطلب رغم أنه طلب العلم على عمر كبير نسبيا مقارنة مع غيره من العلماء

الفرق بيننا وبينهم

كانت أمتهم في زمن فتنة وضعف تمامًا كما هي أمتنا اليوم: تسلط عليهم التتار والصليبيون، وهم في ضعف داخلي سببه التفرق والتمزق، تمامًا مثل حالنا اليوم، ولكن الفرق بيننا وبينهم، أنهم وجدوا شيوخ العزّ يحملون الراية ليقودوا الأمة لما فيه صلاحهم وعزتهم. وكانت أمتهم أكثر انقيادًا لأهل العلم والشريعة؛ لتقوى بذلك كلمتهم وتنفذ في الجميع وإن كانوا سلاطين لأن العلماء هم بحق السلاطين.

فما أحوجنا لمثل العز بن عبد السلام، وما أحوج الأمة لتوحد العلماء واتفاق كلمتهم، وتراصهم مع صفوف الأمة في

المقدمة، يقيموا شرائع هذا الدين ويحفظوا بيضته من المفسدين ويوحدوا الجموع تحت راية نقية صافية لا يخشون في الله لومة لائم، فيخضع لهم الحاكم الخائن والطاغية المتجبر، ليعلم أن القوة في هذه الأمة بعلمائها، وأن النصر لن نناله حتى ترجع الأمة لدينها ويكون علماؤها وأعلامها الأعمدة الراسخة الأساسية لبناء قبة النصر وتشييد حصن النهضة والعدالة من جديد.

توفي سلطان العلماء العز بن عبد السلام في حكم السلطان بيبرس الذي كان يكّن له الحب الجمّ، وحين استشاره في مرض موته وطلب منه أن يعيّن أحد أولاده في منصبه، وكان أشهرهم عبد اللطيف طالب علم ومترجم له، جاء رد العز عجيبا حيث قال لبيبرس:

ما فيهم من يصلح!! إنما أعين فلانًا فهو الذي يصلح لمثل هذا المنصب.

هكذا هي الأمانة تُسلَّم للأصلح لا للأقرب نسبا، وإن كان فلذة كبده الذي رباه على يده! فيا لهذه القدوة، ويا لهذه الصفحات التاريخية الرائعة، وكيف لا تُنصر أمة فيها مثل العز بن عبد السلام!

✿ ✿ ✿

13

قصة موسى: معالمٌ في الصراع بين الحق والباطل

(الجزء الأول: قبل التمكين)

أبـرزت قصـة نـبيّ اللـه ورسـوله موسـى بن عمـران ـ عليـه الصلاة والسلام ـ معالم في الصـراع بين الحـقّ والباطـل تُرسّـخ اليقين بغلبـة دين اللـه وانتصـار عبـاده المؤمـنين مهمـا انتفش الباطل وانتشـر على مسـتوى الأسـرة الواحـدة كمـا على مسـتوى الدولة والأمّة؛ فذكر اسـم موسـى ـ عليـه الصـلاة والسـلام ـ في القـرآن مائـة وسـتًا وثلاثين مـرّة في كثـير من السـور المباركـة وتكرَّرت قصته بطرق عرض مختلفة لتبثّ مفهوم الغلبـة للـدين والانتصار للمؤمنين أمام الباطل والابتلاءات والفتن مهما اشـتدّ أوارها، مبرزة شخصيّة نبيّ الله في مواجهة أكبر طاغية في زمانه ومقدّمـة دليلًا لكـل مـؤمن ينبغي عليـه أن يستحضـره في وقت الأزمات والملمّات والاستضعاف وأنواع الابتلاءات.

وتميَّزت قصة كليم الله موسى، بتسليط الضوء على مراحـل مختلفة من عمر نبيّ من أنبيـاء أولي العـزم لحكم عظيمة تتكـرّر مع كـلّ زمـان ومكـان. وسـنحاول إبـراز معـالم في الصـراع بين الحقّ والباطل من خلال هذه القصة على ثلاثة أجزاء:

- الجزء الأول: قبل التمكين.
- الجزء الثاني: المواجهة مع الطاغوت فرعون.
- الجزء الثالث: بعد التمكين.

الاستضعاف: مرحلة علو وتمكين للباطل لكن اليقين راسخ

إنَّ أوّل درس نستنبطه من قصة موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو أنَّ ظلام الظلم مهما اشتدَّ واسودَّ سيرافقه دائمًا بصيص أمل يبثه اليقين لينير قلوب العباد، فقد وقعت أحداث قصة موسى في مصر، في زمن استضعاف شديد اشتهر فيه فرعون بالطغيان والجبروت مدّعيًا الألوهية، يسانده في ذلك وزيره هامان وجنودهما. وفرعون كان لقب كلّ ملك من ملوك مصر كما أنَّ كسرى لقب لكلّ ملك من ملوك بلاد فارس، وكذلك قيصر لقب لكلّ ملك من ملوك بلاد الروم، ولكنَّ فرعون في عصر موسى كان أعتى وأفجر وأشدّ عنادًا وطغيانًا من كل الفراعنة، وأذاق أهل مصر المستضعفين في زمانه ألوان الأذى والشرّ والويلات مما لا يعد ولا يحصى، قال الله تعالى: ﴿**نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً**

مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: 3ـ 6).

فقد تسلّط فرعون الطاغية المتكبّر على أهل مصر، يذبّح أبناءهم ويستبقي نساءهم للخدمة ويستخدم الرجال منهم في أخسّ الصنائع والحرف وقسّمهم لشيع وأقسام وفرق وأنواع، تحت وطأة الظلم والعدوان وتسلّط الحكام. ومع أن طائفة بنو إسرائيل من أهل مصر كانت من سلالة يعقوب عليه السلام وكانوا يوصفون في ذلك الزمان بخيار أهل الأرض إلّا أنَّ طغيان فرعون وزبانيته قد نال منهم مثل ما نال من جميع أهالي مصر، بشتّى أصناف الاستعباد والاستغلال والظلم.

لكنَّ الله سبحانه لم يترك عباده دون إشارات للخير تبعث الأمل في قلوبهم في غمرة هذا الاستضعاف. لقد كانت هذه الإشارات هي الأمل والفرج المنتظر، فكان بنو إسرائيل يتناقلون خبر خروج غلام من ذرّيتهم يكون على يديه هلاك طاغية مصر وتحرّرهم. وأصبحت هذه البشرى كابوسًا مفزعًا لفرعون، فأمر وزيره هامان أن يقتل كافّة ذكور بني إسرائيل ويترك الإناث، فعاش أهل مصر أيّام شدّة وهلع بمذابح فرعون المستكبّر بحقّ

فلذات أكبادهم ليشتدّ هتين ليل الظالمين. ولكنَّ الله ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾. وفي غمرة الظلام لكلّ صراع ينير يقين الإيمان ويتغذّى الأمل.

لا يغني حذر من قدر

أمّا الدرس الثاني من قصة موسى عليه السلام فإنّ قوة الظالم مهما بلغت من مبلغ، لن تنجيه من قدره، فرغم شدّة حرص فرعون على قتل كل مولود ذكر، وأخذه جميع الاحتياطات الاحترازيَّة لمنع أن يولد الغلام الذي سيهدّد ملكه، وإحصائه لكلّ حبلى ولكلّ ولادة، إلَّا أنّ الله أراد أمرًا آخر والله إذا أراد أمرًا هيَّأ له أسبابه. فاشتكى أقباط مصر إلى فرعون من أنّ إفناء الذكور سيعجّل فناءهم، وستنعدم اليد العاملة في بلادهم، فاضطر فرعون لتخفيف وتيرة القتل، وأصبح يقتل الذكور في عام ويتركهم في العام التالي.

وبمشيئة الرحمن مرَّ حمل أمّ موسى مستترًا فلم تظهر أي أعراض له لكن قدر موسى كان أن يحين موعد ولادته في عام القتل، فخشيت عليه أمّه كثيرًا إلَّا أنّ الله ألهمها أن تتّخذ له تابوتًا وتربطه بحبل، وتضع التابوت في نهر النيل بجوار منزلها. فترضع موسى في خفية وتضعه في التابوت وترسله بحبل في الماء وحين تنتهي دوريات التفتيش تعيده لحضنها ممتنة لله.

وصوّر لنا القرآن مشاعر الأم العظيمة التي تخشى على ابنها الهلاك، وكيف تبحث عن حيلة ممكنة لحفظه من الموت، دون استسلام لإرهاب الظالم، فكان دور الأمّ كبيرًا، قال تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (القصص: 7)، فاطمئن قلب أمّ موسى وتوكّلت على الله مدركة أنَّ شأنًا عظيمًا سيكون لابنها في قلب هذه المحنة.

وبهذه الطمأنينة التي قذفها الله في قلب أمّ موسى كانت تضع ابنها في كلّ يوم في التابوت وتنتظر رحيل المجرمين لتسحبه وتضمّه من جديد لصدرها، إلَّا أنّ القدر كان يخبّأ قصة أخرى لأمّ موسى وابنها، فقد جرف النيل هذه المرّة التابوت، ولم يرجع موسى لأمّه كما كلّ مرة. لتبدأ قصة أخرى للرضيع الصغير يعلو بها شأنه وقصة ابتلاء للأمّ وأسرتها المكلومة. وإنَّما الابتلاء سنة تتداولها الأيّام بين بني البشر.

ويجدر الإشارة إلى أنَّ أمّ موسى رزقت بولد آخر هو هارون عليه السلام، ولد بعد ولادة موسى بثلاث سنوات، وفي السنة التي لا يذبح فيها الأطفال، ليكون له شأن نبي بعد حين وليقوم بوظيفة الأخ والوزير والسند.

لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها

أمّا الدرس الثالث من قصة نبي الله موسى فإنَّ الله سبحانه محيط بمكر الظالمين ويجري الأسباب بمشيئته مهما مكروا من مكر كبار، فقد حطّ التابوت الرحال عند قصر الطاغية فرعون المطلّ على النيل ليكون لهم عدوًا وحزنًا، فالتقطته الجواري من الماء وكان مغلقًا فلم يتجرأن على فتحه، ووضعنه بين يدي آسيا، زوجة فرعون. تلك المرأة الصالحة في بيت طاغوت مجرم. لنشاهد مشهدًا آخر من صراع الحق والباطل في بيت الزوجيّة سيكون له كبير الأثر في قصة موسى عليه الصلاة والسلام.

وكان مع العسر يسرًا، ووقع موسى بين يدي امرأة أحبته حبًّا شديدًا لتكون له الفرج. وواجهت زوجها فرعون حين أراد ذبحه، وقالت: قرّة عين لي ولك، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا. وكان لوقع الكلمات حقائق عجيبة، إذ أنَّ جواب فرعون كان: أمّا لك فنعم وأمّا لي فلا، أي لا حاجة لي به. ذلك أنَّ ما تجريه أقدار الله عليهم كان مقبلًا.

وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا بعدما ذهب موسى عنها، وإنَّ دقَّة الوصف وعظمته لفؤاد أمّ موسى لتعجز الأقلام عن إيفائه

حقه، فلم يعد ينشغل قلبها بأي شيء سوى التفكير في حال رضيعها، أين هو، وإلى أين استقرّ؟

وكادت أن تخرج للشوارع وتسأل الناس عن رضيعها لكنّ الله سبحانه عالج هذا القلب المبتلى ووصف القرآن ذلك العلاج بعبارة مهيبة حيث قال الله سبحانه: ﴿**لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا**﴾ فثبتها ربّها ولم تكشف سرّها، وبدلًا من أن تمشي بنفسها وينفضح أمرها تعاملت بحكمة وطلبت من ابنتها أن تخرج وتبحث عن موسى، وتتحسّس الأخبار وتتتبع أثره. لنشاهد مشهدًا آخر لدور الأخت الرائع ومكانتها في أزمة الأسرة المستضعفة.

وتتدافع الأحداث لترسم مسار هذا الطفل وهذه الأسرة المتماسكة، فأحضرت زوجة فرعون مرضعة لموسى لكنَّه رفضها، وكلما جاءوا بأخرى رفض الرضاعة، ذلك أنَّ الله قد حرّم عليه الرضاعة من غير أمّه. ولأنَّ مشيئة الله أن يعود هذا الرضيع لحضن والدته، فلمّا احتاروا في أمره، أرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق للبحث عن مرضعة، وبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه، إذ بصرت به أخته النبيهة، وعلمت بأمر رفضه الرضاعة فتصرفت بكياسة وفي الوقت المناسب، وقد أخفت عنهم معرفتها به، ودلّتهم على أهل بيت يكفلونه، وهم له ناصحون. فكانت طريقة استدراجها لهم لبيت

أمّ موسى مقنعة كونها أشعرتهم بأنَّ رغبة هذه الأسرة هي رجاء منفعة الملك وسروره فصدَّقوها.

وجاءت ساعة الفرج رغم كلّ أيام الشدّة، والتقت الأمّ المبتلاة الصابرة برضيعها الذي أقبل عليها يلتمس الدفء والحنان والغذاء كما شاء الله ذلك ورضي. وفرح الجميع بذلك.

وأراد الله العزّة لهذه الأَمَةِ المبتلاة فجعل آسيا تقبل ببقائها في بيتها لترضع الطفل موسى دون أن تجبرها على القدوم للقصر، وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات، وجمع الله شمل موسى بشمل أمه وشمل أسرته مُعزّزًا مكرّمًا بمساعدة زوجة عدوّه.

وهكذا ردّ الله موسى لأمّه كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أنّ وعد الله حقّ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

الهجرة سنة نبوية

مكث موسى عليه السلام عند أمّه ترضعه حتّى فطمته ثمّ ردّته لآسيا ليترعرع في قصر فرعون، وشبّ عليه السلام في هذا القصر كابن الملوك مُعزّزًا مكرّمًا يركب مراكبَ فرعون ويلبسُ ما يلبس فرعون. وآتاه الله حُكمًا وعلمًا وهي معالم القوة في

صناعة الرجال، ولأنَّ الله يريد مستقبلًا آخر لموسى، جاءت الأحداث لترشده إلى سبيل الهداية والنبوة، فبينما هو يتجوّل في أحد الأيّام وكان الوقت وقت ظهيرة والأسواق مغلقة والناس في بيوتهم التقى برجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر قبطي من آل فرعون كان قد اعتدى على ذاك الإسرائيليّ، وحين استغاث الإسرائيليّ بموسى ليخلصه من اعتداء القبطي، أقبل موسى بفطرة حبّ العدل والخير، ووَكَزَ القبطي أي ضربه بجمع يده ليمنعه عن الإسرائيلي. فقضى عليه وقتله وخرَّ القبطي على الأرض ميّتًا، فندم موسى أشدّ الندم على ذلك وأثّر موت القبطي في نفسيّته وتاب عليه الصلاة والسلام لربّه وأناب، وقَبِل الله تعالى توبته وغفر له، قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَـذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَـذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ**﴾ (القصص: 14ـ 17).

وقد ذكر القرطبي في التفسير: أنَّ موسى عليه السلام وكز القبطيّ وهو لا يريد قتله، إنَّما قصد دفعه فكانت فيه نفسه، فقال هذا من عمل الشيطان أي من إغوائه، قال الحسن: لم يكن يحلّ قتل الكافر يومئذ في تلك الحال، لأنها كانت حال كفّ عن القتال ﴿**إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ**﴾ خبر بعد خبر.

لكن تلك الحادثة لم تكن لتمرّ بدون تداعيات مما أشعر موسى بالخوف، وأضحى يترقّب السوء يناله من فرعون وأتباعه إذا علموا أنَّ هذا القتيل إنَّما قتله موسى في نصرة رجل من بني إسرائيل فينسب موسى إلى بني إسرائيل.

ولجأ الأقباط إلى سيدهم فرعون ليقتصّ من قاتل أخيهم، ولم يكن أحد يعلم عمّن قتله إلَّا الإسرائيليّ الذي استغاث بموسى. ووعدهم فرعون بأن يقتصّ لهم إن هم وجدوا القاتل، وبينما هم يحقّقون ويبحثون عن هذا القاتل، وقعت حادثة أخرى بين نفس الإسرائيليّ وقبطيّ آخر، وصادف موسى الواقعة مرة أخرى واستغاثه هذا الإسرائيلي على خصمه الفرعوني، فتقدّم موسى من جديد يريد أن يؤدّب القبطيّ من أتباع فرعون، ولكنَّ الإسرائيليّ حين لمح الغضب على وجه موسى، وهو يقول له معنّفًا له على كثرة مخاصمته: ﴿**إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ**﴾ خاف على نفسه وقال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس، فسمع القبطيّ هذا الكلام فانطلق مسرعًا إلى فرعون

ليخبره أنَّ موسى هو الذي قتل ذاك الرجل القبطيّ، فأمر فرعـون جنوده أن يبحثوا عن موسى ويأتوه به ليقتلـه، ليكـون عـبرة لبـني إسرائيل فلا يتجـرأ أحـدّ على النيـل من أتباعـه الأقبـاط، وبـدأت مرحلـة التـآمر لاعتقـال موسـى وقتلـه، لكن في آل فرعـون كـان هناك رجل مؤمن يكتم إيمانه يقال إنَّه "حزقيل" قد علم بالخبر، فسـبقهم إلى موسـى وحـذّره ونصـحه أن يخـرج من مصـر، فاستجاب موسى وخرج إلى أرض "مدين". وهكذا جـاء موسـى المدد من حيث لا يشعر.

ومن يتأمّـل هـذه القصـة يـدرك أنَّ الهجـرة من دار الطاغيـة سُنّة نبوية، قد لجأ إليها نـبيّ الله موسـى حين خشـي على نفسـه بطش فرعون فارتحل وأرض الله واسـعة. وهـذا درس آخـر مهم نستنبطه من قصة موسى عليـه السـلام. ومشـى موسـى خطـوات كتب له أن يمشـيها بقلب ينبض خشـية من اللـه، يرجـو رحمتـه ونصرته.

قال تعالى: ﴿**فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ**

لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: 18ـ 21).

الابتلاء قبل التمكين

وأمّا الدرس الآخر المهمّ في قصة نبيّ الله موسى، فإنّ خروجه لأرض لا يعرفها، إنّما كان بحسن توكّل على ربّه سبحانه فقد دعا الله أن يهديه الطريق إلى مدين وأن ينجيه من شرّ فرعون وأتباعه فسهّل الله النجاة لقدر آخر ينتظره وكثير من الخير.

وعلينا أن ننبّه إلى أنّ خروج موسى لم يكن لجبن منه وحاشاه فهو نبيّ الله المصطفى، بلّ لأنه كان يبحث عن بداية جديدة بعيداً عن ظلم الطاغية، وقد توجّه ماشيًا على قدميه بغير زاد ولا دابّة يركبها، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: "سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافيًا فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس في الظلّ وهو صفوة الله من خلقه وإنَّ بطنه لاصق بظهره من الجوع وإنَّ خضرة البقل لتُرَى من داخل جوفه وإنَّه لمحتاج إلى شقّ تمرة". فتأمّل كيف ابتلي نبيّ الله موسى قبل أن يُمكّن الله له.

لا يشقى صاحب المعروف

وفي قلب محنته وبلائه، وصل موسى عليه الصلاة والسلام إلى مدين وقد أثّر به الجوع والتعب، فجلس تحت ظلّ شجرة، فإذا به يبصر امرأتين ترعيان الأغنام وتريدان سقي أغنامهما من بئر كبيرة يستعملها الرعاة في المنطقة، وكانت هاتان الأختان تحبسان غنمهما لئلا يختلط بغنم الآخرين، وتجدان صعوبة في سقي هذه الأغنام، فأشفق موسى عليهما وسألهما ـ تدفعه المروءة والنخوة ـ عن سبب تعهدهما لرعاية الغنم بأنفسهما، فقالتا إنّ أباهما شيخ كبير وليس عنده من أولاد ذكور. فسارع موسى لصناعة المعروف رغم ما به من تعب وحاجة، وأزاح صخرة كبيرة كان يضعها الرعاة على البئر بعد أن ينتهوا من سقي مواشيهم، وهي صخرة ضخمة تحتاج لجهد عدّة رجال لحملها، فرفعها موسى لوحده مما دلّ على قوته وبسطة في جسمه عليه الصلاة والسلام، وسقى للأختين، ولما فرغ اتّجه إلى ظلّ شجرة وجلس تحتها يدعو الله تعالى ويشكره، قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ**

تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: 22ـ 24).

صنع موسى عليه السلام المعروف ولجأ إلى الظلّ يدعو ربّه، لم يسأل الفتاتين أجرًا ولا مساعدةً رغم شدّة حاجته بعد رحلة عسيرة، فإنّما صناعة المعروف لله سبحانه وإنّما الرجاء من الله وحده جلّ في علاه، لنشاهد بعد ذلك مشهد الفتاتين البارّتين اللتين قدرتا هذا الصنيع وأخبرتا أباهما نبيّ الله شعيب عليه السلام. بخبر موسى الكريم، فسُرّ شعيب من عمل موسى، وأرسل إحدى ابنتيه هاتين لدعوته إليه، فجاءت إلى موسى تمشي على استحياء ووقار وحشمة، وطلبت منه أن يذهب معها إلى أبيها ليجزيه على عظيم صنعه، وهنا نشاهد مشهداً آخر للعفّة والتقوى فقد خرج موسى مع الفتاة الحييّة وقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، كي لا ينظر إليها وهي أمامه، فمشت خلفه تصف له الطريق حتى وصل إلى أبيها والتقاه وقصّ عليه قصَّته بتفاصيلها، وسبب خروجه من أرض مصر، فما كان من شعيب إلّا أن طمأنه قائلًا له: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، ذلك أنَّ فرعون لم يكن يملك سلطانًا على أهل مدين، قال الله تعالى: ﴿**فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ**

وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: 25).

المرأة الصالحة مطلب كلّ رجل صالح

ومن الدروس التي سلّطت عليها الضوء قصة موسى مع شعيب عليهما السلام، قصة ابنة شعيب التي ازدانت بذكاء عجيب وقوة بصيرة، فقد استطاعت أن تلخّص أهمّ الصفات لاختيار الرجال وهي القوة والأمانة، فقالت: **﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾** (القصص: 26)، فأمّا القوة فلأنّه رفع الصخرة العظيمة وحده عن رأس البئر، وأمّا الأمانة فلأنه أمرها أن تمشي خلفه عندما جاءته تدعوه إلى المجيء إلى أبيها، فعرفت صلاحه وتقواه في وقت لا يراهما أحد إلّا الله، ويجدر الإشارة إلى أنّ هاتين الصفتين تعدّان أهمّ صفتين لانتخاب القادة والرؤساء، القوة والأمانة وقد لخصتهما امرأة بكياسة ونجابة فاستحقت أن تكون زوجة نبيّ مختار، فقد زوّج شعيب ابنته هذه إلى موسى عليه السلام، على أن يرعى له الغنم ثماني سنين يكون فيها أجيرًا عنده وإن شاء يتممها موسى عشرًا، ولكن موسى أتمَّ المدة كلها وهي عشرٌ تفضّلًا منه، ليكون بذلك مهرًا لا نظير له في التاريخ، لقد سخّر عشر سنين من عمره وفاءً لابنة شعيب ووالدها وهي الفتاة التي جمعت بين

زينة العقل والخلق، فكانت الذكية التقيّة، صفتها الحياء، رفيقة دربه. قال الله تعالى: ﴿**قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ**﴾ (القصص: 27ـ28).

النبوة واستلام المهمّة

بقي موسى عند صهره شعيب يرعى له غنمه عشر سنين في أرض مدين، ثم قرّر أن يزور أهله في مصر لشدّة اشتياقه لهم، وسار بأهله في ليلة مظلمة باردة ومعه ولداه وغنمه، وشاء الله أن يتيه موسى مع أهله فبينما هما على هذه الحال، أبصر من جانب الطور نورًا فحسبه نارًا، قال تعالى: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى**﴾ (طه: 9ـ10)، وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي ءانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾ (القصص: 29).

فلمَّا وصل موسى إلى مكان قريب من جبل الطور في واد اسمه "طوى"، رأى نورًا عظيمًا ممتدًّا من عنان السماء إلى شجرة عظيمة خضراء هناك قيل: هي العوسج، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ (طه: 14)، وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (القصص: 30)، وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (النمل: 8).

وبدأت تفاصيل الحدث العظيم، الحدث الذي سيغيّر مجرى حياة موسى عليه السلام جملة وتفصيلًا، وسيحمل معه مسؤولية عظمى وأمانة ثقيلة كبرى، وإنَّ في هذه الحادثة تفاصيل عظيمة من أبرزها اختيار الله سبحانه للعصا، كآية يرسلها لفرعون، فبعد أن خلع موسى نعليه لينال بقدميه الأرض المباركة، قال تعالى: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾ (طه: 17ـ18)، فقال الله تعالى: ﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾ (القصص:

31)، وقال سبحانه: ﴿**قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى**﴾ (طه: 19ـ20)، فتحوَّلت العصا إلى حيّة عظيمة سريعة فلمَّا رءاها موسى ولَّى مدبرًا ولم يلتفت وناداه ربه يطمئنه: ﴿**يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ**﴾ (القصص: 31)، و﴿**قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى**﴾ (طه: 21)، فلمّا وضع عليه السلام يده عليها عادت الحيّة في يده كما كانت عصا بقدرة الله سبحانه وتعالى.

ثم أراه الله الآية الأخرى فأمره أن يدخل يده في جيبه ويخرجها فإذا هي بيضاء تتلألأ كالقمر بياضًا قال تعالى: ﴿**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ ءايَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ (النمل: 12)، وقال تعالى: ﴿**اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ (القصص: 32)، وكانت هاتان المعجزتان وهما العصا واليد حجّتان من الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام على صدقه حين يلتقي فرعون وأتباعه الكافرين ويدعوهم إلى توحيد الله وعدم الإشراك به، إضافة إلى سبع آيات أخر فكانت تسع آيات تامّات قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءايَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ (الإسراء: 101).

وبعد هذه الحادثة بدأت مهمّة النبيّ وتحمّل موسى الأمانة وسار بأهله باتجاه مصر، حتَّى وصلها ليلًا وليكون أوّل اللقاء مع أخيه هارون عليه السلام الذي جعله الله سنده في هذه المهمّة.

هارون السند الأخوي

لمّا أمر الله سبحانه نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بالذهاب إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده وتوحيده سبحانه وترك الكفر والظلم والطغيان، طلب موسى من ربّه أن يشدّ أزره بأخيه هارون ليعينه على تبليغ الرسالة لما علمه من حاجته له، فاستجاب الله لدعوته، فقال موسى لربّه: ﴿**وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى**﴾ (طه: 29ـ36). وقال موسى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ**﴾ (القصص: 33ـ34)، فأجابه الله سبحانه: ﴿**قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ**﴾ (القصص: 35)، ولم يتوقّف الأمر على إرسال وزير مع موسى

لفرعون بل وطمأنه بأنَّ فرعون لن يستطيع الوصول إليهما وقال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾ (طه: 25ـ28)، لتبدأ مرحلة جديدة فصولها مختلفة، تحوَّل فيها موسى الهارب من بطش فرعون إلى نبيّ الله يواجه هذا الطاغوت في معركة بين الحقّ والباطل، نتحدث عن أبرز معالمها في الجزء المقبل إن شاء الله.

* اُختلف في أمر شعيب فقيل: هو شعيب نبيّ الله عليه السلام وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقيل هو رجل اسمه شعيب وكان سيّد الماء ولكن ليس بالنبيّ صاحب مدين، وقيل هو ابن أخي شعيب، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل غير ذلك. والله أعلم.

✿ ✿ ✿

14

قصة موسى: معالمٌ في الصراع بين الحق والباطل

(الجزء الثاني: المواجهة مع الطاغوت)

انتقل موسى عليه السَّلام إلى حياة التَّكليف وتحمُّل أمانة التَّبليغ بعد أن اصطفاه الله سبحانه لهذه المهمَّة أثناء عودته لمصر، وانطلق موسى وهارون عليهما السَّلام معًا لمواجهة أعتى فرعون عرفته الأرض في ذلك الزَّمان وكان لهذه المواجهة أصول وتبعات ونتائج يجدر بنا تسليط الضوء عليها لأنَّها ذات المواجهة التي تتكرَّر بين الطَّواغيت والجماهير المسلمة عبر مختلف العصور والأزمنة.

أصل الصراع: دعوة التوحيد

إنَّ الدَّرس الأوَّل الذي نستخلصه من قصة المواجهة بين موسى والطَّاغوت فرعون هو أصل الصراع وطبيعته، فقد كانت رسالة موسى وأخيه هارون عليهما السَّلام واضحة تمام الوضوح، إنَّها دعوة التوحيد الخالصة التي لا تقبل المساومة،

فـدخلا عليـه في قصـره تـدفعهما قـوَّة الإيمـان والحـقِّ الـذي يحملانه يشدُّ الأخ أزر أخيه، وهما يعلمان يقينًا أنَّ اللـه معهمـا، يظهـر ذلـك في الطَّريقـة الـتي خـاطب فيهـا موسـى فرعـون في قصره، فقد طرق موسى باب القصر وطلب من البواب أن يـأذن لـه بالـدخول على أنَّه رسـول ربّ العـالمين. فكـان وقـع هـذه الكلمات عظيمًا على البوَّاب وعلى فرعـون الـذي أصـابته حالـة فزع ودهشة.

وحين دخـل موسـى على فرعـون كـان صـريحًا في تبيـان رسـالته دون لجلجـة أو توريـة، فـدعاه إلى عبـادة اللـه وحـده لا شريك له وإلى اتباع أمره كما طالبه بتحريـر أسـرى بـني إسـرائيل المستضعفين ومنحهم حرية عبادة الله. وكـان الـرد المتوقـع من متجبّر في الأرض الاسـتكبار وازدراء رسـالة النبيِّين، واسـتهجن فرعـون أن يكـون هنـاك إلـه غـيره بكـلِّ حماقـة، وقـال لموسـى: ﴿**قَـالَ أَلَمْ نُرَبِّـكَ فِينَـا وَلِيـدًا وَلَبِثْتَ فِينَـا مِنْ عُمُـرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَـكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَـافِرِينَ**﴾ لكنَّ موسـى أوتي قوَّة البيان والحجَّة والصدق، فأجابه: ﴿**قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًـا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (الشعراء: 16ـ 21).

أهمية الدليل والحجة

واشتعلت معركة العقيدة بين موسى وفرعون وظهرت قوة الدليل والحجة في الحوار الذي دار بينهما، وظهر معه الحقُّ منتصرًا قال تعالى: ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (الشعراء: 23ـ28) .

وحين انهزم فرعون أمام قوة الحق الذي يواجهه به موسى قام مستكبرًا ينادي في النَّاس قال تعالى: ﴿**فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا ربّكُمُ الأَعْلَى**﴾ (النازعات 23ـ24)، وقال تعالى: ﴿**وَقَالَ فرعون يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ موسى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾ (القصص:38).

ثمَّ تحوَّل فرعون إلى لغة التَّهديد والوعيد، قال تعالى: ﴿**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ**﴾ (الشعراء: 29ـ33).

فقابل موسى هذا التَّهديد بآيات الله، وأرى فرعون العصا تتحوَّل لثعبان ضخم مخيف وأدخل يده في جيبه وأخرجها فإذا هي بيضاء كالثَّلج لها نور يتلألأ، ثمَّ أعادها فرجعت كما كانت بقدرة الله. ففزع فرعون ودبَّ الخوف في قلبه بعد أن رأى معجزتين أبهرتا العقول والأبصار.

المكيدة والمكر من أساليب الطغاة

ومع أنَّ فرعون ذهل من آيات موسى إلَّا أنَّه عاند وكفر، وجمع كيده ومكره، فلم يكفه تهديد موسى بالسِّجن والتَّعذيب والأذى وهو أسلوب يتقنه كلُّ طاغوت، بل استعان بوزيره هامان للإيقاع بموسى، فزيَّن له الوزير نوايا الشَّرِّ والباطل فأصبح فرعون أكثر إصرارًا على المضي في أذيَّة نبيِّ الله وتشويه دعوته فقال تعالى: ﴿**قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾ (الشعراء: 34ـ35)، واقترحوا عليه أن يجمع سحرته ليهزموا موسى بسحرهم أمام الملأ قال تعالى: ﴿**قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ**﴾ (الأعراف: 111ـ112).

وكانت مصر بلاد السحر في ذلك الزَّمان، وأغرى فرعون السحرة بالمال والمنصب وبمرتبة مُقرَّبة خاصَّة منه إن هم غلبوا

موسى قال تعالى: ﴿**فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفرعون أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾ (الشعراء: 38ـ42) .

وقال تعالى: ﴿**فَتَوَلَّى فرعون فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُم موسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى**﴾ (طه: 60ـ64).

ولأنَّ الحدث عظيم وتترتَّب عليه آثار على سيادة فرعون على الجماهير كان موعد اللقاء يوم عيد لفرعون يجتمع فيه مع الرَّعيَّة في وضح النَّهار من الضُّحى، قال تعالى: ﴿**قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا موسى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى**﴾ (طه: 57ـ59).

وممَّا يجدر بنا تسليط الضَّوء عليه في هذا المقام، بداية موسى في مواجهة الباطل أمام الجمع الغفير من النَّاس، حيث توجَّه نحو السَّحرة وزجرهم عن تعاطي السِّحر الباطل ونهاهم بشكل مباشر عن هذا المنكر، فقال تعالى: ﴿**وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ**﴾ (طه:61)، وكانت تلك الخطوة أوَّل صيحة حقٍّ تصدَّعت لها قلوب السَّحرة، ﴿**قَالُوا يَا موسى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾ (طه: 65ـ66)، فسحروا أعين النَّاس وألقوا حبالهم وعصيَّهم يردِّدون: ﴿**بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ**﴾ وتخيلت الجماهير تلك العصي والحبال كأنَّها حيَّات وثعابين تتحرك وتسعى، وأمام هذا المشهد أوجس خيفة موسى كما وصفه القرآن، خشية أن ينفتن النَّاس بسحر السَّحرة، ولكنَّ الله سبحانه ثبَّته وأوحى إليه أن ﴿**لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى**﴾ (طه:68) فألقى العصا لتلقف ما يأفكون، ووقع الحقُّ وزهق الباطل، وذهل السَّحرة وسجدوا على الفور إيمانًا وتصديقًا، وانقلب السِّحر على السَّاحر وكان نصرًا مؤزَّرًا.

وفي هذا المقام علينا أن ننبِّه لأساليب فرعون التي انتهجها لردِّ الحقِّ الذي مع موسى، فقد هدَّد موسى وقال: ﴿**لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ**﴾(الشعراء:

29)، وحين استمر موسى بتبيان الحقِّ وظهر للحضور قوَّة حجَّته، انتحل فرعون ثياب الواعظ، والدَّاعي للخير، فقال يضلّل الجماهير: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر: 26). كما ظهرت طبائع فرعون المستبدِّ حين قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: 29).

واستعان فرعون بسلطانه وجبروته وتعداد أملاكه وسلطاته وازدرى موسى عليه السَّلام واحتقره قائلًا: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ (الزُّخرف: 51ـ52).

وهذا هو ذات المنطق الذي يتعامل به الطَّاغوت في كلِّ زمان ومكان، قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (الذَّاريات: 53).

يقلبون المصطلحات فيصبح الحقُّ باطلًا والباطل حقًّا، ويعملون على تقبيح صورة أصحاب الحقِّ والتَّشنيع على دعوتهم، في محاولة لتسويغ الباطل بكلِّ الأساليب والطُّرق الممكنة.

موقع الجماهير والثلة المؤمنة في مشهد الصراع

ومِن الدُّروس التي يجدر الإشارة إليها في قصة موسى عليه السَّلام مع فرعون، أنَّ الباطل ينتفش ويعمل على سحر عيون الجماهير وإرهابهم، حتَّى يظنَّ الكثيرون أنَّ الغلبة له، لكنَّه حين يتواجه مع الحقِّ فكأنَّما تواجهت النَّار مع الماء، فينطفئ ويهدأ شرّه، وتزول قوَّته ويتبيّن ضعفه، فيخضع لهذا الحقِّ من ينشده، ولا يعانده إلا من يأباه ويحاربه قال تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى موسى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الحقّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ**﴾ (الأعراف: 117 ـ 119). وقال تعالى: ﴿**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِربّ الْعَالَمِينَ * ربِّ موسى وَهَارُوْنَ**﴾ (الأعراف: 120 ـ 122).

لقد قدَّم السَّحرة أعظم درس في اتّباع الحقِّ أمام فرعون الطَّاغية، رغم معرفتهم بما يتوعّدهم إن هم أعلنوا إيمانهم للملأ واعترفوا بنبوة موسى، وهذا يدلّ على أهمية بقاء ثلّة تعلن إيمانها وتستعلي بعقيدتها ولا تهادن في الحقِّ، قال فرعون لهم: ﴿**آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ**﴾، ولجأ فرعون من جديد لوسيلة القتل والتعذيب والتنكيل فكان ردّ السحرة عظيمًا أيضًا بثباتهم ليعيد هذا الثَّبات فرعون لحجمه الحقيقيّ أمام الجماهير:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (طه: 72ـ71).

لقد كانت هزيمة كبرى لفرعون المستكبر أمام سحرته وأمام الجماهير، وإنَّ موقفًا واحدًا في حياة هؤلاء السَّحرة رفعهم لمقام عال جدًا في مراتب المؤمنين الأتقياء عبر العصور والأزمنة، فإنَّما أعمار العباد تعدّ بالمواقف لا بالسنوات.

ثمَّ مهما علا صوت الباطل والظلم وتمكن الطاغوت، تبقى هناك دائما طائفة مؤمنة لا تتهاون في أمانة الإيمان، فقد عرفنا في قصة موسى مؤمنًا من آل فرعون يكتم إيمانه ويساعد موسى على الفرار، ودافع عنه في موقف خطير لا يتجرَّأ أحد على الظُّهور فيه أمام طاغية: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءالِ فرعون يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فرعون مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر: 28ـ29). ﴿وَقَالَ الَّذِي ءامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ

ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: 30ـ35).

كذلك آمنت ماشطة بنت فرعون، وكان ثمن إيمانها أن حرقها الطاغية في النَّار مع أبنائها، وهي التي قال رضيعها قبل أن تقتل: "اصبري يا أماه فإنك على الحق"، ثمَّ ألقيت في التنور مع ولدها ولم تحد عن الحقِّ لحظة واحدة. وهو نموذج سامق لامرأة آثرت الثبات والتضحية بفلذات أكبادها على أن تداهن في الحق.

وإنَّ أبرز مثال لهذه النَّماذج المشرقة لمؤمنين ثبتوا وصدعوا بالحقِّ في عقر دار الظَّالمين، آسيا زوجة فرعون نفسه، لنشاهد كيف اجتمعت المرأة الصَّالحة المؤمنة في بيت واحد مع أكبر طاغوت في الأرض، وثبتت على إيمانها، فكان جزاؤها أن جعلها الله من نساء العالمين، قال رسول الله صلَّى الله عليه

وسلَّم: "كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون".

ولنا أن نتخيَّل امرأة بمثل إيمان آسيا مع رجل بمثل كفر فرعون، كيف لهما أن يجتمعان تحت سقف واحد، وهذا مثال آخر لمعركة صراع بين الحقِّ والباطل دارت فصولها في بيت الزَّوجيَّة، وانتهت بثبات آسيا وانتصارها فحين علم فرعون بإيمانها عذَّبها أشدَّ العذاب حتَّى ماتت، ولم تتراجع وهي تردّد: ﴿ربّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فرعون وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم: 11). فأي درس لقَّنته آسيا لنساء الأرض، وأي مكانة عالية كانت تسعى لها رخصت لأجلها روحها وضحت معها بكلّ شيء ولم تلتفت لثروة زوجها وسلطانه.

ذلك أن قضايا العقيدة لا تقبل المساومة.

حين يبلغ الاستضعاف أشده تزداد آيات العذاب

ضاعف فرعون أساليب القهر والغلبة والسُّلطان، فأخذ يبطش ويفتك ببني إسرائيل الذين آمنوا بموسى عليه السلام واتَّبعوه، وحين راجع بنو إسرائيل نبيَّهم أوصاهم بالصبر وبشَّرهم بالنصر والتمكين.

قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فرعون أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى ربّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ (الأعراف: 172 ـ 192).

فكان الصبر واليقين مرحلة ضروريَّة قبل بزوغ فجر النصر.

وتمادى فرعون في تكذيب موسى وإيذاء بني إسرائيل، وتزايد فساده في الأرض وظلمه وطغيانه، فأنذر موسى فرعون وقومه بأنَّ عاقبة هذا كله أن ينزّل الله عليهم العذاب الشَّديد، وأرسل الله آيات العذاب ليخوّفهم ويذكّرهم ويحذّرهم من عواقب طريق الكفر.

وكلما أصابهم البلاء والضرّ لجأوا لموسى فيدعو الله أن يرفعه عنهم ثمَّ ما يلبثوا أن يعودوا لكفرهم وغيّهم. وتوالت آيات العذاب عليهم، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءالَ فرعون بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِموسى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ***

وَقَـالُواْ مَهْمَـا تَأْتِنَـا بِـهِ مِن ءايَـةٍ لِّتَسْـحَرَنَا بِهَـا فَمَـا نَحْنُ لَـكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالـدَّمَ ءايَـاتٍ مُّفَصَّـلاَتٍ فَاسْـتَكْبَرُواْ وَكَـانُواْ قَوْمًـا مُّجْـرِمِينَ﴾ (الأعراف: 130ـ133).

وأصابهم القحـط والجـدب فلا زرع لهم ولا ينتفـع بضـرع. ونقص الثَّمـرات والطُّوفـان فأجهـدهم الجـوع وأصـابهم الضـيق الشَّـديد. وأرسـل اللـه عليهم الجـراد والقُمَّل والضـفادع الـتي كـثرت حتَّى نغَّصـت عليهم عيشـتهم. وآيـة الـدم حيث صـارت ميـاه آل فرعـون دمًـا فاسـتحالت معهـا المعيشـة وتعـذَّرت. قـال تعالى: ﴿**وَمَا نُـرِيهِم مِنْ آيـةٍ إِلاّ هِيَ أَكْبَـر مِن أُخْتِهَـا وأَخَـذنَاهُم بالعَذَابِ لعلّهُم يَرْجِعُون**﴾ (الزخرف: 48).

قـال تعـالى: ﴿**وَلَقَـدْ ءاتَيْنَـا موسـى تِسْـعَ ءايَـاتٍ بَيِّنَـات**﴾ (الإسراء: 101)، وقال تعالى: ﴿**وَلَمَّا وَقَـعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْـزُ قَـالُواْ يَا موسى ادْعُ لَنَا ربّـكَ بِمَـا عَهِـدَ عِنْدَك لَئِنْ كَشَـفْتَ عنَّا الرّجْـزَ لَنُؤْمِننَّ لَكَ وَلَنُرسِلنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيل**﴾ (الأعراف: 134).

وتعدَّدت التَّفاسير في "الرجز" وعن ابن عبـاس وسـعيد بن جبير أنَّ المراد به الطاعون، وكأنَّهما أخذاه من حديث أسامة بن زيد مرفوعًا: "الطاعون رجز أرسـل على بـني إسـرائيل — أو على من كان قبلكم — فإذا سـمعتم بـه بـأرض فلا تقـدموا عليـه، وإذا

وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه" رواه مسلم، وهي آية عذاب أخرى.

ويجدر الإشارة في هذه المرحلة من قصة موسى إلى دعاء موسى وهارون على أعداء الله فكانا يقولان: ﴿**رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا**﴾ (يونس: 88ـ89)، واستجاب الله تعالى لهما فمسخ أموال أعدائهما فصارت حجارة على ما قيل، وهذا باب وجب الاجتهاد فيه في معركة الجماهير المسلمة مع الطغاة بتكريس الدعاء عليهم.

"تمايز الفسطاطين" قدر الأمة في كلّ صراع ونهايته المواجهة

بعد أن أقيمت الحجّة وفرقت الأدلة والبراهين بين دعوتي الحقّ والباطل، تمايزت الجموع، بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، فاجتمع مع موسى بنو إسرائيل ومن آمن بدعوته وكانوا قلّة مقارنة مع أهل مصر، قال تعالى: ﴿**فَمَا ءامَنَ لِموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فرعون وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فرعون لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (يونس: 83). واجتمع مع فرعون أهل الكفر وأتباعه من الظالمين، ذلك أنه:

﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ (الزُّخرف: 54).

وبعد طول صبر ومصابرة أوحى الله لموسى وأمره بالخروج ببني إسرائيل من أرض مصر ليلًا والذَّهاب بهم إلى أرض فلسطين، وساروا في طريق البحر الأحمر، وكان هذا الخروج كالصاعقة على فرعون، فجمع قوَّاته وجيشه العرمرم وتوجَّه يطارد موسى ومن معه حتى وصلوا إلى البحر. وكان موقفًا عصيبًا، فالبحر أمام موسى ومن معه والعدو خلفهم يريد الفتك بهم، وضجَّ حينها بنو إسرائيل بالعويل والصياح يردِّدون ﴿**إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾. قال تعالى يصف هذا الموقف: ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾(الشعراء: 61).

قبل بزوغ فجر النصر تبلغ القلوب الحناجر

طريق المواجهة بين الحق والباطل يصل دائمًا إلى محطة تنقطع فيها السبل، ويظنّ الناس بالله الظُّنون، وهو ما نراه في قصة موسى مع فرعون فقد واجه هذا الطاغية وجيشه موسى وقومه عند البحر، ولم يكن لهم من طريق يسلكونه للفرار من ظلمه، ولكن موسى لقَّننا درسًا كيف تنتصر الروح على المادة وكيف ينصر الله سبحانه عبده في أشد الظروف حين يتعلق به، تسقط كلُّ الأسباب والقوى ولو بلغت القلوب الحناجر ولو

وصل اليأس منتهاه، قال موسى: ﴿**كَلاَّ إِنَّ مَعِي ربّي سَيَهْدِينِ**﴾ (الشعراء: 62). فجاء المدد الإلاهيُّ للعبد الذي أجاد الانطراح على عتبات الرُّبوبيَّة، وأوحى الله لموسى أن اضربّ بعصاك البحر، تلك العصى التي كان يتوكَّأ بها ويهشُّ بها على غنمه هي ذات العصا التي أرهب بها فرعون وأذهله حين تحوَّلت لثعبان ضخم أزهق الباطل وهزم السحر، وهي نفس العصا التي ضرب بها موسى البحر فانفلق بإذن الله تعالى اثني عشر طريقًا في قلب البحر، ومشى موسى وقومه إلى داخل البحر بين جبال من الماء، على أرض يابسة بأمر الله، آمنين من فرعون وجنوده، لكن سبيل النَّجاة هذا جعله الله سبحانه فقط لأهل الإيمان ومن اتَّبع موسى، فحينما تبعهم فرعون وجيشه عاد البحر لما كان عليه وأطبق عليهم فأغرقوا أجمعين.

وهنا وصلت قصة موسى وفرعون لأعظم درس للأمم المتتالية.. لقد اختفت كل أملاك وقصور وقوى فرعون، وتحوَّل لعبد ذليل حقير مهين، وسقط معه كبرياؤه وكبره، فأعلن إيمانه بالله الذي أصرَّ على الكفر به رغم كلّ الأدلة والبراهين والحجج الدامغة، فقال تعالى يصف لنا خضوعه للحقِّ لمَّا غرق في يمِّ كفره: ﴿**فقال آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلَّمِينَ**﴾، ولكن ما فائدة الإيمان حين يغرغر صاحبه!! قال تعالى: ﴿**ألآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ**

الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس: 90ـ 92).

وكانت نهاية الباطل في يوم مشهود في تاريخ العاشر من شهر محرم، فجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا خاصًّا من أيَّام السنة، فقد روى البخاري عن ابن عباس قال: قَدِمَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: "ما هذا اليوم الذي تصومونه؟" فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: "أنتم أحقُّ بموسى منهم فصوموا".

ويجدر الإشارة إلى أنَّ يومًا مشهودًا كيوم هلاك فرعون، كانت فيه قلوب جميع المؤمنين مع موسى ومنها قلب آسية قال ابن كثير: "حينما كان الفريقان مجتمعين كانت امرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه فمن رآها ظنَّ أنَّها إنَّما ابتذلت للشفقة على فرعون". وهكذا تجتمع قلوب المؤمنين دائمًا على الحقّ وتتماسك بالتواصي بالدعاء والصبر.

شروط قبول التوبة

قال تعالى: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فرعون وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءامَنتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي ءامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ (يونس: 90 ـ 91).

إنَّ إعلان فرعون توبته وإسلامه في تلك اللحظة الحاسمة، لم ينجيه، وفرعون لم يقلها عن اعتقاد إنَّما قالها ليخلص من الغرق قال تعالى: ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ (النساء: 18)، وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**﴾ (غافر: 84 ـ 85).

ثمَّ جاء دور البحر فلفظ جثة فرعون ليصبح آية وعبرة لمن يعتبر. وليدرك جنود فرعون أنَّ ملكهم قتل شرّ قتلة حين عصى الله ربَّ العالمين. وهي آية بقيت لهذا الزَّمان ليعتبر أهل الأرض. وكم من الآيات يغفل عنها النَّاس!

الغلبة للحق مهما طال ظلام الباطل

وبعدما طالت فصول المواجهة بين موسى وفرعون، أَذَّن الله سبحانه بالنَّصر وأورث بني إسرائيل الأرض حين وقفوا في صفّ الحقّ قال تعالى: ﴿**كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**﴾ (الدخان: 25ـ 29).

وكانت الغلبة لدين الله ولم يعد للطَّاغوت المتجبّر في الأرض من أثر سوى جثة هامدة تشهد لها الأجيال بالهزيمة. وإنَّ هذه الهزيمة لهي مصير كلّ طاغوت مهما بلغ من القوَّة والتمكين.

وعلى الجماهير أن تعي هذه القاعدة تمام الاعتقاد، فلن يضرَّهم بإذن الله ظلم ولا طغيان ولا مؤامرات ولا نفاق إن هم استعانوا بالله واستمسكوا بحبله.

وما ينبغي أن يستحضره المسلمون أنَّ الغلبة لهذا الدين عاجلًا أم آجلًا بوعد من الله حقّ، وأنَّ عليهم أن يحملوا همَّ الاستقامة واتّباع أمر خالقهم، ويحفظوا تعاليم الإسلام وعقيدته طول حياتهم في السرَّاء والضرَّاء ومهما اشتدَّ الابتلاء، وأن لا يكلُّوا من الدعاء والتضرُّع لله فإنَّ الأمر كلّه لله. وإنَّما يأتي

النَّصر بعد تمييز وتمحيص للقلوب وزلزال وابتلاءات. وأن يدركوا تمام الإدراك أنَّ معركة الحقِّ والباطل تستوجب الصدع بالحق وتبيان معالمه والتزام أوامر الله والبذل والفداء والسعي والاجتهاد، ولو كانت التضحيات جسام، ولو كانت بالنفس والنفيس، فما عند الله أجلّ وأبقى، وبهذا انتصر موسى وبنو إسرائيل على فرعون الطاغوت وجنوده بعد كلّ ما مرّ بهم من استضعاف وعدوان.

ولكن، لم تتوقف قصة بنو إسرائيل التي انطلقت من قلب الاستضعاف إلى قمَّة الانتصار والتَّمكين، بل كانت لها فصول بعد ذلك يجدر بنا قراءة معالم الحق والباطل فيها، وهو ما سنتناوله في القسم الثالث والأخير من قصة موسى عليه السلام. لعلَّها تكون ذكرى تنفع المؤمنين.

✿ ✿ ✿

15

قصة موسى: معالمُ الصراع بين الحق والباطل

(الجزء الثالث: التمكين)

كنا استعرضنا في الجزء السابق مرحلة المواجهة مع الطاغوت في قصة موسى وبني إسرائل، وبعد فضل الله وعونه، تحرّر بنو إسرائيل من الطاغوت فرعون وشهدوا مهلكه أمام أعينهم وورثوا بعد ذلك الأرض. ولكن كيف تعامل بنو إسرائيل مع هذا النصر وهذا الفضل العظيم من ربّهم؟ هو ما سنتناوله في هذا الجزء الثالث والأخير من قصّة موسى عليه السلام بتبيان بعض معالم الصراع بين الحقّ والباطل في هذه القصّة العظيمة.

بنو إسرائيل بعد هلاك فرعون ودعوة التوحيد

قال تعالى: ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ**

الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: 137).

ونال بنو إسرائيل شرف وراثة الأرض والتمكين، فماذا كان من قوم شهدوا بأمّ أعينهم آيات الله وتأييده لهم وهلاك الطاغوت فرعون الذي سامهم سوء العذاب، وعاينوا بأنفسهم تحقّق وعد نبيّهم لهم كما بشّرهم به أثناء محنتهم؟ لقد خرج بنو إسرائيل من جانب البحر، وما أن تجاوزوه وجدوا قومًا يعبدون أصنامًا على هيئة بقر، فطالبوا موسى بلا خجل أن يجعل لهم عجلًا يعبدونه كما يفعل هؤلاء القوم. فكيف نسي بنو إسرائيل بهذه السرعة كلّ ما مضى؟ وتناسوا أصل دعوتهم لله سبحانه وحده لا شريك له، كيف وقعوا في الضلال والجهل بهذه السرعة؟

فما كان من نبيّ الله موسى إلا التذكير من جديد بدعوة التوحيد أصل الصراع الأوّل. مردّدًا نعم الله عليهم وتفضيله لهم وما منّ به عليهم لعلّهم يذّكّرون ويتّقون.

لكنّ بني إسرائيل حملوا ذلك الضلال في قلوبهم ولم يظهروه إلّا حين ذهب موسى للقاء ربّه، فاتّبعوا السامري واتخذوا عجلًا من ذهب وأعرضوا عن وصايا موسى وتنبيهاته.

وهنا يبرز أصل الصراع دائمًا كقاعدة أولى في المواجهة بين الحقّ والباطل، وهو عقيدة التوحيد التي يجب أن تكون راسخة في قلوب العباد لتتصدّى لأيّ محاولات شركيّة بائسة ولتتجاوز شراك المضلّلين مهما بلغت من درجات الشبهات. وحين تترسّخ هذه العقيدة فلا يمكن أن تعصف بها العقائد والدعوات الأخرى المضلّلة.

الجحود صفة الظالمين

لقد اتّصف بنو إسرائيل بالجحود وكفران النعم فضلًا عن تاريخ طويل من التلاعب والتحايل كما رأينا مع قصّة السبت فضلًا عن طلبهم رؤية الله وقتلهم الأنبياء رغم معاينتهم لآيات الله سبحانه، فكانت نهاية هذا الجحود والعصيان والاستكبار غضب الله وعقابه والهلاك، ومن المواقف التي يظهر فيها ظلم بني إسرائيل لأنفسهم، موقفهم وهم في طريقهم إلى الأرض المقدّسة بفلسطين حيث مكثوا ثلاثة أيّام لا يجدون ماءً، فأمر الله نبيّه موسى أن يضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينًا من الماء قد علم كلّ أناس مشربهم، وشهدوا مرّةً أخرى فضل الله عليهم.

ولم يكن الماء النعمة الوحيدة التي أنعم الله بها عليهم وهم في أمسّ الحاجة لها بل زادهم المنّ والسلوى وظلّلهم بالغمام،

فكيف واجهوا هذا الكرم الإلهي؟ لقد احتجت نفوسهم المريضة على هذا الطعام الفاخر واشتهت أطعمة مصريّة متدنية كالبقول والقثّاء والفوم والعدس والبصل، فما كان من موسى إلّا أن قال: ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ**﴾، ولكن الثمّن كان ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ**﴾.

ومن مواقف الجحود والعصيان لبني إسرائيل استثقالهم لما جاء في التوراة من أمر ونهي بعد أن عرضها موسى عليهم. وأبو الإقرار بما جاء فيها بكلّ جرأة بعد كلّ ما شهدوا من آيات الله. فكان الردّ الإلهي أنَّ نَتَقَ الله الجبل فوقهم، أي ارتفع فوقهم كأنَّهسحابة تظلّهم، حتَّى إذا كان بين السماء وبين رؤوسهم حذّرهم موسى بأنَّ رفضهم للتوراة وعدم استجابتهم لأمر ربّهم وأخذه بقوّة سيؤدي بهم لإسوأ مصير، حيث سيُرمى بالجبل عليهم، فلمَّا أفزعهم المشهد خرّوا لله سجّدًا ولكن ما لبثوا أن عادوا لنفاقهم.

بنو إسرائيل والقعود عن الجهاد

إنَّ مواقف عصيان بني إسرائيل لأوامر الله كثيرة بعد أن نجّاهم من فرعون ومكّن لهم، ومن أبرز هذه المواقف التي يجدر بنا تسليط الضوء عليها، القعود عن الجهاد، فحين أمر الله نبيّه موسى بدخول الأرض المقدّسة التي يسكنها عمالقة

جبّارون ـ وقال ابن كثير: هي فلسطين ـ حرّض بني إسرائيل على الجهاد في الأرض التي كانت في يد أبيهم يعقوب عليه السلام، وكانوا قد تركوها لمّا تقلّد يوسف عليه السلام حكم عرش مصر فأقاموا في بلاد النيل، وظلّوا فيها حتّى خرجوا منها فرارًا من بطش فرعون.

ولكن حين أمرهم موسى بدخولها، لم يكن من جواب بني إسرائيل إلّا جواب من اعتاد الذلّة والهوان، وأَلِف الصغار في أرض الفراعنة، فقالوا: ﴿**يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**﴾ (المائدة: 22).

فكان القعود والتهرّب من أداء الواجب والاستجابة لأمر الله ونبيّه صفة بني إسرائيل رغم كلّ ما عاينوه من آيات الله ونصره وتمكينه.

مع ذلك بقيت نماذج مؤمنة تنير الواقع المظلم الذي يصنعه الظالمون لأنفسهم، فقد نطق بالحقّ رجلان من الذين أنعم الله عليهم بالإيمان من الاثني عشر نقيبًا، فقالا: ﴿**ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (المائدة: 23)، قال الضحّاك: هما (يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا فلم يثنهما حجم العماليق عن

الاستجابة لأمر نبيّهم وحرّضا القوم بتبيان حقيقة هذا الحجم، وأنَّ العماليق أجسامهم كبيرة وقلوبهم ضعيفة. ورغم قوّة الحجّة التي نطق بها الرجلان المؤمنان، جاء جواب بني إسرائيل معاندًا، وقالوا: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ (المائدة: 24).

وكما جرت به السنن مع من عصا ربّه وتمرّد على أمره، أن يستحقّ العقاب، فاستحقوا بذلك عقاب التيه بعد أن اشتكاهم نبيّهم لله، وتاهوا في الأرض أربعين سنة. لقد كانوا يسيرون فيها على غير هدى أو مقصد ليلًا ونهارًا صباحًا ومساء، ويُقال إنّه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله، بل ماتوا كلهم في مدّة أربعين سنة، وخلال تلك الفترة مات هارون ومن بعده بثلاثة أعوام مات موسى عليه السلام، ولم يبق من ذراريهم سوى يوشع بن نون، وكالب عليهما السلام.

وكانت عاقبة عصيان الله التيه والهلاك.

الاستجابة لأمر الله لا لأمر النفس

لقد حوت قصّة موسى الكثير من الدروس والعظات والعبر، ولعلّ أحد أهمّ هذه الدروس ما يقع فيه المندفعون بحماسة لنصرة الإسلام حين يغيب عنهم أنَّ نصرة الدين تكون

وفـق أصـول ومنهج الإسـلام لا عـواطفهم ومـا تـراه أنفسـهم وتنحرف له أهواؤهم.

فقد اختار موسى سبعين رجلًا من قومه للميقات المعلـوم، ولمـَّـا بلغـوا جبـل الطـور، تـرك موسـى قومـه تحت إمـرة أخيـه هـارون، ثمّ صـعد الجبـل يسـبق قومـه متعجّلًا الوصـول يدفعـه الشوق والحبّ لربّـه، ولكن خلال اسـتعجاله كـانت أمـور أخـرى تجـري بين قومـه. قـال تعـالى: ﴿**وَوَاعَـدْنَا مُوسَـى ثَلاَثِينَ لَيْلَـةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِـعْ سَـبِيلَ الْمُفْسِـدِينَ**﴾ (الأعراف: 142).

وسأل اللـه سـبحانه عبـده موسـى الـذي وصـل مبكّـرًا فقـال تعـالى: ﴿**وَمَـا أَعْجَلَـكَ عَنْ قَوْمِـكَ يَامُوسَـى**﴾ فأجـاب العبـد النـــبيّ: ﴿**قَـــالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَـــرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْـــكَ رَبِّ لِتَرْضَـى**﴾، لكن خلـف هـذه العجلـة كـانت هنـاك مصـيبة قـال تعالى: ﴿**قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّـامِرِيُّ**﴾ (طه: 83ـ85).

ففي كــلّ مجتمــع شــياطين إنس، تعمــل على تضــليل الجماهير وصدّهم عن عبادة الله وحده، وكذلك كـان السـامري الذي استغل غياب موسـى وحكمـة هـارون عليهمـا السـلام، ثمّ

استعداد بني إسرائيل للانحراف، فأضلَّ القوم وصنع لهم عجلًا من الذهب له خوار كخوار الثور. وانحرف بنو إسرائيل لهذه الضلالة رغم تبيان موسى لأصول دعوة التوحيد التي خرج بها وتكرارها على مسامعهم، كما رأينا جنوحهم للشرك بالله وهم خارجون للتّو من أحد أعظم مواقف النصر في التاريخ.

والخلاصة أنَّ الاستجابة تكون لأمر الله لا لأمر النفس أو دعاة الضلالة مهما استحسن الناس أو استحسنت النفس الأمر، ولا يثبت إلَّا من ترسّخت لديه عقيدة التوحيد وأدرك أنَّ الاتّباع لا الابتداع هو السبيل للنّجاة ونيل رضى الله سبحانه.

حين يختلف الأخوان

غضب موسى أشدّ الغضب من قومه وكان يحمل الألواح في يده ولكن من شدّة غضبه ألقى بها على الأرض، وبدأ بمواجهة أخيه هارون من تولّى مسؤولية بني إسرائيل في غيابه. وإنَّ هذا الموقف المهيب يستدعي التدبّر والتفكّر في شخصيّة موسى عليه السلام، لندرك درجة الغضب التي وصل إليها حتّى أنّه رمى بالألواح التي فيها وصايا ربّه والتي عليه أن يأخذها بقوّة، رماها على الأرض ولم يشعر بنفسه. وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه، يسأله معاتبًا له على فتنة السامري في غيبته وقال: ﴿**يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ**

أَمْرِي﴾ فكـان ردّ هـارون عليـه السـلام: ﴿**قَالَ يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾** (طه: 92ـ 94).

ونشاهد كيف حاول هارون استيعاب غضب أخيـه للحـقّ، وكيف عمل على تهدئته فـذكّره برابـط الأخـوّة بينهمـا مسـتعملًا أدقّ الألفاظ، وبالأعداء الذين يرقبـون مشـهد اقتتالهمـا ليشـمتوا بهما وهمـا أصـحاب دعـوة واحـدة، فقـال لموسـى: ﴿**ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** (الأعراف: 150).

لقـد قـدّم هـارون أروع نمـوذج لاسـتيعاب الأخ في ذروة غضبه وبيّن أصـول الوفـاق بينهمـا، كمـا اسـتوعب موسـى أخـاه وتفهّم موقفه، الذي كان الهـدف منـه ألّا يتفـرّق القـوم وتحـدث فتنة أكبر إلى حين قدومه. ويـا لهـا من علاقـة رائعـة بين أخـوين في نفس طريق الدعوة للتوحيد يستوعبان بعضهما البعض مهما اختلفا.

الجزاء من جنس العمل

أحـد الـدروس المهمّـة المستخلصـة من قصّـة موسـى عليـه السلام في صراع الحقّ مع الباطل، أنَّ الجزاء من جنس العمـل،

فقد نال السامري الجزاء الأوفى على ظلمه وفتنته التي نشرها بين بني إسرائيل، قال موسى: ﴿**فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ**﴾ (طه: 97).

لقد أخذ السامري ومسّ ما لم يكن له أن يأخذه، حين مسّ أثر الرسول جبريل أثناء غرق فرعون، فكانت عقوبته في الدنيا أن يقول لا مساس، لا يمسّ الناس ولا يمسّونه، يعزل تمامًا عن المجتمع ويهيم في الأرض لا يقرب أحدًا ولا يمسّه. وهذا عقابه في الدنيا ويا له من عقاب! أمَّا في الآخرة فعقابه أعظم.

وحرَّق موسى العجل ونسفه في اليمّ أمام أعين بني إسرائيل، وقال للسامري: ﴿**وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثمّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا**﴾ (طه: 97)، لندرك أهمية نسف الأباطيل أمام أعين الجماهير ودعوتهم إلى عبادة الله وحده سبحانه، قال موسى: ﴿**إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ (طه: 98).

وكذلك جزاء كل من كفر بربّه واتّخذ إلهًا من دونه قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾ (الأعراف: 152).

وكان هذا الجزاء ألَّا يقبل الله توبتهم عن عبادتهم العجل إلَّا أن يقتل بعضهم بعضًا، قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ (البقرة: 54).

فاستجاب جزء منهم فأخذ يقتل بعضه بعضًا، فمن قُتِل نال مرتبة الشهداء ومن لم يُقتَل عفا الله عنه وقَبِل توبته. وبالحساب تدوم الاستقامة والخير وبالعقاب يدوم العدل والأمان.

جريمة القتل بغير حق

عُرِفَت سورة البقرة بقصّة بني إسرائيل مع بقرة، وبحسب ما روى غير واحد من السلف فهي قصّة رجل ثريّ من بني إسرائيل لم يكن له ذرّية ترثه، فطمع فيه أقاربه، وكان المال والذهب أهمّ شيء في حياة بني إسرائيل، فتآمر ابن أخ هذا الثريّ عليه فقتله بهدف الاستيلاء على أمواله، وحتّى يبعد التهمة عن نفسه، حمل جثّة الثريّ وألقها على باب قرية مجاورة ليتّهم أهلها بقتله.

وبعد اكتشاف جثّته اتّهم أهل القتيل أهل القرية بقتله، وقاد هـذا الإفـك ابن أخ المقتـول، وتقمّص دور المفجـوع بـالتظلّم والصراخ، فجاءوا نبيّ الله موسى ليحكم بينهم، فسأل ربّه عزّ وجلّ عن القاتل فأمره أن يأمرهم بذبح بقـرة وبـدل أن يسارعوا بالاستجابة لأمر الله شدّدوا على أنفسهم، ومـاطلوا وسألوه عن صفتها، ثمّ عن لونها، ثمّ عن سنّها، وكما شـدّدوا على أنفسهم شدّد الله عليهم.

وإنَّ هذه القصّة لترسّخ في أذهاننا أنَّ مصير كل قاتل أن يفضحه الله عاجلًا أم آجلًا، وأنَّ قتل النفس التي حرّم الله من أعظم الحرمات في الدين، ولا يمكن الخداع والتمثيل ولعب دور الضحية حين تكون الأيدي ملطّخة بالدماء المعصومة. ومن لم يعتبر بقصة موسى فإنَّ السنن لا تحابي أحدًا، والله فاضحه وسينال عقابه الأوفى في الدنيا والآخرة.

قصة قارون عبر متصلة

قدّمت قصّة قارون العبر المتّصلة في كلّ زمان ومكان، وهو قارون بن يصهر بن قاهث، ابن عمّ موسى عليه السلام وهو رجل من بني إسرائيل آتاه الله الرزق والثروة وامتلك كنوز الدنيا العظيمة، حتّى إنَّ مفاتيح خزائنه كانت تنوء بالعُصبة أولي القوة، ومع قوّة المال، كان لقارون نفوذ ومكانة بين قومه، وكان الناس

يتمنّون أن يكون حالهم كحاله رغم ما كان يظهره من خيلاء وغرور وكبر وفساد في الأرض قال تعالى: ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ**﴾ (القصص: الآية 76).

وقال تعالى: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ (القصص: 79)، هكذا تنبهر الجماهير بصاحب الثروة والمال إلّا أنَّ أصحاب العلم والحكمة كانوا يعظون قارون وينصحونه ويدعونه للإخلاص لله، وأن يبتغي فيما آتاه الله من الكنوز والأموال والملك الدار الآخرة دون أن ينسى نصيبه من الدنيا، وألّا يكون الثراء سبب غضب الله عليه بل أن يحسن به للفقراء، وأن يتذكّر نعم الله عليه، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ**﴾ (القصص: 80)، لكن قارون استكبر وازداد غرورًا، وقال متفاخرًا: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ (القصص: 78).

وكانت عاقبة الجحود وكفران النعم العذاب. وعاقب الله قارون أمام أعين من كان مفتونًا به، فبينما هو خارج بكامل زينته والحشود تحتشد له على جانبي الطريق، يتقدّم مركبته الخيول الكثيرة والحرّاس، ليظهر بموكب مهيب يسحر أعين

الناس، فإذا بالعذاب يحل عليه بغتةً ومن حيث لم يحتسب قال تعالى: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ**﴾ (القصص: 81).

والله لا يحبّ كلّ مختال فخور. وكلّ من يمضي في حياته مختالًا فخورًا كافرًا مصيره الهلاك كما فُعل بقارون، قال تعالى: ﴿**وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**﴾ (القصص: 82).

والدرس الهامّ الذي يجدر التذكير به في هذا المشهد هو أنّ ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (القصص: 83 – 84).

دروس في مكانة العلم وآدابه مع قصة موسى

والحديث عن معالم الحقّ والباطل في قصّة موسى لا بد أن يدفعنا لتسليط الضوء على قصّة موسى مع الخضر لنتأمّل مكانة العلم وآدابه في حياة الدعاة لله.

وأصل القصّة أنَّ موسى بينما انتهى من خطبة له في بني إسرائيل، سأله رجل منهم هل هنا من هو أعلم منك؟ فقال موسى: لا. فعاتبه الله على ذلك وأوحى إليه بأن يذهب عند ملتقى البحرين ليلتقي هناك بعبد من عباده، آتاه الله رحمة من عنده، وعلّمه من لدنه علمًا.

ولا يمكننا في هذا المقام تفصيل معالم القصّة العظيمة التي دارت بين موسى والخضر، والتي ذكرتها سورة الكهف ببيان مبهر، لكن ما ينبغي أن نسلّط عليه الضوء في هذه القصّة هو مكانة العلم وآدابه في حياة المؤمنين، وكيف يتحوّل العلم لعمل وتأثير في الأمّة والمجتمع، ثمّ أهمية الرضا بقدر الله وقضائه وتسليم الأمر لله تعالى، فالابتلاء يصيب الإنسان في الدنيا لحكم يعلمها الله سبحانه كما أنَّ الصلاح وصناعة المعروف من أسباب السلامة والنجاة.

في الختام

إنَّ أبرز درس نستخلصه من قصّة موسى مع بني إسرائيل منذ بداية الابتلاء والاستضعاف مرورًا بالتمكين ثمّ الاستكبار. قول الله تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا**﴾ (الأعراف:

146)، فإنَّ الاستكبار وجحود الآيات والكفر بها أوّل سبب للحرمان من رحمة الله تعالى.

لقد بدّل بنو إسرائيل فبدّل الله حالهم، ومسخهم قردة وخنازير، وذكّرنا بهم في القرآن حتّى لا نسلك سبيل المغضوب عليهم ولا طريقتهم المهلكة.

واجتمعت في قصّة موسى جميع مواقف الحقّ مع الباطل سواء في الأسرة الواحدة، أو في المجتمع الواحد أو بين الأمم المختلفة. ولا ينجو وينتصر إلَّا من تمسّك بعروة الإيمان وعقيدة التوحيد الخالصة، أمَّا دون ذلك فالهلاك مهما جمع من أسباب القوّة المادّية والبشريّة والحيل.

تُعلّمنا قصة موسى كيف أنَّ الله خبير بصير بعباده، وكيف يكون حلمه وكيف يكون غضبه. ونحن في هذه الأيّام التي تتوالى فيها آيات العذاب على بني البشر في عصرنا الحديث، إنّما يجدر بنا التذكير أنَّ الفرار إلى الله هو الملاذ الآمن والعاقبة الحسنى، وأنَّ تمسّك الجماهير بقرآنها وسنّة نبيّها بقوّة هو السبيل الوحيد لتجاوز الفتن والمصائب والنوازل التي تتوالى مع آخر الزمان.

ولعلّ أهمّ خلاصة أختم بها هذا الطرح، أنَّ الشعوب المسلمة التي تكبّلها أغلال الاستعباد والظلم والعدوان وتُسام

العذاب على يد طاغوت متجبّر في الأرض، عليها أن تتأمّل قصّة بني إسرائيل مع فرعون، وأن تدرك بأنَّ النصر حليفها مهما طال الزمن أو قصر بوعد من الله حق، لكنَّ المصاب الأعظم هو في القلب، في عقيدة الإيمان التي يجب أن تبقى خالصة لله سبحانه، ولا يكفي التحرّر من حكم طاغوت والانتصار عليه بل يجب الثبات على هدي الإسلام وشريعته والتصدّي لكلّ دعاوى التحريف لمنهج الحقّ بترسيخ العقيدة والعلم والأخلاق والأخوّة والصبر وكلّ ما يدور في فلك صناعة الفرد المؤمن والأمّة الموفّقة والمزدهرة، وإلّا فـ ﴿**كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا**﴾ (طه: 99ـ 101).

✿ ✿ ✿

16

معالم أسياسية مختصرة في صناعة الأجيال المنتصرة

حين أنظر في هذا الواقع المرير للأمة، أرى أن المطالبة بمعايير التربية الأولى فقط لأجل إخراج جيل مستقيم لا تكفي لتجاوز حجم الكارثة التي نعيشها، بل أرى أن يجعل كل راعٍ هدفه الأول: إخراج قيادات من النوع الفريد، لا مجرد جند أو أتباع.

أن يبذل كل جهده في تنمية صفة الميول إلى القيادة التي نجدها عند الطفل منذ عمر مبكرة، وبيدنا أن نطورها مع تطور مراحل حياته. ولا يعني هذا أننا سنخرج بجيل كله قيادات، بل إن الهدف حين يكون في سقف المطالب، لن يكون النتاج إلا مستوى من الأجيال متفرد.

بالله نستعين

وهذا المشروع لا يأتي غلابًا، وإنما بالتدرج والجد، مع مراعاة طبيعة النفس البشرية وطاقاتها. ولعل أول ما يستعين به المربي في هذه المهمة الحاسمة: هو الدعاء بالصلاح والتوفيق

لهذه الفلذات، لا تفريغ شحنات الغضب بالدعاء عليهم واللعن والسب والشتم!

ولأهمية هذا الأمر نبهنا عليه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال:" لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَوْلاَدِكُمْ وَلاَ تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ لاَ تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ".

فكم من طفل نشأ وكبر ولم يجد التوفيق في حياته بسبب دعاء أمه أو أبيه عليه، ثم يتفاجآن بفشل ذريع وابن عاق طالح معاند ويتحسران على هذا المصاب. وهذا رجل جاء إلى عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ يشكو إليه عقوق ولده، فسأله ابن المبارك:" أدعوت عليه؟"، قال:"نعم"، قال:" اذهب فقد أفسدته".

التعليم المتين

وإن كان حرص الوالدين والمربين على تلقين العلوم الحياتية لأبنائهم مهمة أولى، فإن الأولى في هذه الظروف التي نمر بها: هو تلقينهم القرآن وأصول دينهم وقواعد الإيمان، قبل أن يشتد عودهم.

ولا يستهان بهذا الأمر، بل لِيَكُن من أولى الأولويات؛ فذاك دأب السابقين، وعن جندب قال:" كنا مع النبي ـ صلى الله عليه وسلمـ ونحن فتيان حزاورة فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا."، ثم هل تخلفت أمتنا إلا من جراء تخلفنا عقديًا وإيمانيًا؟!

فإن تم ترسيخ قاعدة الإيمان والتوحيد بداية، وتقوية قلب الطفل المقبل بنور القرآن ثانيًا، نكون قد أقمنا حجر الأساس في بناء قلب سليم إذا صلح؛ صلح الجسد كله، ثم ننطلق بعدها في مرحلة تلقين بقية العلوم النافعة التي لابد له منها ليحقق سبقًا في هذه الحياة، وبقلب قوي عامر بالإيمان سيجتاز جميع الامتحانات بنجاح وامتياز.

ولابد أن يعتمد أسلوب التلقين على حفر المعاني والمفاهيم، لا مجرد الحفظ بلا فهم كالببغاء؛ ذلك أن الفرق شاسع بين طفل يحفظ المعلومة وهو مدرك لماهيتها، وبين طفل يحفظها بلا أدنى دراية لمكنوناتها، ثم حين يكبر يكتشف أنه لم يحز معشار العلم الذي استغرق حياته في تعلمه، ويا لها من خسارة في الوقت والجهد! فلا أفضل من علم متقن، راسخ، يربط النظرية بالتطبيق.

توثيق الصلة بالتاريخ والمستقبل

كما أن دائرة معرفة الطفل في عصرنا اليوم لا بد أن ترتبط ارتباطًا وثيقًا بتاريخ ومستقبل هذه الأمة، فكما لابد له أن يعرف سيرة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويستمد القوة ـ قوة الإلهام والتحريض ـ منها، ومن سير صحابته الكرام، وجند الإسلام الأفذاذ، وتتشبع ذاكرته الصغيرة العميقة بقصص القدوات والبطولات عبر كل زمان؛ فتتجلى ملامح النجابة فيه حين يتحدث عنها متفاخرًا ومعتزًا بلسان فصيح لا يلحن.

علينا أن نبيّن لهذا الطفل أن المستقبل لهذا الدين، وهذا وعد حق؛ فيتعلم أحاديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوصياته، وما ينتظر هذه الأمة من نصر وتمكين إن هي تمسكت بدين الله وشريعته. وهذا ما يعني إقبال الطفل مستبشرًا واثقًا مستيقنًا، فلا نسأل بعدها عن درجات النجاح التي يحرزها.

تعويدهم على حمل المسئولية

لنحملهم ـ وإن كانوا صغارًا ـ مسئولية تليق بحجم الأمانة التي ستُلقى على عاتقهم، كأن نعمد إلى تفويضهم في مهمات تبث الثقة والإرادة في ثنايا أجسادهم، فنُسِرُّ الطفلَ السِّرَّ ونطالبُه

بحفظِهِ، ونوكل إليه تولي مهمة توصيل أمانة بحرص شديد أو إنجاز عمل هو من أعمال الكبار، وعلى هذه نَقِس.

علينا أن نعاملهم باحترام ورفق، وفي ذات الوقت بحزم وحرص؛ ليكون النتاج طفلًا متوازنًا، يُدرك ما له وما عليه.

ويدخل في هذه تعويدهم على فروض الإسلام، والصلاة، ومكافأة من حرص منهم على أداء صلاة الفجر في وقتها، ثم تشجيعهم على تعظيم المسجد وشعائر الله وتعويدهم على الغُسل يوم الجمعة، والصلاة في جماعة حتى تصبح بالنسبة لهم ضرورة لتذوق طعم الحياة، لا مجرد أداء مُبهَم لفرض!

لنصنع منهم قادة بهِمَم عالية يتوقون للأفضل لا للدنية، لنستمع لخطبهم وهم يلقونها، ولمغامراتهم وهم يقصونها، ولأحلامهم وهم يتوقون لتحقيقها؛ فيستشعرون أهمية دورهم في هذه الأمة.

فنون في سبيل الاستقامة

ليكن الانضباط وسيلة والنظام طريقة، ليتعلموا احترام الوقت واعتياد النظافة، ولنحرص أكثر على الجدية في معالجة اهتماماتهم والإجابة على أسئلتهم.. لنتقن معهم فن الحوار!

ولنبعدهم كل البعد عن مرجعيات غير مسلمة، فنطهر أسماعهم وأبصارهم من كل رذيلة أو سيئة.. وليكن ملبسهم ومطعمهم ومشربهم حلالا، وليكن سبيل استقامتهم مليئا بالأماني الرائعة والأهداف السامية.

أبجديات بناء الأمة الواحدة

لنعلمهم روح التعاون منذ الصغر، والصدقات وتقديم القربات، لنفقههم كيف يكون الإحسان والمروءة والصبر ومكارم الأخلاق، لنزرع محبة الأخوة في قلوبهم، والجار، وكل مسلم مهما بعدت به الديار!

إن لنا ميراثًا ثقيلًا زاخرًا، لنصطد منه الأفضل كل يوم ونقدمه بشهية لصغارنا، وحب.

أم الفرسان

وتلك الأم محراب الأمان والعطاء، هي التي بسحر حنانها ومحبتها تؤثر في قسوة الحجر، تضم صغيرها فتهمس في أذنيه أنه بطل، وأنه سيرجع للإسلام مجده يومًا كما أرجعه صلاح الدين وخيرة القادة على مر الأزمان.

ستحدثه عن قصة بيت المقدس واغتصاب اليهود، وعن احتلال الصليبيين وعن تسلط الطغاة والظلمة، ستحدثه القصص بلسان يفهمه وتذكره أنها تنتظره، ليكبر ويشتد عوده ويكون هو البطل المقبل.

ستزرع بكياستها جذوة الاعتزاز بالإسلام والرغبة الحارقة في عودة مجده بسواعد صغيرة ستشب قوية. وإن تغذية فكر الطفل منذ الصغر بعزة المسلمين، وربط وجوده بأهمية عطائه ومسابقته، وتحفيزه المستمر بقصص النجاح والبطولات، له مفعول قوي جدًا في شعوره بالقوة وإحرازه التفوق.

على عكس الانهيار والشكوى والبكاء والانكسار أمامه، فيتحول الطفل لمحبط يائس يريد الهروب من واقعه، بل علينا أن نعلم الأطفال كيف يقومون في الفشل ويتجاوزون العجز، وهذا من خلال اللعب، وامتحانات الحياة، فإن صادف الطفل صعوبة، يجد عباراتنا تشد أزره؛ لا تقلق، استعن بالله، ستنجح، أعد الكَرَّة ولا تتراجع، أنت لها إن ثبتّ،... مجرد عبارات، لكنها حين تأتي في وقتها يكون لها مفعول ـ بلا شك ـ رائع في تجاوز العقبات.

فهم الواقع

لابد أن يفهم الطفل جانبًا مما نعيشه بمفهوم بسيط؛ فهو يشاهد الأقصى تدنسه أقدام اليهود، فلا تبكي أمامه يا أم الفارس، ولا تتعجلي في الانكسار، بل اجعليه يعيش معك اللحظة ليحفظ الفكرة في أن هذا الظلم لن يزول إلا برجال.

رجال يحملون هذا الدين كما حمله صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ. علميه منذ الصغر الفرق بين الحق والباطل، بين الظالم والناصر، بين المسلمين والكافرين!

الإعداد

يدخل في هذه التنشئة: الاعتناء بالتربية البدنية، واللياقة والتغذية الصحية، والاهتمام بنظام حياتي يسمح للطفل بأن يبرز مهاراته. وليس معنى هذا أن نطبق معه مبدأ الجندية، ولكن بتقريب مشابه، نخلق فيه روح الفروسية.

وما أجمل أن نخرج الأطفال أيام العطل في رحلات لزيارة مواقع المسلمين التاريخية وآثارهم التي بقيت، ونربط حسهم البصري بالمعلومة فلا ينسوها. ونجعل الرحلة تجمع بين المرح والتعليم والرياضة.

وليس الذكر كالأنثى

وهـذا لا يعـني أن نهمـل البنـات أو نتجـاوز الفتـاة بكـثرة الاهتمام بهذا الفارس الصغير، بل إن للفتـاة دورًا لا يقـل أهميـة عن دور أخيها، لهذا وجب العناية بكل ما سبق وأن ذكرنـاه مـع الجنسين، مع فارق صغير في ميـولات الـذكر عن الأنـثى، فكمـا أن قدوة الولـد قـد تكـون خالـد بن الوليـد، لتكن قـدوة البنت أم عمارة الأنصارية.

وعلى هذه نقس، ننمي مهارات الطفـل بحسـب مـا يحملـه من مكونات في شخصيته وقدراته. ولتكن الفتاة محـط العطـف والعناية بشكل أكثر من الولد، ذلك أنها رقيقة خلقت لتكون أمًا وأختًا وابنة، لتقدم الحنان والعطف والعطاء بلا حد.

لنصـنع منهن أمهـات، مصـانع للرجـال، لا مجـرد نسـاء بلا أصالة ولا هوية! لتعتز الفتاة بحجابها حين تخرج، ونعطيهـا في ذات الوقت مسـاحة للزينـة والشـعور بأنوثتهـا في داخـل الـبيت، فلا تشعر بالكبت!

لنبين لهـا مزايـا الحشـمة ونـزرع في قلبهـا الوقـار. ونسـتمع لحديثها ونشـاركها الهوايـات... ومـا أجمـل أن تُعَـوّد الفتـاة على القراءة البنّاءة النافعة، ونفتح أمامها مستودعات العلم والمعرفة!

خطر الإعلام والتلفزة

إن من المصائب التي ابتُلينا بها في هذا الزمان: إعلام بلا ضمير، وقنوات بلا دين، وبرامج هدّامة قادرة على هدم ما عملنا عليه بجهد جهيد في بناء شخصية الطفل ليكون مستقيمًا معتزًا بإسلامه، بين يوم وليلة.

فتدس في برامجها السموم، وتبعده عن قاعدة الإيمان، وتزرع فيه الوهن والعجز والكسل والتثاقل، يتابعها الطفل فيفقد القدرة على التفكير الملهم، بل ينحسر في دائرة العبث واللهو، أهدافه تصبح تافهة واهتماماته منحطة، يعلمونهم التعلق بالموسيقى والغناء والتباهي بالثقافة الغربية واللباس والعادات التي لا تنتمي لنا ولا تمثلنا.

يتعلق بسفاسف الأمور وبأسوأ الأخلاق، يعلمونهم الكذب والاستهتار بالعلاقات، والتطاول على الأب والأم بكل سخرية! فضلًا عن تعلق الطفل بكل شيء إلا ربه، فأي زرع نزرعه في صغارنا بتسليمهم لمثل هذه البرامج الهدامة؟!

لهذا وجب على الأب والأم والمربيين الانتباه لما يشاهده أطفالهم في التلفزة والبرامج المرئية والمسموعة، عليهم أن يعوّدوا الطفل كيف يترفع بنفسه عن هذه المهانة. كأن نشرح له

أن هــذا خطــأ وأن عليــه أن يمتنــع عن مشــاهدته وإن لم نكن بجانبه.

نبين له أن هذه القناة أو هذا الكرتون أو هذا البرنـامج سـيئ ومضر إن شاهده في أي مكان عليه أن يشيح عنه، نزرع فيه هذه القناعة حتى إن تغيبنا عنـه يومًـا وثقنـا في أنـه سـيمنع الشـر عن نفسـه. وليكن بأسـلوب محبب وبرفـق؛ ليقتنـع بـه، لا بـالعنف والتهديد! فهـذا يدفعـه للتمـرد والمشـاهدة بالسـر، فكـل ممنـوع مرغوب!

وقد ثبت بالتجربة أن هذا الأسلوب يـأتي بنتـائج مبهـرة بـل ويـؤثر الطفـل بقناعاتـه الـتي ترسـخت في قرارتـه في أصـحابه، وينتقـدهم لسـوء تصـرف أو سـلوك، لا يتبعهم فيـه، وهـذه من صفات القائد!

خاتمة

من الصعب جـدًا أن نلخص معـالم بنـاء القيـادات في أمتنـا منذ الصغر، ولكن هـذا غيض من فيض وبدايـة لمشـوار طويـل من الخبرات والعبقرية تصنع من ذلك الطفل الصـغير شخصـية عظيمة تنصر أمتها وتثبت في المحن وتَعِد بالكثير.

وخلاصة القول: حتى نبني هممًا واعدة، لنُهَيِّئ لقلوبها أسباب السلامة. فإن قويت القلوب، لا نسأل بعدها عن العطاء، ثم ذلك الوسط الذي يتربى فيه الطفل، معتزًا بإسلامه توّاقًا لنصرته، سيغير الكثير من السلوكيات والتعاملات، ويجعل من تربية الطفل متعة وبهجة.

إنها قصة صناعة مجد في إنسان... في أمة! لنكن أهلًا لها ولا نستهين بثقل الأمانة، فما لم نحققه نحن بتقصير منا ومن أهالينا، لن نسمح به مع أبنائنا وأجيال قادمة ستكون لنا ممتنة إذا أخلصنا.

فاللهم أعز الإسلام والمسلمين بجيل جديد من قادة وفاتحين، يحبون الإسلام حبًا جمًا ويرفعون رايته بعزة وقوة، لا تؤثر فيهم دعوات مرجفة ولا مخذلة، ولا يعيق مسيرهم مكر أو مكيدة، يكررون القسم الشهير:

نحن أبناء أمة واحدة، لا نركع إلا لرب واحد.

✿ ✿ ✿

17

مفاهيمٌ عظيمة لتربية مستقيمة

ولأن تربية الأطفال التربية المستقيمة هي أساس لاستمرار الأجيال عاملة ناصبة، منع الإسلام زواج المسلم من مشركة، ذلك أن الأم هي المدرسة الأولى والمنبع الأول للإسلام، وإن لقنت هذه الأم المفاهيم الخاطئة للطفل، فإن نهايته ستكون خسرانًا وحسرة.

دور الأم هو الأهم

ولا تكاد تذكر عبقرية في الإسلام إلا واقترنت بأم عظيمة من خلفها تعتبر أحد أسباب النجاح والتميز! وهذا للدور الراسخ الذي تؤديه هذه الأم في بناء الأجيال قبل غيرها.

وكلما استذكرت دور الأم وهمتها في تربية فلذات الأكباد، أتذكر هند بنت عتبة ـ رضي الله عنها ـ ومقولتها الشهيرة عن معاوية ابنها ـ رضي الله عنه ـ؛ وهي تحمله وليدًا بين يديها: ثكلته أمه إن لم يسد إلا قومه، وقد صدقت فقد ساد وعلا شأنه وهو يكرر، أنا ابن هند!.

وهذا الزبير بن العوام ــ رضي الله عنهــ أمه صفية بنت عبد المطلب ــ رضي الله عنهاــ صحابية مجاهدة عظيمة الشأن والعطاء. فكان أن رأيناها أنجبت حواري رسول الله ــ صلى الله عليه وسلمــ يتميز بين الأقران!

وهذا علي بن أبي طالب ــ رضي الله عنهــ تربى في حجر أمه فاطمة بنت أسد، واستقام على يد أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ــ رضي الله عنهاــ من نساء العالمين، فأي تربية فاز بها، ليصبح الإمام والخليفة الراشد الذي ملأ صفحات التاريخ بمواقف العلم والحكمة والشجاعة والقوة ــ رضي الله عنهــ.

ومن ينس بنت الصديق، ذات النطاقين، أسماء ــ رضي الله عنهماــ، التي قالت وهي تدفع ابنها عبد الله بن الزبير في قتال الحجاج:

اذهب والله لضربة بالسيف على عز أفضل من ضربة بالسوط على ذل.

وإن أمثلة الأمهات النجيبات اللاتي أخرجن أبطالًا وأعلامًا ليعيى القلم بإحصاء أسمائهن على مر عصور الإسلام، ولكن لنعلم أن السرّ كل السر في إحرازهن هذا السبق هو إدراكهن خطورة الثغر الذي يقمن عليه، وحبهن الخالص للإسلام، ورغبتهن التي لا تباري في نصرته وسموقه.

المدرسة الأولى

وقد علم الإسلام نساء القرن الأول كيف يتمسكن بالصدق في التربية وكيف يقدمن القدوة من أنفسهن؛ لأنه أساس نجاح في مسيرة الطفل وصناعة الأجيال. فعن عبد الله بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال:

أتانا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيتنا وأنا صبي، قال: فذهبت أخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله، تعالَ أُعطك. فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "وما أردت أن تعطيه؟" قالت: تمرًا، فقال:" أما إنك لو لم تفعلي كُتبت عليك كذبة".

علم متكامل ومرجعية كاملة

وكم قلبت في صفحات التربية منذ صدر الإسلام الأول فلم أجد تفريطًا في أي تفصيل مهم يجب أن يدركه المربي، سواء من ناحية التربية الجسدية أو العقلية أو الخلقية. فقد كان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول:" علِّموا أولادكم السباحة، ومُرُوهم يثبوا على الخيل وثبًا"؛ ليعكس أهمية التربية البدنية في هذه العمر.

وفي ذات الوقت جعل الإسلام طلب العلم فريضة لا سنة، وعلى كل مسلم ومسلمة دون أي استثناء. وأما القرآن فقد جمع من الآداب والحِكَم ما يعجز اللسان عن وصفه.

ومن الآيات التي تستحق التدبر قوله تعالى في أوقات الاستئذان التي يجب على الطفل أن يلتزم بها، قبل صلاة الفجر وعند وقت الظهر وبعد صلاة العشاء، ثلاث أوقات يجب أن يعود الأطفال على الاستئذان خلالها وهي بالفعل أهم أوقات في يوم الأزواج تحترم فيه خصوصيتهم.

دون الحديث عن حجم الأحايث والمواقف في سير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الكرام التي تغنينا عن كل مراجع أخرى في علم التربية.

تحذير القرآن

قال الله تعالى:(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**) ـ التحريم:6ـ . وقال تعالى يمدح نبيه إسماعيل عليه السلام:(**وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً**) ـ مريم:55ـ .

وقال تعالى:(**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**) ـ طه: 132ـ. وتكفي هذه الآيات لتعكس لنا عظمة الإسلام في مبادئ التربية التي أساسها الخشية والصبر.

فن الترغيب

كما أتقن السلف الصالح فن ترغيب الأطفال في العلم والمثابرة؛ فقد روى النضر بن شميل قال:" سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: قال لي أبي: يا بنيَّ، اطلب الحديث؛ فكلما سمعت حديثًا وحفظته فلك درهم. فطلبت الحديث على هذا".

وهي وسيلة ناجعة ثبت أنها تجذب اهتمام الطفل بطريقة مبشرة سواء في تحقيق درجات علمية، أو التزام الفرائض والعبادات وتعويدهم عليها، أو اتباع سلوك وأدب، أو تقويم عادات سيئة.

وفي هذا الباب روت عائشة ـرضي الله عنهاـ أنهم كانوا يأخذون الصبيان من الكُتَّاب ليقوموا بهم في رمضان، ويرغبوهم في ذلك عن طريق الأطعمة الشهية.

ملازمة أهل العلم والصلاح

وحتى نضمن حسن تلقي الطفل، علينا أن نحرص على المنطق الذي حرص عليه الأولون من قبل، حين كان الصغار يتعلمون من ملازمة الكبار بأدب جمّ. إذ يُروى أن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ مر على حلقة من قريش فقال:" ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة؟ لا تفعلوا! أوسعوا لهم في المجلس، وأسمعوهم الحديث، وأفهموهم إياه؛ فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم".

وكذلك كان ابن شهاب الزهري ـ رحمه الله ـ يشجع الصغار ويقول:" لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم؛ فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يتبع حدة عقولهم. وقد ثبت ذلك عنه ـ رضي الله عنه ـ لبعد بصيرته. وكان يشرك عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في مجالس الشورى وهو أصغر الصحابة سنًا ـ رضي الله عنهم ـ بل ويبدي اهتمامًا كبيرًا برأيه.

أحد الأسرار

وهنا أحد الأسرار التي أخرجت لنا جيلًا متفردًا بمعنى الكلمة، يتلقى المفاهيم النقية وتظهر آثارها العظيمة عند أول فرصة، كما نقرأ ذلك في تفاصيل قصة عمر بن سلمة حين قال:

كنا بماء ممر الناس وكان يمر بنا الركبان فنسألهم عن النبي؟ فيقولون يزعم أن الله أرسله أوحى إليه بكذا فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري فلما أسلم قومه وأمرهم النبي بالصلاة قال: فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآنًا مني! لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم و أنا ابن ست أو سبع سنين! ـ رواه البخاري ـ .

ومن هنا تظهر لنا بركة الحرص على التلقي منذ الصغر. فلا نعجز في تعليم الطفل منذ أن يرى النور، لأننا سنجني ثمار هذا التعليم يومًا ما.

صلاح الدين وقصة الوقف

ولو نظرنا في سير الأبطال في تاريخ الإسلام سنجد مواقف كثيرة تدعو للابتهاج، ومن سيرة صلاح الدين الأيوبي فاتح بيت المقدس، نتعلم كيف كان الحرص من قبله في توفير سبل إنشاء جيل قوي وسليم البنية... لمن هم ذخر هذه الأمة.

فيـذكر أن صـلاح الـدين أوقـف وقفًـا لإمـداد الأمهـات بـالحليب اللازم لأطفـالهن، وقـد جعـل في أحـد أبـواب قلعـة دمشق ميزابًا يسيل منه الحليب، وميزابًا يسيل منه الماء المذاب بالسكر، فتأتي الأمهات يومين في كل أسبوع فيأخذن لأطفـالهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر. وهـذا يعكس دور الـوالي والـراعي لهـذه الأمـة في تسـهيل المهمـة على الأمهـات والآبـاء والمربيين أيضًا.

خطر المربيات غير المسلمات

بل حـتى التحـذير من خطـر الخـدم المربيـات، وجـدناه في ميراث الأولين، فقد حـذر ابن مسـكويه من إسـناد مهمـة التربيـة للخدم فيرثوا أخلاقهم وأفعالهم، ولو شهد ابن مسـكويه عصـرنا الحالي لهاله الأمر، ومربيـات غـير مسـلمات يتـولين تربيـة أبنـاء المسلمين في حين الأمهات مشـغولات بـاللهث خلـف ملـذات الدنيا وهمومها.

وكم من قصص لطفل سجد للنار عند خادمـة مجوسـية، أو صغير يكرر تراتيل النصـارى عنـد مربيـة فلبينيـة. ثم تتفاجـأ الأم بطفل منحرف لا يعرف عقيدته وتتساءل بما قصرت!

العناية والمحبة

كل شيء نجده في تراث أمتنا، في أسس التربية السليمة، ولم أر أروع من مواقف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المحبة والحرص على سلامة الصغار، وهذا موقف رواه الحاكم من حديث فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتاها يومًا فقال:

أين أبنائي؟ فقالت: ذهب بهما علي. فتوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجدهما يلعبان في مشربة وبين أيديهما فضل من تمر. فقال: أيا علي، ألا تقلب ابنيَّ قبل الحر؟ خشية أن تصيبهم حرارة الشمس بأذى.

وهو الذي كان يحرص على تعويذ الأطفال وحفظهم من أذى الإنس والجن، روى البخاري أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:" وأكفتوا صبيانكم عند العشاء؛ فإن للجن انتشارًا".

الرفق زينة وأسلوب تربية

وسأختم هذا القسم بقصتين:

- الأولى رواها الإمام أحمد عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه خرج إلى طعام كان قد دُعي إليه مع بعض أصحابه، فاستقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذه، فطفق الصبي ها هنا مرة، وها هنا مرة، فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضاحكه حتى أخذه.

وفي هذه القصة من العبر الكثير، يتعلم منها المربي كيف يصبر في تحقيق مراده وكيف يلاطف بمحبة وإن كان تصرف الطفل مزعجًا له، إنها درس كامل في فنون التربية، يستحق التأمل والتطبيق.

- والثانية تجسد روعة الرفق في معاملة الصغير، وهي قصة رواها أنس بن مالك رضي الله عنه حيث قال: كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أحسن الناس خُلُقًا، فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب ـ وفي نفسي أن أذهب لما أمرني نبي الله صلى الله عليه وسلم ـ.

قال: فخرجت حتى أمرَّ على الصبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قابض بقفاي

من ورائي، فنظـرت إليـه وهـو يضـحك فقـال: يـا أنيس، اذهب حيث أمرتـك. قلت: نعم، أنـا ذاهب يـا رسـول اللـه. فالعتـاب الرقيق بمحبة يؤتي أكله في طفل معاند، وهذه من روائع التربيـة على علم.

✿ ✿ ✿

18

مدرسة التغريب المصرية وانتشار دعاوى التغريب

جسَّدت مصر أول محطةٍ تجريبيةٍ للدعاوى التغريبية في العالم الإسلامي، وبُذلت فيها جهودٌ كبيرةٌ لإفساد المجتمع المصري بالذات، بهدف تصدير الفساد منه إلى بقية المجتمع الإسلامي كما تبين لاحقًا مع انتشار التغريب في بلدانٍ أخرى من المنطقة وفق منهج هذه المدرسة.

لقد كان التركيز في منهج المدرسة المصرية عنيفًا والوسائلُ فعالةً ووصفه بعض المفكرين في مصر بالتغريب البطيء ولكنه أكيد المفعول، والدليل على ذلك كيف أصبحت مصرُ بعد ما يزيدُ عن نصف قرنٍ من الزمان إذ نشأ تيارٌ جديدٌ نافرٌ من الإسلام منسلخٌ منه.

والتغريب كالجرثومة التي تنتشر في المجتمعات التي تعاني من الجهل بأصول الدين وأحكامه. جرثومةٌ ترمي إلى صبْغ حياة الأمم بعامةٍ، والمسلمين بخاصة، بالأسلوب الغربي، وذلك

بهدف إلغاء شخصيتهمُ المستقلة وخصائصهمُ المتفردة وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية.

المدرسة المصرية

ومرت المدرسة المصرية التغريبية الأولى ببضع مراحلَ حتى رأت نتاج جهودها التي ترجع إلى تاريخ قيام محمد علي والي مصر الذي تولى الحكم سنة 1805م، حين عمد إلى ابتعاث خريجي الأزهر من أجل التخصص في أوروبا. ثم عادوا بعد ذلك يحملون الأفكار الغربية وينافحون عنها ويروجون لها بتخطيطٍ ودعمٍ من المستشرقين.

واشتد عود دعاوى التغريب في عصر الخديوي إسماعيل الذي كان معجبًا بالحضارة الغربية. واشتدت معه حمى ترجمة الكتب الفكرية الغربية كمثل كتب فولتير وروسو ومونتسكيو وهي أفكار ثورية ضد الدين.

وبالتدريج أصبح نقد الحجاب أمرًا مألوفًا ونزعه عادةً مقبولةً، وأصبح من المناظر المألوفة في القاهرة أولًا، ثم في المدن الأخرى بعد ذلك، أن تخرج الأمهات متحجباتٍ، والبنات سافرات، وكانت الأداة العظمى في عملية التحويل هذه هي التعليم من جهة، والصحافة من جهة أخرى.

من أبرز دعاة التغريب في مصر

وكان لدعاوى هذا التغريب قادةٌ مشهورون في المجتمع المصري، فقد لمع نجم جورجي زيدان أحد مؤسسي دار الهلال من اللبنانيين المسيحيين المارونيين وانتشرت قصصه ورواياته التي تتناول أحداث التاريخ الإسلامي في ثوبٍ فنيٍّ ولكن أسلوبه في تناول هذا التاريخ كان يعتمد على الافتراء والتدليس والكذب.

ومثلُه مثلُ نجيب الريحاني الممثل الفكاهي النصراني الذي توارى خلف الفن لينشر أفكاره الحاقدة على الإسلام. وكذلك برز إحسان عبد القدوس الذي كان يكتب في مجلة (روز اليوسف وأنيس منصور) اللذان سخرا أقلامهما لتزيين الفاحشة وترغيب الناس في الانحلال والاختلاط على الطريقة الغربية.

ولعل أبرز الشخصيات التي عملت على نشر التغريب خلف ستار الإسلام محمد عبده أحد أشهر تلاميذ جمال الدين الأفغاني، وشريكه في إنشاء مجلة العروة الوثقى، وكانت له صداقةٌ مع اللورد كرومر والمستر بلنت، إذ سخَّر جهوده عبر المدارس التي كان يعمل فيها إلى مهاجمة التقاليد الإسلامية وكل ما يتعلق بالتراث الإسلامي لهذه الأمة.

وكـان من بين فريـق المبتعـثين قاسـم أمين الأديب اللامـع الذي قبل سفره إلى فرنسا غلى دمه في عرقه عنـد قراءتـه رسـالةً لمستشرقٍ يتهم الإسلام باحتقار المرأة وعدم الاعـتراف بكيانهـا الإنسـاني ـ كمـا يصـف في مذكراتـه ـ فقـرر أن يـرد على هـذا المستشرق ويفند افتراءاته على الإسـلام. ولكنـه بعـد عودتـه من فرنسـا عـاد بوجـهٍ غـير الـذي ذهب بـه وأصـبح هـو من يهـاجم الحجاب فأخرج كتاب تحرير المرأة في 1899 والمرأة الجديدة في 1900م.

وجسّد اسم طه حسـين أحـد أبـرز الشخصـيات الـتي كـانت تدعو للتغريب في العالم الإسلامي وهـو تلميـذ المستشـرق دور كـايم وظهـرت أفكـاره المنحرفـة في كتابـه الشـعر الجـاهلي ومستقبل الثقافة في مصر.

نقاطٌ مشتركةٌ بين دعاة التغريب

والتقى طه حسين وغيره من دعاة التغريب في تلك الحقبـة على تشـجيع فكـرة إيجـاد فكـرٍ إسـلاميٍّ متطـورٍ يـبرر الأنمـاط الغربية ومحو الطـابع المميز للشخصـية الإسـلامية بغيـة إيجـاد علائـقَ مسـتقرةٍ بين الغـرب وبين العـالم الإسـلامي خدمـةً لمصالحه.

وفي الواقـــع فـــإن كلًا من الاســـتعمار، والاستشـــراق، والشيوعية، والماسونية وفروعها، والصهيونية، ودعاة التوفيق بين الأديان قد تآزروا جميعًا في دعم حركة التغريب وتأييدها بهدف تطويق العالم الإسلامي وتطويعه ليكون أداةً لينةً بأيديهم.

المؤتمرات العالمية لدعم التغريب

ورافق هذا النشاط الدؤوب على هدم مقومات الدين وخلق فكرٍ غربيٍّ جديدٍ تتقبله المجتمعات المسلمة عقدُ عددٍ من المؤتمرات التغريبية العالمية كان من بينهما مؤتمر بلتيمور عام 1942م وهو يدعو إلى دراسة وابتعاث الحركات السرية في الإسلام. ومؤتمر القاهرة في سبتمبر 1994م وهو مؤتمر السكان والتنمية بهدف نشر أفكار التحلل الجنسي "الغربية" بين المسلمين.

التغريب في السعودية

وبذات النهج الذي عملت عليه المدرسة المصرية في التغريب انتشرت دعاوى التغريب في بلادٍ إسلاميةٍ أخرى وكان أبرز هذه البلاد، بلاد الحرمين، التي استبدلت هيئة الترفيه بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وارتفعت مع نشاطها دعاوى تسفيه الحجاب ومهاجمة النقاب ثم المناداة بالاختلاط

بين الجنسين في المحافل العامة والخاصة، والاعتراض على قوامة الرجل على المرأة، وقد لعب الإعلام دورًا كبيرًا جدًا في الترويج لهذه الأفكار الغربية.

من جانبه تناول كتاب "حركة التغريب في السعودية.. تغريب المرأة نموذجًا" وهي رسالة جامعية نشرها المركز العربي للدراسات الإنسانية بمصر، رموز التيار التغريبي في السعودية وذكر من بين العشرات من الأسماء الأمير الوليد بن طلال، وتركي الحمد، وعبد الرحمن الراشد، ولبنى العليان، وثريا العريض.

وساعد هؤلاء في نشر التغريب، العملُ في الصحافة والإعلام وفي مناصب رفيعة المستوى. وخلص الكاتب في هذه الدراسة إلى أن حركة التغريب في السعودية تسعى إلى تحقيق أربعة أهداف: خلع الحجاب، والاختلاط، ورفع قوامة الرجل عن المرأة، وعمل المرأة في الحقول كافةً.

ولعل أهم ما خلص له الكاتب في بحثه، هو الدور المحوري الذي لعبته الولايات المتحدة الأمريكية في دفع الحركة التغريبية بالسعودية والتي ظهرت بصفةٍ واضحةٍ بعد احتلال القوات الأمريكية للعراق في عام 2003.

ومـع إعلان التغـريب منهجًـا في بلاد الحـرمين، أصـبح الترويج لجذب المرأة السعودية لتصبح ممثلةً ومغنيـةً وعارضـة أزياءٍ كدلالةٍ للتحضر والرقي بحسب المفهوم الغربي وهـو أكـثر ما يعمل على نشره الإعلام السعودي. وهـو الإعلام الـذي شـهد مبالغـةً في الطـرح لهـذه القضـايا وتناولهـا بشـيء من التسـفيه والتهميش لكل ما يتعلق بأحكام الإسلام وعقيدته.

دعاوى التغريب المناقِضة للحريات

ومن المفارقـات الـتي لا تجـد لهـا تفسـيرًا في التغيـيرات السياسية والاجتماعية التي شهدتها السعودية مؤخرًا هـو أنـه في الوقت الذي تنادي فيه أبواق التغريب إلى تحرير المـرأة بمفهـوم غـربي، يجـري أسـر وكتم أنفـاس كـل سياسـيٍّ أو داعيـةٍ في السجون.

وتجري عملية قمعٍ فكـريٍّ ممنهجٍ تطـال حـتى الـذين كـانوا في السابق رموزًا للنظام السعودي أو التزموا الحياد ولم يتدخلوا في صراع الأفكـار. أمـرٌ يجعـل من دعـاوى المطالبـة بالحريـات والحقـوق مجـرد ذرٍّ للرمـاد على العيـون إذ أن الحريـات الـتي يدعو لها التغـريب تمشـي بـالموازاة مـع القمـع والعـدوان بحـق أهل العلم والفضيلة.

أسبابٌ مهمةٌ أنعشت التغريب

ولكن بعض الكتاب يرون وراء حركة التغريب عمومًا أسبابًا أخـرى هامـةً هي الـتي سـاعدت على انتعاشـها في العـالم الإسلامي، على رأسها هيمنة النظام العالمي الـذي تحـاول دولـه فرض رؤيتهـا ومعتقـداتها على المجتمعـات المسـلمة بتوظيـف وسـائلَ مـؤثرةٍ جـدًا في النسـيج المجتمعي كـالإعلام والتعليم والسياسة والتي تتفـق جميعهـا على تجـريم الأحكـام الإسـلامية ووضعها في قفص الاتهام.

فشل التغريب واعترافات بعض ضحاياه

ومـع أن أُوار التغـريب اشـتد وانتشـر في جميـع البلـدان الإسـلامية، إلا أنـه لم ينجح في جـرف الكثـير من الفتيـات المسلمات اللاتي تمسكن بالحجاب وأحكام دينهن ولو كلفهن ذلك الدخول للسجون والمعتقلات.

وسـاعد في ذلـك اعـتراف العديـد من ضـحايا التغـريب بحقيقة أن هذه الدعاوى لم تكن إلا أداةً لبيع المرأة، فقـد قـالت الكاتبـة أروى صـالح، في كتابهـا المبتسـرون وهي واحـدةٌ من ضـحايا التغـريب الـذين كـانوا ينـادون بـه من قبـل: "لقـد أسـفر

الحب الحر عن حبٍّ مجانيٍّ بل رخيصٍ في الواقع". كنتيجةٍ للتغريب.

وإن كانت هذه النهايات المنطقية هي ما وصلت له الكثير ممن اغتررن بدعاوى التغريب فإن آلة التغريب لا تزال تعمل على قدمٍ وساق.

تطور الدعاوى التغريبية في ظل استمرار الضعف الداخلي

والسبب الأول في هذا النشاط يرجع لقلة العلماء الربانيين ووسائل وصولهم لجماهير الأمة وكثرة الدعاة المصطنعين والمأجورين.

ثم الجهل بأصول الدين وانتشار الأفكار المتعلقة بقضية المرأة في الأزمنة المتأخرة بالاعتماد على موازينَ بعيدةٍ عن الكتاب والسنة. وإن كانت بثوبٍ إسلاميٍّ يعتمد أساسًا على تصوير الباطل بصورة حق.

والمتابع لخط سير التغريب، يجد أن الفكر الغربي مع المرأة قد انطلق في البداية بأمورٍ يسيرةٍ تتعلق بقضايا الأموال والمواريث والعمل، فأرجع ذلك كله إلى مسألة العقل، ثم لم يمضِ قرنٌ من الزمان وتحت ذات التأصيل اجتمع التغريبيون

وأقروا مسألة ما يُسمى بالشذوذ الجنسي و زواج الرجل بالرجل وأبعد من ذلك مما ينتهك كرامة الإنسان، فحطموا كل العلاقات الأسرية وتحولت لبهيميةٍ منحطةٍ بعد أن تبدلت الفطرة لديهم ومُسِخت.

وبعد فساد الفطرة أصبح من المستحيل استيعاب الشريعة وأحكامها. ومن يُباح في مجتمعه الزنا لن يفقه الحكمة من الحجاب ومنع الاختلاط بل أصبح الحديث عن الإلحاد حريةً تكفلها الدعاوى التغريبية.

وفي الواقع فإن الغرب في زماننا لا يصادم الإسلام، لأن الإسلام بعيدٌ عنه إنما يصادم الفطرة أصلًا التي مُسِخت عنده وفَسدت.

مستقبل التغريب في العالم الإسلامي

يبدو واضحًا النتائج التي وصلت إليها دعاوى التغريب في العالم الإسلامي، ومع أنها نتائجُ مرضيةٌ لدعاتها، إلا أن أمامهم تبقى عقبةٌ كؤودٌ، وهي صلابة الدين الإسلامي وسَعَة أحكامه. ثم عقبة العلماء العاملين الذين يعملون على فضح وسائلهم وكشف طرقهمُ المتأسلمة، وظيفتهم بيان الحق ورد الشبهات.

مـع أن أمـام هـؤلاء العلمـاء تحـديًا آخـرَ وهـو وصـولهم للجماهير وتمكنهم من الإمساك بدفة القيادة، وهـذا ما يجعـل المسؤولية على عاتق الجماهير نفسـها، الـتي عليها بـدورها أن تبحث عن هـؤلاء العلمـاء وتقـوي منـابرهم وترفـع أصـواتهم وتُسـقط في ذات الـوقت رمـوز التغـريب الـذين يلمعهم الإعلام الوظيفي الأجير.

✿✿✿

19

أبجديات النقد: سيد قطب مثالًا

تعاني الساحة الفكرية في عصرنا اليوم من فوضى الأحكام، تلك الأحكام التي نلقي بها كحد المقصلة على كل شخص أخطأ يومًا أو عُرفت له كبوة. وما يزيد من الأزمة عمقًا، أن الكثير من الخير قد تحجبه تلك الغيوم من العقلية المتحجرة التي لا تقبل أن تنصف النفس البشرية، لا ترى إلا السواد وتكتفي به، وإن كانت زاوية ما من سجِلِ ذاك المنتقَد تشع نورًا وحكمة.

وكأنها لم تقرأ يومًا ﴿**وَلَا يجرمنكم شنئآن قوم على أَلا تعدلوا اعدلوا هُوَ أقرب للتقوى**﴾.

وما يجعل هذا الطرح أكثر إلحاحًا أن تنال هذه الظاهرة من أهل العلم ودعاته، فتتصدع قواعد الجرح والتعديل، وينسف العدل في لُجّةِ الغلو في الأحكام والتمادي في التهميش.

ولا شك أن سيد قطب، كعلم من أعلام هذه الأمة، قد نالـه مـا نالـه من هـذه الظـاهرة الـتي استعانت بهـا الحزبيـة المقيتـة والتبعية المشينة في الإقصـاء الإجبـاري، كوسـيلة جبانـة تتهـرب بها من مواجهة الحق الذي معه.

ورغم أن أثـر الرجـل لا يمكن أن يهمش أو يسـتهان بـه، وتكفي شـهادات كبـار أهـل العلم والقامـات السـامقة من أعلام الأمة فيه، إلا أن بعض العقليات ترفض أن تنصف الرجل الـذي قضـى نحبـه مجنـدلًا بحبـال الطـاغوت لأجـل كلمـة (لا إلـه إلا اللــه) كمــا نحســبه. وتــوارثت مواقــفَ عطائــه وثباتــه الأجيــال، مصــرةً ـ للأســفـ على قــبر كــل خــير تركــه خلفه، وحرمانه حقه في الإعذار.

أبجديات النقد

وهنا سنضع بعض النقاط التي يجب على كل عاقل بـاحث عن الحقائق الارتكاز عليهـا كي يخـرج ببنـاء سـليم لا يظلم فيـه أحدًا، ويستخرج الخـير من مكمنـه، ويحايـد الباطـل مهمـا كـان متشبثًا؛ لننعم بتقييم عدل حين نتعامل مع نفوس بشـرية مؤمنـة برزت في ساحات الجد والعمل.

وأولها النظر في بحر ميزان الحسنات والسيئات، في أقوال الرجل وأحواله، ثم القياس بإنصاف أيهما أغلب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى:

> إذا اجتمع في الرجل: خير وشر، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة، استحق من الموالاة بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة بحسب ما فيه من الشر: كاللص الفقير تُقطع يده لسرقته، ويُعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته.

وقبل الحكم على قول له أو فعل صدر منه لابد من النظر أولًا بنفس متجردة من كل استباقية في الأحكام، أو هوى، أو تحامل، وأن يشيح المنصف بنظره عن كل سوابق في الحكم قد يبني عليها من جديد ذات النتائج، وكيف لا تكون الأحكام مجحفة وقد تأثرت بنفس الخلفية السوداء؟! بل لابد أن نعيد البناء على أرض سليمة صلبة جديدة.

ثم النظر في سيرة الرجل كاملة، هل تراجع عما يُعاب عليه، هل تاب منه، هل اعترف بتقصيره في هذا الأمر، ثم التوبة تجب الذنب. ولا يمكن أن نحاسب تائبًا على خطأ رجع عنه وننسف كل خير بناه بعده، فهذا ليس من العدل، ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾. ويدخل في هذا، النظر في تطور فكره ومراحل تحصيل معرفته، فالإنسان لا

يولد عالمًا، وإنما العلم بالتعلم، وغالبًا ما تكون البدايات مضطربة، ولكن الخطوات تتزن أكثر مع التقدم في العمر والخبرة وسعة الاطلاع. ولهذا نجد الكثير من أعلام الأمة قد تصيب الركاكة ـ بل وحتى الضلال ـ بعض مؤلفاتهم الأولى، لكن ما تلبث أن تبهرنا خواتيم أعمالهم بمتانة في الطرح واتزان لا يختلف في الإعجاب به عاقلان.

كما يدخل فيه الظروف التي مر بها الرجل، هل كان في سجن أو تحت تهديد؟ هل مر بظرف قاسٍ أثر في نفسيته؟ هل انتمى لحزب شوش عليه؟ فقد خُلق الإنسان ضعيفًا، ومن الظلم أن نحكم دون أن نتبين الظروف التي أدت إلى النتائج المحكوم عليها.

كذلك ألا يكون الحكم لحظيًا متوقفًا على اقتباس مبتور أو تعبير قاصر قد خانت صاحبه قريحته أو معرفته في إجادة سبكه، بل ينظر إلى مجمل اعتقاده والمواطن التي تدفع عنه المتشابهات واللبس ومواقف الضبابية.

ولا يحكم عليه بالاعتماد على أقوال أعداء الإسلام فيه أو خصومه، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما "لا تقبل شهادة ظنين ولا خصم"، ولينظر بدلًا من ذلك في آراء أهل العلم فيه ممن اشتهروا بالعدالة والعلم.

ولـو طبقنـا هـذه القواعـد في الحكم على الكثـير من أعلام هذه الأمة سنجد الإنصاف أظل أغلب أحكامنا والعدالة وسـعت الكثير من إخواننا، ولا شك أن سيد قطب كان أحد الذين ظُلموا بشدة بسبب التقصير في الأخـذ بأبجـديات النقـد؛ لأسباب لم تعد خافية على متابع باحث.

انتقاد لا هدم

لا عصمة في الإسلام إلا لنبي، ولا يمكن أن نرفض نقدًا إن كان مبنيًا على حسن نية وقصد وحجة ودليـل، لكن حين يكـون النقد لمجرد الهدم والإقصاء التام وكفـران الخـير الـذي يحملـه أحدهم، فهـذا يـدفع لطـرح التسـاؤلات، وهـو تمامًـا مـا يـدفعنا لطرحهـا حين نشـاهد كيـف يُنتقـد سـيد قطب، وتثـار زوابـع البغض والتغريب اتجاهه.

ولو نظرنا بتجرد لوجدنا أغلب من انتقد سيد قطب هم من خدم طواغيت الحكم المعاصرين، والمطبلين للأنظمـة الفاسـدة وقادتهـا المسـتبدين، ثم المـروجين لتيـارات التغـريب وأتبـاع الغرب المهووسين ومن تأثر بـدعاويهم بجهـل أو غفلـة، الـذين يضيقون ذرعًا بكل كتابات تحض على تحكيم الشـريعة أو على الجهـاد، أو تمجـد خـط الثبـات على الـدين، والعـودة للأصـالة والقرآن الكريم. وعلى رأسهم الجامية.

ثم إن خوفهم من أمثال قطب واضح، فهو لم يخنع لولي أمر ظالم؛ فأصبح بثباته رمز الحركات التحررية والثورية بعد موته بأجيال، ولهذا كان لا بد لأعداء الحرية من تبشيع صفحات هذه القدوة التي أشعت في فضاء الأقلام الذهبية حين كتبت عن عزة الإنسان وكرامته واستعلائه بإيمانه وحريته وإبائه.

لماذا كل هذا العداء لسيد قطب؟

وهذا ما أجاب عنه الشيخ العلامة حمود بن عقلاء الشعيبي رحمه الله في وصف بليغ، حيث قال:

> فإن المفكر الأديب سيد قطب رحمه الله له أعداء كثيرون، يختلفون في كيفية النقد وأهدافه والغايات منه، ويتفقون في مصالح مشتركة، وقبل أن أكشف بطلان مثالب الجراحين والمطاعن الموجهة إلى سيد رحمه الله، أبين أولًا لماذا يُستهدف سيد قطب خاصة؟ ومن المستفيد من إسقاطه؟ إن سيداً رحمه الله يعد في عصره علمًا من أعلام أصحاب منهج مقارعة الظالمين والكفر بهم، ومن أفذاذ الدعاة إلى تعبيد الناس لربهم والدعوة إلى توحيد التحاكم إلى الله، فلم يقض إلا مضاجع أعداء الله

ورسوله كجمال عبد الناصر وأمثاله .. وما فرح أحد بقتله كما فرح أولئك، ولقد ضاق أولئك الأذناب بهذا البطل ذرعًا. فلما ظنوا أنهم قد قتلوه، إذا بدمه يحيي منهجه ويشعل كلماته حماسًا؛ فزاد قبوله بين المسلمين وزاد انتشار كتبه، لأنه دلل بصدقه وإقدامه على قوة منهجه، فسعوا إلى إعادة الطعن فيه رغبة منهم لقتل منهجه أيضًا، وأنّى لهم ذلك؟

فاستهداف سيد قطب رحمه الله لم يكن استهدافًا مجردًا لشخصه، فهو ليس الوحيد من العلماء الذي وجدت له العثرات، فعنده أخطاء لا ننكرها، ولكن الطعن فيه ليس لإسقاطه هو بذاته. فقد قدم إلى ربه ونسأل الله له الشهادة، ولكن الذي لا زال يقلق أعداءه وأتباعهم هو منهجه الذي يخشون أن ينتشر بين أبناء المسلمين.

وإني إذ أسمع الطعن في سيد قطب رحمه الله لا أستغرب ذلك لقوله الله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا﴾، فكل من معه نور من النبوة أيضًا له أعداء من أهل الباطل بقدر ما معه من ميراث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فما يضير سيدًا طعن الطاعنين، بل هو رفعة له

وزيادة في حسناته. ولكن الذي يثير الاستغراب هو فعل أولئك القوم الذين يدّعون اتباع الحق، ومع ذلك ينقصون الميزان ولا يزنون بالقسطاس المستقيم؟

والله يقول: ﴿ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ فأولئك إذا أرادوا مدح أحد، عليه من المآخذ ما يفوق سيداً بأضعاف، قالوا كلمتهم المشهورة: "تغمس أخطاؤه في بحر حسناته" وقالوا: "إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث"، وغير ذلك، وإذا أرادوا ذم آخر كسيد رحمه الله الذي يعد مجددًا في باب (إن الحكم إلا لله) سلكوا معه طريق الخوارج وكفروه بالمعاصي والزلات. وسيد رحمه الله لا ندعي له العصمة من الخطأ، بل نقول إن له أخطاء ليس هذا مجال تفصيلها، ولكنها لا تخل بأصل دعوته ومنهجه، كما أن عند غيره من الأخطاء التي لم تقدح في منزلتهم. وعلى سبيل المثال ابن حجر، والنووي، وابن الجوزي، وابن حزم، فهؤلاء لهم أخطاء في العقيدة، إلا أن أخطاءهم لم تجعل أحدًا من أبناء الأمة ولا أعلامها يمتنع من الاستفادة منهم أو يهضمهم حقهم وينكر فضائلهم، فهم أئمة إلا فيما أخطؤوا فيه.

وهـذه الحـال مـع سـيد رحمـه اللـه، فأخطـاؤه لم تقدح في أصل منهجه ودعوته لتوحيد الحاكميـة وتعبيـد النـاس لـربهم، والقاعـدة الـتي يجب أن تُقـرر في مثـل هـذه الحـالات هي مـا يسـتفاد من قول الله تعالى: ﴿يسـألونك عن الخمـر والميسـر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهمـا﴾ فكـل من حقـق مـا يجب تحقيقـه من أصل الدين، ينظر بعد ذلك في سائر منهجه، فـإن كـان خطـأه أكـثر من صـوابه، وشـره يغلب على نفعـه، فإنـه يهمـل قولـه وتطـوى كتبـه ولا تـروى، وعلى ذلك فالقول الفصل في سيد رحمه اللـه أن أخطـاءه مغمـورة في جـانب فضـائله ودفاعـه عن (لا إله إلا الله)، لا سيما أنه حقق أصول المعتقـد الصـحيح، وإن كـانت عليـه بعض المآخـذ وعبـارات أطلقهـا لا نوافقـه عليهـا رحمـه اللـه. وختامًا، لا يسعني إلا أن أذكر أنني أحسـب سـيداً ـ واللـه حسـيبه ـ يشـمله قولـه عليـه الصـلاة والسلام: "سيد الشهداء حمـزة، ورجـل قـام عنـد سـلطان جـائر فـأمره ونهـاه فقتلـه". فنحسـب أن سيداً رحمه الله قد حقق ذلك الشـرط حيث قـال كلمة حق عند سلطان جائر فقتله .. وأنقـل كلمـة لـه رحمـه اللـه قبـل إعدامـه بقليـل عنـدما أعجب أحـد الضـباط بفـرح سـيد قطب وسـعادته عنـد

سماعه نبأ الحكم عليه بالإعدام "الشهادة"، وتعجب لأنه لم يحزن ويكتئب ويحبط فسأله قائلًا: "أنت تعتقد أنك ستكون شهيدًا! فما معنى شهيد عندك؟" أجاب رحمه الله قائلًا: "الشهيد هو الذي يقدم شهادة من روحه ودمه أن دين الله أغلى عنده من حياته، ولذلك يبذل روحه وحياته فداء لدين الله". وله رحمه الله من المواقف والأقوال التي لا يشك عارف بالحق أنها صادرة عن قلب قد مُليء بحب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، وحب التضحية لدينه، نسأل الله أن يرحمنا ويعفو عنا وإياه. اهـ.

وعلينا أن نذكر بأن سيد قطب انطلق أديبًا ناقدًا قبل أن يكون عالمًا في الشريعة والفقه! ولكن غيرته على الإسلام وانبرائه للدفاع عنه وعن ثوابته وقيمه، دفعته لأن يخط الكثير من العلم في صفحات مسيرته، وقد يخونه التعبير كأديب بعبارات لا تمتاز بدقة الفقه والتشريع، ومع ذلك بلغ تأثيره في الأجيال المسلمة ما لم يبلغه الكثير من العلماء والفقهاء، ذلك أنه دفع حياته ثمنًا لما آمن به من حق.

تراجعات لم تؤخذ بالحسبان

من جهة أخرى، فإن ما يصرّ خصوم سيد قطب على نكرانه في سيرة الرجل أنه تراجع عن أبرز ما يعيبونه فيه، وخاصة ما كتبه أثناء بدايته الأدبية، وقد نسخ ما كتبه في خواتيمه ما سبق، ومن يبحث في ثنايا تاريخ الرجل سيجده غيّر الكثير من مواقفه، فقد تقلب سيد قطب بين حزبي الوفد والسعديين، وناصر العقاد ثم انقلب عليه، واعترف بحجم من الأخطاء صدرت عنه في تلك المرحلة، متبرأً منها بوصفه إيها مرحلة الضياع. وجل من لا يخطئ!

وقد أكد هذا الأمر ـ بعد الجدل الذي أثير بسبب بعض كتابات سيد ـ أخوه الصغير الأستاذ محمد قطب رحمه الله، إذ ورد ذلك في رسالة أرسلها إلى عبد الرحمن الهرفي يقر فيها بأن سيدًا تراجع عن كل ما كتب، سوى الظلال والمعالم، وعدد يسير من المؤلفات الإسلامية.

الإنصاف حلة الأشراف

وأرى من الإنصاف أن ينظر الناقد لمؤلفات سيد قطب الأخيرة التي خرجت في وقت محنته وأثناء سجنه، والتي ختم

بها حياته، فهي بحق مؤلفات تنسخ ما قبلها وتعكس درجة النضوج التي وصل إليها فكر مثابر.

ثم من ينكر تلك الملكة وذاك التميز والذوق الرفيع الذي تفرد به سيد قطب في كتاباته؟ ومن ينكر بركات ثباته وصموده أمام أسواط الجلاد وتهديداته؟ وكفى به شرفًا أن يصل صيته لأجيال ممتدة وهي ممتنة لتضحيته وفدائه.

فمن قرأ لكلمات سيد قطب عن الإسلام لن يقف إلا باحترام وتقدير عند كل حرف حين يعلم أن صاحبه قد شنق لأجل كلماته التي نسجتها حروفه المنافحة عن الدين الحق.

والقاعدة السليمة أن نأخذ الخير الذي في ميراث الرجل، ونتجنب الأخطاء التي وقع فيها. ولو جمعنا جميع أخطاء سيد قطب التي وقع فيها في مؤلفاته لوجدناها لا تتعدى صفحات معدودة، ولكن الخير الذي حملته بالمقارنة لا يعد ولا يحصى.

أقوال أهل العلم في سيد قطب

ولا أعتقد أن عالمًا من العلماء أو كاتبًا من الكتاب لم يقع في أخطاء، فهذا الأمر لا يكمل إلا لنبي، وما نحن إلا بشر نخطئ ونصيب، ومن جادل في هذا الوصف فإن كبار العلماء قد قدموا الجواب الفصل في الحكم على سيد قطب.

ومن العلماء الذين أنصفوا سيد قطب، كان الشيخ الألباني والذي استشهد بكلام لسيد في كتابه "مختصر العلو"، ووصفه بـ"الأستاذ الكبير سيد قطب"، وله فتاوى منصفة بحق سيد أثنى فيها على الخير الذي فيه ونبّه على سقطاته وكبواته. وهو نفسه الألباني الذي قال في سيد:

> نعم، يرد على سيد قطب بهدوء وليس بحماس، هذا لا يعني أن نعاديه وأن ننسى أن له شيئًا من الحسنات، يكفي أنه رجل مسلم وكاتب إسلامي وأنه قُتل في سبيل دعوته للإسلام، والذين قتلوه هم أعداء الإسلام، وقد قال ابن رجب رحمه الله ـ وهو من علماء الحنابلة من تلاميذ ابن القيم ـ، قال في كتابه القواعد الفقهية: (يأبى الله العصمة لكتاب غير كتابه، والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه).

أما الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ فقال فيه:

> كتب سيد قطب والمودودي والندوي مفيدة، فيها خير كثير ولا تخلو من بعض الأغلاط، قد اجتهدوا في الخير ودعوا إلى الخير وصبروا على المشقة.

ولعل أبرز ما يجذب الاهتمام تلك الكلمات الرائعة التي خطها الشيخ العلامة بكر أبو زيد ـ رحمه الله ـ في سيد قطب، والتي انتقد فيها ربيع المدخلي واتباعه وهجومهم على سيد، ومنها:

> ..وأعتذر من تأخر الجواب، لأنني من ليس لي عناية بقراءة كتب هذا الرجل، وإن تداولها الناس !! لكن هول ما ذكرتم دفعني إلى قراءات متعددة في عامة كتبه، فوجدت في كتبه خيرًا كثيرًا وإيمانًا مشرقًا، وحقًا أبلج، وتشريحًا فاضحًا لمخططات العداء للإسلام! على عثرات في سياقاته، واسترسال بعباراته! ليته لم يفهِ بها! وكثير منها ينقضها قوله الحق في مكان آخر! والكمال عزيز! والرجل كان أديبًا نقّادًا، ثم اتجه إلى خدمة الإسلام من خلال القرآن العظيم، والسنة المشرفة، وسخر قلمه ووقته ودمه في سبيلها، فشرق بها طغاة عصره! وأصر على موقفه في سبيل الله تعالى، وكشف عن سالفته ... وطُلب منه أن يسطر بقلمه كلمات اعتذار! وقال كلمته الإيمانية المشهورة: "إن أصبعًا أرفعه للشهادة، لن أكتب كلمة تضارها" أو كلمة نحو ذلك.

> فالواجب على الجميع الدعاء له بالمغفرة، والاستفادة من علمه، وبيان ما تحققنا خطأه فيه، وإن خطأه لا يوجب حرماننا من علمه، ولا هجر كتبه! واعتبر ـ رعاك الله ـ بحال أسلاف مضوا، أمثال أبي إسماعيل الهروى والجيلاني، كيف دافع عنهما شيخ الإسلام ابن تيميه ـ رحمه الله تعالى ـ رغم ما لديها من الطوام! لأن الأصل في مسلكهما نصرة الإسلام والسنة .. وانظر "منازل السائرين" للهروي ـ رحمه الله تعالى ـ، ترَ عجائب لا يمكن قبولها! ومع ذلك فابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ يعتذر عنه أشد الاعتذار، ولا يجرمه فيها، وذلك في شرحه "مدارج السالكين"! وقد بسطت في كتاب "تصنيف الناس بين الظن واليقين" ما تيسر لي من قواعد ضابطة في ذلك.

وهذا التقييم صدر عن علامة شيخ له وزنه في الساحة العلمية، لا يرده مجادل، ويشهد على صدق حكمه تأثر رجالات الميادين الجهادية بسيد قطب، على رأسهم إمامهم الدكتور الشيخ عبد الله عزام رحمه الله الذي كان يصف سيد بـ"عملاق الفكر الإسلامي"، وقال عنه:

> والحق أنني ما تأثرت بكاتب كتب في الفكر الإسلامي أكثر مما تأثرت بسيد قطب وإني

لأشعر بفضل الله العظيم عليّ أن شرح صدري وفتح قلبي لدراسة كتب سيد قطب، فقد وجهني سيد قطب فكريًا، وابن تيمية عقديًا، وابن القيم روحيًا، والنووي فقهيًا. فهؤلاء أكثر أربعة أثروا في حياتي أثرًا عميقًا. لقد كان لاستشهاد سيد قطب أثر في إيقاظ العالم الإسلامي أكثر من حياته؛ ففي السنة التي استشهد فيها، يُطبع الظلال سبع طبعات، بينما لم تتم الطبعة الثانية أثناء حياته.

كانت هذه شهادات علماء أفذاذ ممن قرأوا لسيد وأنصفوه، وتنضم لها شهادة عالم جليل آخر لها وزنها وثقلها بلا شك، لأن قائلها هو عالم الهند الشهير الأستاذ أبو الحسن الندوي مؤلف الكتاب النافع: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، حيث قال عندما سمع خبر إعدام سيد قطب:

إن هذه الشهادة ليست شهادة الأفراد، وإنها ليست هدرًا للدماء وعبثًا بالحقوق البشرية والكرامة الإنسانية فحسب، وإنها ليست همجية وعداء سافرًا للإسلام فحسب، بل إنها خسارة فادحة للدعوة الإسلامية والعلم والأدب، والدراسة والبحث والأدب والنقد، ومأساة علمية ضخمة، إن سيد قطب من أولئك الأفذاذ الذين يسعد بهم العالم الإسلامي، وهو في الطراز الأول

من صفوة الدعاة ورجال الفكر والأدب الذين تحظى بهم الأمم بعد فترات طويلة.

لن يسعني أن أنقل كل آراء الشيوخ وأعلام الأمة في سيد قطب، والتي أستشهد بها هنا لأن لها بكل تأكيد وزنها وقيمتها حين تصدر من أمثالهم وتمثل شبه إجماع لإنصاف الرجل المجتهد الراحل، ولكنني سأختم شهادات أهل العلم فيه، بقول الشيخ عبد الله بن جبرين، الذي قال:

> هناك قوم اشتغلوا ببعض الأموات، مثل: سيد قطب، وحسن البنا. الواجب أنهم يُلخّصون أخطاءهم ويُحذِّرون منها، وأما حسناتهم فلا يدفنوها، ولا يَقدح فيهم لأجل تلك الأخطاء أو تلك الزلات، لأن لهم حسنات.. إذا كانوا يذكرون السيئات وينسون الحسنات؛ صدق عليهم قول الشاعر:

ينسى من المعروف طودًا شامخًا

وليس ينسى ذرة ممن أساء

ووددت لو سمح لي المقام أن أدرج بعض الاقتباسات التي تشع حقًا ونجابة وروعة من كتابات سيد قطب رحمه الله، لأنها الشاهد الأول والأخير على صدق الرجل وسعة علمه وقوة بصيرته، ولكنني أدعو كل من حُرِم خير هذه القامة السامقة

والروح الملهمة أن يتطلع لكتاباته ويتعمق في معانيها ليدرك أي خير فرط فيه قبل أن يستمع للطاعنين فيه بلا رحمة.

ختامًا

وإلى أن نترفع عن أسلوب تصيد الزلات ونتقن أسلوب إقالة العثرات مع من بذل جهده في نصرة الإسلام كما نحسبه، ثم شهد له العلماء والأعلام، فإننا نتعزّى بقول الإمام الشافعي:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

أو قول علي بن الجهم:

وَمَن ذا الَّذي تُرضى سَجاياهُ كُلُّها
كَفى المَرءَ نُبلاً أَن تُعَدَّ مَعايِبُهْ

ثم مسك الختام ما كتبه الشيخ الدكتور عبد الله عزام عن سيد قطب حين خط:

لقد مضى سيد قطب إلى ربه رافع الرأس، ناصع الجبين، عالي الهامة، وترك التراث الضخم من الفكر الإسلامي الذي تحيا به الأجيال، بعد أن وضح معانٍ غابت عن الأذهان طويلًا،

وضح معاني ومصطلحات: الطاغوت، الجاهلية، الحاكمية، العبودية، الألوهية، ووضح بوقفته المشرفة معاني البراء والولاء، والتوحيد والتوكل على الله، والخشية منه والإلتجاء إليه.

فرحم الله سيد قطب، ورحم علماء الأمة الأفذاذ وأولئك المنصفين الأحرار.

✿✿✿

20

كيف رفض المفكرون الغربيون الديمقراطية

تهيمن الديمقراطية اليوم على مشهد المطالب الشعبية، فقد لهجت بذكرها الألسن، ونادت بها الأنظمة والحكومات، وقامت لأجل تحقيقها الثورات، وسعت في الدعوة إليها وتزيينها الأقلام والصحف، وسُخرِت لتلميعها برامج الإذاعات والقنوات الفضائية. ولكن، هل حقيقة الديمقراطية تستحق كل هذا الثناء والتبجيل؟!

هل فعلًا تمثل الديمقراطية النظام الأمثل الذي يحقق الحرية والمساواة والعدالة كما ينادي بذلك دعاة الديمقراطية الغربيون الذين جاءوا بها وسعوا لنشرها في العالم ويردد من خلفهم المسلمون المعجبون بها؟

ثم هل مطالبة الغرب بنشرها جاء لمصلحته أم لمصلحة كل العالم؟ وهل فعلًا هي مطلب الغرب جميعًا؟

هذه الأسئلة وأسئلة كثيرة أخرى تفرض نفسها اليوم بعد أن توالت الأحداث مؤكدةً فشل هذا المسار، ليس على مستوى عالمنا الإسلامي فقط، بل على مستوى العالم كله.

والهدف من هذا الطرح ليس استقصاء أقوال العلماء في الديمقراطية أو حكم الشرع فيها، الذي بتّ بشكل لا لبس فيه بأنها نظام مستورد مخالف لشريعة الإسلام وتعاليمها السامية، وأنها نظام بشري قاصر لا يراعي قيم المسلمين الأصيلة. وإنما الهدف هو إجلاء بعض الحقائق المغيّبة عن الديمقراطية بألسن غربية كفرت بها وحذّرت منها ومن التلاعب بشعاراتها لتضليل الشعوب وترويضها.

ثلث العالم الغربي يرفض النظام الديمقراطي

في الواقع، تؤكد الدراسات أن ثلث المحررين الغربيين تقريبًا لا يقبلون الفكرة الديمقراطية ولا حتى الترويج لها، وتمثل نسبة 63% من الأمريكيين أعلى نسبة أمكن التوصل إليها لأولئك الذين يفضلون استخدام هذا النظام في الغرب.

بل إن رفض الفكرة الديمقراطية بدأ منذ زمن ظهورها، فقد أعلن أفلاطون رفضه للحكم الديمقراطي بصراحة وقوة، وعده حكمًا فاسدًا. بل جعله في مرتبة متردية بين النظم الفاسدة، أي

في المرتبــة مــا قبــل الأخــيرة في ســلم الانحطــاط بعــد حكم الطغيان، وذلك في كتابه "الجمهورية".

وفي نفس المرتبة المتردية صنّف أرسطو الديمقراطيـة في تصــنيفه السداســي لأشــكال الحكم الــذي عرضــه في كتابــه "السياســة"، حيث جعــل الديمقراطيــة ضــمن أشــكال الحكم المنحرفة والفاسدة التي لا تسعى لتحقيق المنفعة العامة.

واســتمر النقــد للنظــام الــديمقراطي في عصــر الحضــارة الرومانيــة الــتي قــدمت معارضــة ثابتــة لــه، ثم غــاب ذكــر الديمقراطية تمامًا في العصر الوسيط، وغاب كل أثر فكـري لهـا أو ممارسة، وتزامن ذلك مع عصر أنار فيه الإسلام الشرق بأنوار الهداية والحضارة ونظام الحكم العادل والمتزن القائم على مبدأ الشــورى، وانطلقت فيــه النهضــة الإســلامية محدثــة تطــورات حضارية سباقة، في حين كانت تعاني أوروبا من فشل المسيحية المحرّفة، ففُصِلت الكنيسة عن الدولـة باعتبارهـا سـبب تخلفهـا العلمي وتدهورها السياسي، ووجد الأوروبيـون في الديمقراطيـة الملجأ للفـرار من ظلم الكنيسـة وتعسـفها واضـطهادها. ورجـع الحديث في الغرب من جديد عن الديمقراطية.

من مرحلة التيه إلى الديمقراطية دين

في الواقع، أصبحت الديمقراطية في هذه المرحلة دينًا جديدًا، واستمرت كذلك حتى أصبح مطلب الغرب وشعاره، وعلى رأسه الولايات المتحدة التي لم تكتفِ باتخاذه نظامًا للحكم، وإنما سعت لفرضه بقوة السلاح على بقية الأمم، أو بدقة أكثر سعت لفرضه كغطاء لحروبها. ولم يكن مهمًا كم ستُبيد الجيوش الأمريكية وتنهب وتقتل وتدمر وتهتك من أعراض بدعوى نشر مبادئ الديمقراطية كما سجلت التقارير في حربي أفغانستان والعراق.

وفي الأخير خلصت المتابعات إلى أن الدوافع لهذه الحروب لم تكن الديمقراطية المزعومة، بل كان النهب والتدمير واستئصال أي صعود إسلامي في البلاد واستبداله بأنظمة طاغية مستبدة قمعية فاسدة، وتغذيتها وحفظ بقائها في مشهد تناقض يكشف زيف الشعارات الأمريكية.

وتقود الحروبَ في العالم اليوم حكوماتٌ تزعم تطبيق الديمقراطية، ومع ذلك لا تقبل أن تحكم بلادَ المسلمين شريعةُ الإسلام، مع أنه مطلب الأغلبية في واقعهم. لكن هذه الحكومات ـ على عكس ما تقول به الديمقراطية في قبول حكم الأغلبية ـ تتدخل بقوة السلاح لخلع أي صعود إسلامي،

ولو كان سلميًا وبرغبة أغلبية الشعوب المسلمة، وهذا ما يطرح السؤال: أين الديمقراطية التي تنادي بتطبيقها هذه الحكومات؟ والجواب: ليست قضية الديمقراطية مرجعية الأغلبية، وإنما مرجعية الغرب في أن يفرض على البشرية ما يريد من قيم وتصورات.

ثم بدلًا من ذلك سعت إلى فرض النظام الغربي على مجتمعات لا تريده ولا يمثّلها، وهو ما يصنّف عمليًا بالاستبداد والطغيان والاحتلال، ولكنه بصورة عصرية يستتر خلف المطالبة بالديمقراطية.

ومما يزيد من المسافة بين مطالب الديمقراطية ونهج المطالبين بها، أن الحرب العالمية الأولى، وكذلك الحرب الثانية، ثم حَربُ فيتنامَ التي لم تكن برضا الشعب الأمريكي، إذ فُرِضَت من قبل الحكومة الأمريكية، رغم خشية الشعب من الخسائر المترتبة عليها، والذي ـ وفق النظام الديمقراطي ـ يمكنه أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة في منعها أو تمريرها. ومع ذلك لم يحدث ذلك في أي حرب شنتها الحكومات الأمريكية المتتالية.

فالطبقةَ الرأسماليةَ التي تملِك مصانع السلاح من مصلحتها إشعال الحروب واستمرارها، ويُظهر هذا المشهد

الـذي يصـف ممارسـات الحكومـات الديمقراطيـة على أرض الواقع كيف تحكم الشعوبَ الغربيةَ فئةٌ متسلطة. وهـو مـا يـدفع للحديث عن أسباب اغتيال الرئيس الأمريكي جون كيندي الذي حـاول أن يخـرج عن منهج هـذه الأقليـة الحاكمـة بتقـديم المصلحة القوميـة وعقـد اتفاقيـة وفـاق دولي. فقُتل ولم يفتح ملفه بعدها.

ميوعـة المصـطلح تكشـف الاضـطراب في مفهـوم الديمقراطية

ومن أبرز الانتقادات للديمقراطية، انتقاد ميوعة المصطلح، والذي لا يقدم تعريفًا دقيقًا علميًا لمعناه، وهـو بحسـب العديـد من المفكرين أقرب للادعاء الزائف منه للحقيقة.

وبقـول في ذلـك آرنولـد توينـبي بحسـب مـا عـرض كتـاب "العلمانية" للشـيخ سـفر الحـوالي: "أصـبح استِخدامُ اصـطلاح الديمُقراطية مُجردَ شِعارٍ مِنَ الدُّخانِ، لإخفـاءِ الصـراع الحقيقيِّ بَيْنَ مبدأَيِ الحُريةِ والمُساواةِ".

وفي نفس الشأن يقول صاحب كتاب نُظُم الحُكْم الحديثـة: "كُلُّ مُحاولة تستهدِفُ تحديد الاسـتعمال الصـحيح لاصـطلاح الديمُقراطية، مِن شأنِها أنْ تواجِه مَزيداً مِنَ التعقيدات، وليسـتِ

البلادُ الـتي تُسَـمَّى بالديمُقراطيـة تَقليـدًا... هي الـتي تُظهِـرُ المُتناقِضاتِ والعُيوبَ فحَسْبُ؛ بل إنَّ البلادَ الشيوعيةَ في العالَمِ ـ التي تَعتَنِقُ مَفهومًا سياسيًّا مُخالِفًا تمامًا ـ تدَّعي بالتأكيدِ ذاته أنَّهـا ديمُقراطيـاتٌ شَـعبية، وأنَّ انتِسـابَ البلادِ الأُخـرى إلى الديمُقراطية إنَّما هو مِن قَبيلِ الخِداعِ".

ولا يوجـد تعريـف واحـد جـامع لمعـنى الديمقراطيـة نظـرًا للخلـط في جـوهر مفهومهـا وآليـات التطـبيق لهـذا المفهـوم. ويغلب على النـاس فهم أن الديمقراطيـة هي نشـر الحريـات السياسـية والمدنيـة والاقتصـادية، والحريـة في التعبـير والتوجهات، كما أنها تعني بالنسبة لهم أن المجتمـع يحكم ذاتـه وأن التغيير الاجتماعي يأتي بناء على إرادة الأغلبيـة بغض النظـر عن سلامة مطلبها من سوئه.

وعلى هذا الأساس، يحاول المروجون للديمقراطيـة جـذب الجماهير ـ التي تعاني الاضـطهاد والقمـع بالأصـل ـ وإغـرائهم بها.

ولكن في الواقـع وبحسـب مـا خلصـت لـه خلاصـات المراقبين والباحثين، فإن الديمقراطيـة تمخضـت عن طغيـان أو اسـتبداد الأغلبيـة، وفي نفس الـوقت شـجعت حكم القلـة الـتي تحكم فعليًـا البلاد، ولا يعـدو حـظ الشـعب سـوى التوجـه

لصناديق الاقتراع في حين لا يدري عن حقيقة ما يجري في كواليس الحكم إلا ما تعرضه له عدسات الإعلام ورغبات القلة الحاكمة ومصالحهم، وفي نهاية المطاف لا يخرج الأمر عن الاستبداد بصورة عصرية.

ويقول برتراند رسل منتقداً الديمقراطية: "كانت تَعنى حُكْمَ الأغلبيةِ، مع نَصيبٍ قليلٍ غَيرِ مَحدودِ المَعالِمِ مِنَ الحُرية الشخصية، ثم أصبحت تعني أهدافَ الحِزبِ السياسيِّ الذي يُمثِّل مصالحَ الفُقَراءِ على أساسِ أنَّ الفُقَراءَ في كُلِّ مكانٍ همُ الأغلبيةُ، وفي المَرحلةِ التاليةِ أصبَحَتْ تُمثِّل أهدافَ زُعماءِ هذا الحِزبِ، وها هي الآنَ في أوروبا الشرقيةِ وجزءٍ كبيرٍ مِن آسيا يُصبح معناها الحُكْمَ المُستَبدَّ لِمَن كانوا يومًا ما نُصراءَ لِلفُقَراءِ، والذين أصبحوا يَقصُرون نُصرَتَهم هذه لِلفُقَراءِ على إيقاعِ الخَرابِ بالأغنياءِ، إلَّا إنْ كان هؤلاء الأغنياءُ مِنَ الديمُقراطيِّين بالمعنى الجديدِ".

ويعترف الغربيون بأنه في ظل الحكم الديمقراطي كل شيء مباح شراؤه كالمناصب السياسية والقرارات والدعم السياسي والاقتصادي والعسكري، ولو على حساب أنبل المبادئ والقيم، ثم يأتي الشعب ليصوت بناءً على نتائج هذا الخداع والحيلة والمكر الذي تحركه جيوب المستبدين.

ويعكس واقع الغرب تكتلات متناحرة وأحزابًا متناطحة تتلاشى معها وحدة الأمة وتتلاشى صلابتها. وهو مطلب ذو أولوية في أية نهضة، ولهذا يصبح التمزقُ سمةً بارزةً ونتيجةً حتميةً كما هو الحال اليوم بين الجمهوريين والديمقراطيين في الولايات المتحدة.

الديمقراطية تضمن حرية الخداع والاحتيال والكذب

ومن الأمثلة التي تعكس تناقضات الديمقراطية وزيف شعاراتها، الطريقة التي تسير عليها الانتخابات الأمريكية –الديمقراطية–، والتي تمضي بدفع مبالغ مالية ضخمة وتوظيف أبواق إعلامية متخصصة مع تدخل شركات ومنظمات مدفوعة الأجر كل واحدة تدعم مرشحًا معينًا للرئاسة وعضوية الكونغرس، فيتم التأثير في الرأي العام بالمال والدعاية، أو بشراء الذمم وإيهام الجماهير، هذا فضلًا عن الكذب الذي هو سمة الخطابات الدعائية التي ينطق بها المترشحون، وانحطاط القيم الأخلاقية حين يتفرغ كل منهم لتعرية منافسه وكشف عيوبه وفضائحه والمكر له بالافتراء أو باستدراجه للفساد كي تسلم له الانتخابات.

وقد وثّقت الانتخابات الأمريكية تحت غطاء الديمقراطية وقائع الخداع والاحتيال الحاسمة، حيث نُقل عن عائلة الرئيس

الأمريكي بوش أنها سرقت الانتخابات في ولاية فلوريدا في عام 2000، حين طالب حاكمها جيب بوش من المشرفين على الانتخابات محو 57.700 صوت من سجلات المصوتين على أنهم من المجرمين الذين لا حق لهم في التصويت، بينما كان أكثر من 90% منهم أبرياء لا علاقة لهم بالجريمة. وفقد نتيجة ذلك المنافس آل جور 22000 صوت على الأقل، وفاز بوش في الولاية بزيادة 537 صوتًا فقط رغم حجم التزوير في النتائج، ما يعكس ضعف شعبيته أمام منافسه في الولاية.

وهو بوش الذي أغرق العالم في حروبه الصليبية لاحقًا بعد وصوله لإدارة البيت الأبيض بالحيلة والمراوغة والكذب، لا برغبة الجماهير كما تروج له الديمقراطية الكاذبة التي ثبتت سهولة استغلال ثغراتها.

وقد ذكر بعض الكتاب قذارة الأساليب المستعملة في تمويل حملة بوش بملايين الدولارات مقابل ألا تتعقب الحكومة نشاطاتها المدمرة للبيئة والملوثة للهواء، والتستر على حالات قتل الأطفال والتسممات جراء دفن النفايات الكيماوية الخطرة في المناطق المحيطة بها. فهذا مثال من بين العديد من الأمثلة عن زيف الديمقراطية في أكبر بلد يحمل لوائها ويقاتل باسم شعاراتها.

ولعل أكبر أكذوبة في النظام الديمقراطي ما يُسمى البرلمان الـذي لم يمثـل الأمـة بسـعتها وتنـوع شـرائحها، ومـا يلبث أن يتحـول البرلمـانيون لعشـاق سـلطة يتحـدثون باسـم شـعب لا يمثلونه تظهر عليهم أعـراض الفسـاد والطغيـان والظلم مثـل أي شخص يستلم الحكم ويتشبث به بعد أن يفتن بمحاسنه. ويؤكد ذلك تأثير حجم الرشاوي التي يحصل عليها البرلمانيون لتمريـر القرارات وإيهام الجماهير بأن القـرار جـاء تمـثيلًا للأغلبيـة. بـل كثـيرًا مـا تسـتعين الأنظمـة القمعيـة بالبرلمـان كوسـيلة لكتم أصوات المعارضة والنقد وتمرير القرارات بلباس ديمقراطي.

وفي الواقـع فـإن الديمقراطيـة ليسـت إلا إخضـاع أكثريـة الشعب لأقلية منه، استطاعت أن توصل ممثليها ليشكلوا أغلبيـة في البرلمان.

الديمقراطية نظام يعزز الاستبداد والانتهازية

وتؤكد النصوص والشواهد ضعف النظام الـديمقراطي بعـد أن قاد تطبيقه إلى طغيان الأكثريـة واسـتقطاب أقليـات انتهازيـة وصولية في دوائر صنع القـرار، وظهـور طبقـة من الحكـام تتسـم بالجهـل، ثم سـرعان مـا تتـدلى إلى الفسـاد والطغيـان وممارسـة أحط النشاطات الذهنيـة كمـا وصـف ذلـك الفيلسـوف ألين، في مؤلفه "عناصر الفكر الراديكالي".

الديمقراطية لا يمكن أن تحقق مطالب الشعوب المسلمة

وقد كتب العديد من العلماء والدعاة المسلمين كتابات بشأن الديمقراطية وفسادها كمنهج لا يتواءم ومقومات الأمة المسلمة، ولعل من أبرز من كتب في هذا الباب الشيخ سفر الحوالي في كتابه العلمانية، حيث قدم نقدًا وافيًا للديمقراطية ونقلًا لآراء الغربيين التي كشفت عيوبها كنظام فاسد لم يعكس على أرض الواقع يوما النجاح الذي تسوّقه أبواق الدعاية لها. ولكن بعض العقليات لا تثق بالكتابات النقدية التي تأتي من المسلمين لشدة تأثرها وإعجابها بالفكرة الغربية، لذلك نقل الشيخ الحوالي أقوال الغربيين أنفسهم يكشفون عيوب الديمقراطية بلا مواراة، كقول هارولد لاسكى الذي ينتقد الديمقراطية قائلا: "إن الدولة الديمقراطية تبذل الكثير في سبيل تحقيق المساواة بين المواطنين فيما تمنحهم من ضمانات، كما تتجه أوامرها القانونية إلى حماية الملكية القائمة للامتيازات أكثر مما تعمل على توسيع نطاقها، فانقسام المجتمع إلى فقراء وأغنياء يجعل أوامر الدولة القانونية تعمل لصالح الأغنياء... إذ إن نفوذهم يرغم نواب الدولة وذوي السلطة فيها على أن يكون لرغباتهم الاعتبار الأول.

وتعبر الدولة عن رغبات أولئك الذين يسيطرون على النظام الاقتصادي، فالنظام القانوني بمثابة قناع تختفي وراءه مصلحة اقتصادية مسيطرة لتضمن الاستفادة من النفوذ السياسي، فالدولة أثناء ممارستها لسلطتها لا تعمد إلى تحقيق العدالة العامة أو المنفعة العامة، وإنما تعمل على تحقيق مصلحة الطبقة المسيطرة في المجتمع بأوسع معانٍ هذه المصلحة.

"إن الحرية والمساواة اللتين حصلنا عليهما كانتا أولاً وقبل كل شئ حرية ومساواة لمالك الثروة" .. وأضاف: "إنَّ إمبراطورياتِ المالِ لَتملِكُ المُنظماتِ الإرهابيةَ والعِصاباتِ المُسلحةَ، إلى جانبِ عصاباتِ الرقيقِ الأبيضِ والرشاوي، بالإضافةِ إلى سيطرتِها على وسائلِ الإعلام، واستخدامِها في الفضائحِ السياسيةِ والماليةِ والأخلاقيةِ، وكُلُّها شِباكٌ تنصِبُها للاقتناصِ بالقوةِ تارةً، وبالإغراءِ تارةً أُخرى. والحقيقةُ التي يجبُ ألَّا تَغرُبَ عن بالِنا في هذا الصددِ؛ هي أنَّ الطبقةَ الرأسماليةَ المُسيطرةَ ليست سوى مَجموعِ المُنظَّماتِ الرِّبَويةِ الاحتكاريةِ اليهوديةِ التي تخطِّطُ لِلسيطرةِ على العالَمِ أجمعِ؛ وَفْقَ أوامرِ التلمودِ والبروتوكولات ".

هل نتائج الانتخابات الديمقراطية عادلة؟

ومن خلال تتبع آليات الديمقراطية في بلاد الغرب، نلاحظ نسبة كبيرة تمثل الناخبين الذين عزفوا عن التصويت، ما يعني أن الفوز واقعيًا لا يمثل فوز أصواتِ أغلبيةِ الشعبِ، بل لا يتعدى أن يمثل أصوات أغلبيةِ المشتركين فِعلًا في الاقتِراعِ. نضيف لهذه النسبة الرافضينَ للانتِخاباتِ الممثلين بالمعارضة، فستصبح الأغلبيةَ الفائزةَ في الانتخاباتِ ليست سوى أقليةٍ بالنسبةِ لِمَجموعِ الشعبِ، وعلى سبيلِ المِثالِ يَذكُرُ مُؤلِّفو كِتابِ نظامِ الحُكْمِ والسياسةِ في الوِلاياتِ المُتَّحدةِ أنَّه لم تَزِدْ نِسبةُ الناخبين على (66%) مِن عددِ الأشخاصِ الذين بلغوا سِنَّ الانتخابِ، وفي بعضِ الأحيانِ تكونُ أقَلَّ مِن (55%)، وفي سنةِ (1956م) (60.5%) فقط.

وهذا يعني أن الشعب لا يمثل حكم الأغلبية كما تقول شعارات الديمقراطية.

فرض "المساواة" على المجتمعات مناقض لطبيعتها

سلط الدكتور أليكسيس كاريل الضوء على عيب كبير آخر في الديمقراطية حيث قال:"هناك غلطةٌ أُخرى تُعْزى إلى اضطرابِ الآراءِ فيما يتعلَّقُ بالإنسانِ والفَردِ، وتلك هي المُساواةُ

الديمقراطيـةُ. إنَّ هـذا المَـذهبَ يتهـاوَى الآنَ تَحتَ ضـربات تجـارِبِ الشـعوبِ، ومِن ثَمَّ فإنَّه ليس مِنَ الضـروريِّ التمسُّـكُ بزَيْفِه، إلَّا أنَّ نجاحَ الديمقراطيةِ قـد جعَـلَ عُمُرَهـا يطـولُ إلى أن يدعوَ لِلدهشةِ، فكيـف اسـتطاعَتِ الإنسـانيةُ أنْ تَقبَـلَ مِثـلَ هـذا المَذهبِ لِمِثلِ هذه السنواتِ الطويلةِ؟!

> إنَّ مَذهبَ الديمقراطيةِ لا يحفَلُ بتكوينِ أجسامِنا وشُـعورِنا، إنَّه لا يصـلُحُ لِلتَّطـبيقِ على المـادةِ الصُّلْبةِ، وهي الفَرْدُ.

صحيحٌ أنَّ الناسَ مُتساوون، ولكنَّ الأفرادَ ليسـوا مُتسـاوين، فتَساوي حُقـوقِهم وَهْمٌ مِنَ الأوهـامِ، ومِن ثَمَّ يَجبُ ألَّا يتسـاوى ضَعيفُ العقلِ مع الرَّجُـلِ العبقـريِّ أمـامَ القـانونِ... ومِن خَطَـلِ الرأيِ أنْ يُعطَوْا (أي: الأغبياء) قوةَ الانتخابِ نَفْسَـها الـتي تُعْطى لِلأفـرادِ مُكتَمَلي النُّمـوِّ، كـذلك فـإنَّ الجنسَـيْنِ لا يتسـاويان، فإهمـالُ انعـدامِ المُسـاواةِ أمـرٌ خطـيرٌ جـداًّ، لقـد أسـهَمَ مبـدأُ الديمقراطيـةِ في انهيـارِ الحضـارةِ بمعارضـةِ نُمـوِّ الشـخصِ المُمتـازِ... ولمَّا كـان مِنَ المُستحيلِ الارتفـاعُ بالطبقـاتِ الـدُّنيا، فقد كانت الوسيلةُ الوحيدةُ لتحقيـقِ المُسـاواةِ الديمقراطيـةِ بيْنَ النـاسِ هي الانخفـاضَ بـالجميعِ إلى المُسـتوى الأدنى، وهكـذا اختَفَتِ الشخصية.".

وقال بيكر في منتقدا أسلوب التمثيلِ في الديمقراطية:"إنَّ الناسَ جَميعًا لهم مَصالحُ كثيرةٌ متعددةٌ، حيث لا يمكنُ لجانِبٍ منها أنْ يَنموَ ويطَّرِدَ إلَّا بسَنِّ تَشريعٍ يُحقِّقُ هذا الغَرضَ، ولكنَّ هذا التشريعَ يُسَنُّ على حِسابِ الآخرين، فالزُّرَّاعُ والعُمَّالُ مَثلًا هم المُنتجون والمُستَهلِكون في وَقتٍ واحدٍ. فهم كمُنتِجين يتطَلَّعون إلى أسعارٍ أعلى مِن تلك التي يبيعون بها مُنتجاتِهم، ولكنَّهم كمُستَهلِكين يتطَلَّعون إلى أسعارٍ أقَلَّ مِن تلك التي يشتَرون بها حاجياتِهم".

ومن أبرز مشاهد التناقض لدى دعاة الديمقراطية أن المساواة التي هي مطلب الدول الغربية لا نرى لها تطبيقًا في مجلس الأمن، أين تفرض الدول الخمسة القوية قراراتها مهما كانت مجحفة على باقي حكومات بني البشر.

الهوة الرهيبة بين التنظير الديمقراطي والواقع الفعلي

قال الكاتب الإنجليزيِّ أ. د لندساس في خلاصة القول عن الديمقراطية: "إنَّ هناك دائمًا هُوَّةً رهيبةً بيْنَ النظرياتِ الرَّفيعةِ عنِ الديمقراطيةِ التي نَقرأُ عنها في كُتُبِ النظرياتِ السياسيةِ، وبيْنَ وقائعِ السياسةِ الفِعليةِ".

وهذه هي الخلاصة في النظام الديمقراطي، فهو نظام فاشل لا يوافق تطبيقه التنظير الذي يقوم عليه وثغراته خطيرة وكثيرة وبالتالي لن يقود إلا لنوعية من الاستبداد الحديث تحدوه الشعارات الكاذبة والخادعة والظالمة بشهادة الغربيين أنفسهم. وهذا مآل كل نظام حكم يصنعه فكر البشر القاصر.

تأثير الإعلام في تزيين الديمقراطية وإخفاء عيوبها

ثم هناك آلة شيطانية تمكّن ساسة الديمقراطية من توظيفها ببشاعة واحترافية هي الآلة الإعلامية، حيث قال ميشيل ستيورات في نقده للديمقراطية: "هناك نُفوذُ الثروةِ على تكوين الرأيِ العامِّ، فالديمقراطيةُ تتطلَّبُ فُرَصًا مُتكافئةً لِجميعِ الذين يُريدون الإقناعَ أو التعبيرَ عنِ الرأيِ، ولقد حاولَتِ الديمقراطيةُ توفيرَ ذلك، بإزالةِ العَقباتِ القانونيةِ على حُرِّيةِ الكلامِ والكتابة".

وأضاف: "ومِنَ الجائزِ ـ مع تقَدُّمِ الدراساتِ الخاصةِ بعِلْمِ النَّفْسِ والدعايةِ والإعلامِ ـ أنْ تَزيدَ مَقدرةُ القِلَّةِ التي تستطيع أنْ تُنفِقَ بسخاءٍ لِلتحكُّم في وسائلِ الإعلامِ على تكييفِ عُقولِ الباقينَ ممَّا يَنالُ مِن حقِّ الشخصِ وقُدرتِه على التفكيرِ، وهو الغَرضُ الأساسيُّ للديمقراطيةِ، وهذه المُشكلةُ هي أكثرُ المشكلات خُطورةً؛ لِأنَّها ليست مِن مُخلَّفاتِ الماضي، وإنَّما

هي قــوةٌ بلوتوقراطيــةٌ (ســيطرةُ رَأْسِ المــالِ) جديــدةٌ ظهــرَتْ حديثًا".

وقال لاسكى عن دور الصحافة في تزييفِ الرأيِ العـامِّ: "إنَّ جَمْعَ الأخبارِ ونَشـرَها عمـلٌ لا يُـراعى فيـه العـرضُ المَوضـوعيُّ للوقائعِ، فالأخبارُ سُرعانَ ما تُصبح دعايـةً عنـدما تتمكَّنُ مادَّتُهـا مِنَ التأثيرِ في السياسة، كما يميلُ مَضمونُ الأخبارِ في المُجتمـعِ المُتفاوتِ إلى فائدةِ مَن بيَدِهم مَقاليدُ السلطةِ الاقتصادية".

النظـام البشـري الفاشـل لا يكـون بـديلا لنظـام ربـاني كامل

ولا يمكننا في هذه السطور نقل كل الآراء الغربيـة المحـذّرة من الديمقراطيــة، ولعــل بعض أبــرز من كتب في هــذا البــاب، كتاب (نَقضُ الجُذورِ الفكريةِ لِلديمقراطيةِ الغربيةِ لكاتبه محمد أحمد مفتي).

ولكن تكفي هـذه الاقتباسـات لتجعـل من الانبهـار بـالحكم الـديمقراطي شـذوذًا فكريًـا لا ينبغي التسـليم لـه لمجـرد انتشـار دعايات ملمّعة له، وخاصة لأمـة أغناهـا اللـه بحكم إسـلامي، لا يقبـل حكمًـا إلا للـه وهـو الحكم الـذي أثبت نجاحـه وموائمتـه لتناقضات النفس البشرية وتعقيدات المجتمعـات على اختلاف

أصولها عبر محور الزمن. فهل ستصغي الضمائر المطالبة بإقامة الديمقراطية في العالم الإسلامي لأصوات منتقديها من الغرب نفسه الذي يسعى لنشر الديمقراطية وفق هواه؟ أو هل ستنظر في حجم التناقضات بين واقع هذا الغرب وسياساته في بلاد المسلمين تحت ستار الديمقراطية، والإجابة على هذه الأسئلة يحكمها درجة الاستقلالية عن تأثير الفكر الغربي في القناعات ودرجة الإنصاف في تمييز أنظمة الحكم بعين متجردة غير منحازة أو متأثرة بالإعلام الأجير أو بالأحكام المستوردة من دول غربية أقل ما يُقال عنها أنها دول قد شغلت مساحة كبيرة جداً من تاريخ المسلمين كمستعمرٍ محتلٍ ومغتصبٍ لا يزال يحمل المطامع والأسباب التي تدفعه للهيمنة على العالم الإسلامي بطريقة أو بأخرى.

المراجع:

دراسة: النقد الغربي للفكرة الديموقراطية (النظرية والتطبيق) ـ دكتور عبد العزيز صقر

مقال السَّلَفيُّون ليْسوا وحْدَهم .. نَقْد المفكِّرين الغربيِّين للنِّظام الدِّيمُقراطي! للشيخ عبدالله الزَّهراني

كتاب الشيخ سفر الحوالي ـ العلمانية

كتاب العقل والمادة ص 241 ـ 242

✿ ✿ ✿

21

تجارب الإسلاميين مع الديمقراطية.. الطريق المسدود

دعونا نلقي نظرة على أرشيف الديمقراطيات في بلادنا العربية والإسلامية، وكيف صفّق لها الدعاة لها بحرارة وحماسة جعلتها تبدو في مرتبة النظام الأنجح لريادة الأمة، وما أقصده تحديدا هم الإسلاميون الذين جمعوا بين النقيضين ، الإسلام والديمقراطية ودعوا لتطبيقها كنظام حكم جديد وتأنقوا في بحث أسباب التوطئة لها والتبرير لطاماتها وسقطاتها وفشلها المتكرر. دعونا في هذه الصفحات إذن نسلط الضوء ليس على اضمحلال الديمقراطية في بلادنا العربية والإسلامية بل على فشلها فشلا ذريعا لنخلص في نهاية الأمر لتقييم هذه التجربة بشكل نهائي بلا تزويق ولا ضبابية لا تليق ومستوى الخطر الذي يهدد هذه الأمة الحنيفية المسلمة.

مصطلح إسلاميين

لا شك أن ظهور مصطلح "إسلاميين" قد ارتبط ارتباطا مباشرا مع ظهور الديمقراطية بمسميات إسلامية، كنوع من إزالة الحواجز النفسية بين العلمانية وبين الشريعة الإسلامية، وتمهيدا لخلق ذلك التقبل الفكري لسلخ المسلمين من إسلامهم بغزو العلمانية في وقت لا زالوا مقتنعين أنهم يمثلون عقيدة الإسلام! وهذا ما يفسر توظيف الغرب لشخصيات معدّة لحمل ثقافة الغرب العلمانية وترويجها في الأمة بعباءة إسلامية، وتمكن الغرب بهذه الخطوة من خلق التصنيف الغريب للإسلاميين بجعلهم معتدلين ومتطرفين، فمن آمن بالديمقراطية وبناتها الفكرية من التعددية والمواطنة والتداول على السلطة. فهو في خانة المسلم المعتدل، أما من حمل مبادئ عودة الإسلام الحق والحلم بخلافة إسلامية، فهو مسلم متطرف ولو لم يكن له نشاط عسكري أو حمل سلاحا.

مفهوم الديمقراطية عند الإسلاميين

حسنا دعونا نبدأ بتلخيص مفهوم الديمقراطية عند الإسلاميين الديمقراطيين أو بالأحرى عند "المعتدلين" في نظر الغرب:

الديمقراطية لا تناقض الإسلام

إن ما تم رصده عند الديمقراطيين الإسلاميين على اختلاف أنواعهم هو اعتقادهم بأن الديمقراطية لا تناقض الإسلام. ومنهم من يرى أصلها من الإسلام أساسا فيقول: " الديمقراطية بضاعتنا ردت إلينا". ومنهم من يقول: " الديمقراطية هي الشورى الملزمة". وآخر يقول عن منهجهم "الشورقراطية"! واعتبر الغنوشي أحد منظري المدرسة الديمقراطية الإسلامية الصناديق حكما بينهم كإسلاميين وبين خصومهم من الأحزاب العلمانية في تونس. فإذا الشعب اختار حكمهم بالإسلام. سمحوا للكفار بأن تكون له أحزابهم وصحفهم وإذا الشعب اختار الأحزاب العلمانية رضوا بحكم الكفر لأن الله تعالى قال:(لا إكراه في الدين).!

وسنجد هذه الأفكار منتشرة في العديد من البلاد الإسلامية ولا سيما في السودان وشمال أفريقيا وفي أوساط الصحوة الإسلامية في الغرب.

منهج التوفيق والترقيع

ويتصور فريق من الإسلاميين الديمقراطيين أن عليهم أن يأخذوا من الديمقراطية ويمارسوا ما لا يتعارض مع أصول

السياسة الشرعية وينهجون لأجل ذلك منهجا توفيقيا ترقيعيا لإنتاج نظريات ديمقراطية – إسلامية في آن واحد رغم التناقض الكبير بين المقامين. ليصلوا في الأخير لما يسمونه فقه برلماني للتحايل على ما تحمله النظرية السياسية والدستورية للديمقراطية الغربية من إلحاد وشرك وكفر أكبر. ولا يرون بأسا من الانتماء للسلطة التشريعية عبر الديمقراطية كمعارضة بحيث لا يوافقون إلا على ما تجيزه الشريعة.

الديمقراطية تناقض الإسلام

وهناك فريق آخر وهم قلة، يصرح بأن الديمقراطية بمفهومها الأساسي تناقض الإسلام وأنه ليس هناك إشكالية شرعية في ممارسة المعارضة في البرلمان . ولا يجيزون لأنفسهم أن ينتقلوا إلى السلطة التنفيذية لأن ذلك سيدخلهم في دائرة الحكم بغير ما أنزل الله بحسب القوانين المعمول بها في عموم بلاد المسلمين ويعتبرون أنفسهم أنهم في البرلمان لإقامة الحجة وإيصال صوت الحق وتحقيق بعض المصالح الشرعية للمسلمين وقد نجد هذا السبب لوحده دافعا عند بعضهم لدخول حقل الديمقراطية دون أي طموح في السلطة.

الديمقراطية كفر بالله

أما الفريق الرابع فيصرح صراحة بأن الديمقراطية كفر بالله وأن مبادئها تقوم على الشرك به والإلحاد في ألوهيته سبحانه. وأنهم يمارسونها في حدود حالات الاستضعاف التي تمر بها الصحوة. وأنهم لا يدخلون البرلمان إلا كأكثرية حيث هدفهم الأول تشكيل حكومة تحكم بالشريعة. وإلغاء العمل بالديمقراطية بمفهومها الغربي. وأبرز نموذج لهذا الفريق نموذج جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر.

ثم إن هذا التمايز والتنوع في فرق الإسلاميين الديمقراطيين يعكس اختلافا بينهم في مفهوم السيادة والحاكمية والمبادئ والمصطلحات الدستورية والمواقف من كفر الحاكم وإسلامه وكذلك الحكم على النظام ومؤسساته وهذا ما يفسر الكثير من الضبابية والتلون والباطنية والتذبذب في المواقف لمن يتابعهم، لكن في النهاية تتفق هذه الفرق جميعا في الاعتراف بشرعية النظام وشرعية الحاكم وكل ما يدور في فلك القوانين الوضعية وواجب احترامها،

وكذا قوانين النظام الدولي بما فيها من مساواة في الدين أو الجنس أو المعتقد أو أي اعتبار آخر. والاعتقاد بمبدأ الأغلبية بغض النظر عن شرعيتها في ضوء الإسلام. أضف لذلك

اعتناقها شروطا أخرى كمنع تشكيل الأحزاب على أساس ديني مثل في مصر. وكالاعتراف بالعلمانية مثل تركيا ومنها من يصل لدرجة قبول الاحتلال المباشر كما في فلسطين والعراق.

ولا يختلف عاقلان في أن الديمقراطية مناقضة صريحة لقيم الإسلام الحنيف وأحكامه، بل إن الإسلام يكفر بالديمقراطية ولا يمكن الجمع بينهما البتّة مهما حاول أصحاب هذا التيار تلميع تبريراتهم وتمييع المبادئ التي يقوم عليها هذا الدين القويم

مظاهر حرمة المشاركة في المؤسسات الديمقراطية

فالديمقراطية تعطي لكل مواطن حرية الاعتقاد والتفكير . حتى إن وصل الأمر إلى تبديل معتقده و قناعاته بحسب هواه وآرائه الشخصية وهذا ما يتنافى مع الإسلام جملة وتفصيلا فنحن قوم نتبع منهجا ربانيا ولا نزيغ عنه بالرأي والهوى.

وتعطي الديمقراطية للإنسان حق التعبير عما شاء بما شاء كيفما شاء ومتى شاء عبر كافة وسائل التعبير من كتابة وخطابة

وإشارة وصحافة وغير ذلك.. حتى إن كان في ذلك تجاوزا لحدود الله وهذه حرية ظالمة يرفضها الإسلام.

كما تستند الديمقراطية على مبدأ المساواة المطلقة بين البشر بصرف النظر عن العرق أو الجنس أو اللون أو الدين أو العلم أو غيرها من الفوارق .. فكيف نساوي بينهم وقد أعطى الله كل ذي حق حقه، (**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى**) ، و(**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**).

وتعطي الديمقراطية لنواب الأمة في البرلمان حقا زائدا من الحصانة في التعبير والإدلاء بآرائهم وتعفيهم من المتابعة والمقاضاة تبعا لما يصرحون به من آراء ، والإسلام لا يعرف حصانة عند إقامة العدالة.

وتنص مبادئ الديمقراطية والفقه الدستوري المنبثق منها على أن التشريع يأخذ مشروعيته من وجود أغلبية مؤيدة وأقلية معارضة.. وينصون على أن لا دستورية لقانون بغير حق معارضة..وهذا تشريع لا يحكم بما أنزل الله بل بما أبدعه البشر.

ثم تأتي النقطة القاصمة والتي تعتبر من أعظم مظاهر حرمة المشاركة في المؤسسات الديمقراطية وعلى رأسها البرلمان. إذ تنص الديمقراطية على التزام جميع الأعضاء في المؤسسات

الديمقراطية وعلى رأسها البرلمان بمبدأ حرية تأييد أو معارضة أي تشريع أو قانون أو قرار مطروح للتصويت. ولكن يقر الجميع سلفا بمبدأ دستورية أو مشروعية أي قرار وأخذه قداسة التشريع حال التصويت عليه بالأغلبية. وإلزام الأمة به بصفته حلالا صوابا واجب تطبيقه على جميع أفراد الأمة .. بمن فيهم من أيده أو عارضه. وهذا ما يتنافى وتعاليم الشريعة الإسلامية جملة وتفصيلا، ويناقض مبدأ الحاكمية، فالتشريع لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

> ودون أن ننسى أن الديمقراطية البرلمانية ومبادئ سيادة الأمة وحكم الشعب والمؤسسة الدستورية التشريعية والتنفيذية والقضائية. تنص على الاحتكام للدستور. لا لشريعة الله.

ومن هنا نبصر الفرق الشاسع بل التناقض الصارخ بين الديمقراطية والإسلام، وبطلان صياغة (ديمقراطية إسلامية) أو (إسلاميين ديمقراطيين). ذلك أن مقتضى الديمقراطية بحسب فحواها هو انتزاع حق السيادة والتشريع من الله سبحانه وتعالى علوا كبيرا ثم إعطائه للبشر المخلوقين أو إشراكهم معه في هذا الحق الإلهي وأن هذا الاعتقاد يجعل صاحبه عبدا لطواغيت البشر طوعا أو كرها.

هنا وصلنا لنهاية الجزء الأول من بحثنا "الديمقراطية .. الطريق المسدود"، فانتظرونا مع الجزء الثاني حيث سنستعرض تجارب ممارسة الديمقراطية خلال الربع قرن الأخير لنخرج بتقييم نهائي لهذه التجارب وبشكل حاسم.

✿ ✿ ✿

22

تجارب الإسلاميين مع الديمقراطية.. رغم هذا لم نستوعب الدرس

بعد أن تعرضنا في الجزء الأول من بحثنا "الديمقراطية .. الطريق المسدود" لمفهوم الديمقراطية عند الإسلاميين "المعتدلين" وبعد أن بسطنا المعالم التي تؤكد أن الديمقراطية مناقضة صريحة لقيم الإسلام الحنيف وأحكامه وخرجنا بخلاصة أن الإسلام يكفر بالديمقراطية ولا يمكن أن يجتمع معها أبدا.

دعونا الآن نستعرض تجارب ممارسة الديمقراطية خلال الربع قرن الأخير والتي تم رصدها في بعض البلاد الإسلامية والتي اشتركت كلها في خاتمة الفشل الذريع والمتكرر.

البداية كانت بمشاركة الإخوان المسلمين وبعض العلماء والإسلاميين في الإنتخابات والمجالس النيابية في كل من مصر وسوريا و باكستان أواخر الأربعينيات وخلال الخمسينيات من القرن الماضي. لكنها تجارب أثبتت فشلها حينما انتهت بوأدها

بالانقلابات العسكرية. ولم نعد نسمع بعدها عن تجربة ديمقراطية جديدة في بلادنا إلا بعد أن قرر الغرب أن يحاصر السلفيين الجهاديين باسم محاربة الإرهاب، وذلك بتفعيل خيار آخر، هو ما سماه بالإسلام "المعتدل" وهذا منذ أواسط الثمانينيات وخلال التسعينيات إلى يومنا هذا، وقد ظهرت هذه الاستراتيجية بوضوح في توصيات تقرير راند لعام 2005 حيث بدا التشديد على ضرورة صعود الإسلام "الوسطي أو المعتدل" إلى الحكم، خوفًا من انتشار الفكر الجهادي داخل الدول العربية والإسلامية والذي يعد خطرًا على الكيان الصهيوني وبالطبع على الوجود الأمريكي، وكان التقرير يحمل عنوان "العالم الإسلامي بعد 11 سبتمبر".

لننظر الآن خلال هذه الحقبة إلى يومنا هذا ولنحصي التجارب العديدة التي لا تقل فشلا عن سابقاتها.

تجربة الإخوان المسلمين في مصر

انطلقت هذه التجربة منذ أواخر عهد أنور السادات أواخر السبعينيات ومطلع الثمانينيات. فعندما أتى السادات إلى الحكم بعد اغتيال عبد الناصر قرب إليه الإخوان المسلمين لأجل التصدي للشيوعية والناصرية. ذلك بهدف خلق حالة توازن مع باقي التيارات وبعد أن اطمأن الإخوان لمكر السادات، واطمأنوا

لـ 8 مقاعد حصلوا عليها ضمن 52 مقعد للمعارضة مقابل أكثر من 460 مقعدا لحزب السادات الحاكم ، فاجأهم بحملة اعتقالات كبيرة في سبتمبر 1981 اعتقل خلالها 1536 فرد من مختلف القوى المعارضة وقام بإغلاق جميع الصحف المعارضة ومصادرة أموالها.

وبعد اغتيال السادات واستلام حسني مبارك الحكم، تعلم جيدا الدرس فبدأ مشوراه بالتشديد على كل ما هو إسلامي سواء السلفيين الجهاديين أو الإخوان، ولكن اقتصر في حمل السلاح على الجماعات الجهادية فقط، فنجح في تحييد الإخوان وهدّأ بذلك شريحة واسعة من الشعب المصري بمباركة النظام العالمي.

وفي ظل هذا الانشغال بقمع السلفية انتهز الاخوان الفرصة بدورهم في إعادة البناء الداخلي للجماعة حيث عمدوا إلى تغيير بعضا من الفكر القطبي بحجة أنه لا يساير واقع الثمانينات، وتحولوا من مرحلة المفاصلة بين الجاهلية والإسلام التي قاد لوائها سيد قطب إلى المهادنة والتساكن مع العلمانية والديمقراطية التي قاد لواءها القادة الجدد للإخوان، ووصل بهم الحال إلى إعلان الجهاد من أجل الديمقراطية!

ولا شك أن هذا التحور الفكري والسياسي أدى إلى تغيير كبير في وجهة الجماعة وكسبوا من

ورائه مقاعد برلمانية وكرسوا جهدهم ووضعوا ثقلهم في زيادة حضورهم السياسي باعتبار المشاركة السياسية السبيل الوحيد للإصلاح التدريجي، ولينتقلوا بذلك من حالة الجهاد ومواجهة الحكام الظلمة إلى الانخراط في نظام هؤلاء الحكام.

وبعد أن ازدادت قوة الإخوان داخل الشارع المصري واستشعر النظام خطر ذلك التمدد فزع لمراقبة الجماعة خشية شروعها في أي عمل سري، وفي بداية الألفية الثانية اشتد تضييق النظام على الإخوان من خلال أذرعه الأمنية إلى جانب الأذرع الإعلامية.

ويجدر الإشارة إلى أن نشاط الإخوان في عهد مبارك لم يكن تحت اسم حزب ديني لأنه أمر محظور وفق الدستور المصري، بل فعّلوا نشاطهم من خلال التحالف مع الأحزاب العلمانية، فمرة مع حزب الوفد ومرة مع حزب العمل. وخرج فريق من شباب الإخوان فشكل حزب "الوسط" وهو حزب غير ديني ولإثبات ذلك أدخل فيه بعض النصارى والنساء. ورغم ذلك لم يزل الإخوان يتنقلون بين البرلمان والمعتقلات إلى يومنا هذا . واستمرت سلسلة التنازلات، ولكن دون أي فائدة أو جدوى تذكر.

ولعل أبرز صورة لفشل الديمقراطية التي رفع شعارها الإخوان في مصر كانت بعد أن وصل ممثلهم محمد مرسي إلى مقاليد الحكم بانتخابات أثارت الكثير من الجدل، ورغم الفرحة العارمة للوصول إلى سدة الحكم فإن أهداف مسلسل التنازلات الإخوانية أجهضت بمجرد إعلان الانقلاب العسكري والزجّ بالرئيس الجديد في غياهب السجن، وليرض من يرضى وليسخط من يسخط، ذلك أن هناك خطوطا حمراء لا يمكن تجاوزها في نظر الغرب ونوابه في المنطقة وأعتقد أن تجربة مثل تجربة الإخوان مع وصول مرسي لكرسي الحكم لهي بمثابة الدليل الدامغ على فشل هذه السبيل وبرهان أكيد على أنها طريق مسدود يسهل خلاله تبديد أحلام أصحابه في طرفة عين من قبل قوى الظلم والطغيان والكفر بمجرد انقلاب حكم.

تجربة الإتجاه الإسلامي في تونس

وهو الاتجاه الذي تحول إلى حزب النهضة في نفس الفترة. والذي حصد نجاحا كبيرا في مقاعد الانتخابات التمهيدية حيث فاز بأكثر من 86% في أواخر الثمانينيات . وكان جزاءه أن حل الحزب وطورد شيخه الغنوشي ودعمت أمريكا من جهتها نظام علي زين العابدين الديكتاتوري الذي أعلنها حربا ضد الإسلاميين وطاردهم حتى لجأوا إلى الهجرة للغرب. ثم

شاهدنا النتائج الخيالية للانتخابات الرئاسية في 2004 والتي فاز فيها علي زين العابدين بنسبة 95,96 % لتعكس حجم "الديمقراطية" أقصد الدكتاتورية على أصولها في تونس وبمباركة غربية. واليوم نشاهد التاريخ يعيد نفسه فبعد ثورة الربيع العربي التونسي كان الجميع يتوقع قفزة قوية للإسلاميين لاسترجاع مكانتهم في تونس، لكننا رأينا نوعا آخر من الظهور، إنه ظهور للغنوشي بمقاسات أمريكية، ومبادئ معاقة إذا ما قارناها مع مبادئ القوم في بداياتهم. وهكذا تمت دمقرطة الإخوان وتحويلهم لجماعة وظيفية تماما كما تم توظيف الحكام في الأنظمة الوظيفية ثم الطامة إن تعرض حكمهم للانتقاد فهو للأسف انتقاد للحكم الإسلامي الذي هو منهم براء وهذا تحديدا ما يسعى له الغرب ـ خلق تلك القناعة في نفوس الناس أن الحكم الإسلامي فاشل فيعزفون عنه ويرضون بالأدنى!

تجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ

حقيقة لا أبالغ إن قلت أن تجربة الجبهة الإسلامية للإنقاذ كانت ألمع تجربة وأقواها للإسلاميين الذين ينتهجون طريق الديمقراطية في تحقيق أهدافهم بل وأقلها انحرافا أو زيغا، كان ذلك في أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات. عندما أعلن

الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد في سنة 1989 بعد مظاهرات الخبز الشهيرة سياسة للإصلاح كان على رأس أولوياتها إطلاق حرية الأحزاب وإلغاء سياسة الحزب الواحد .. فانتهز الإسلاميون من مختلف التيارات الفرصة وسارعوا في تشكيل الجبهة الإسلامية للإنقاذ التي ضمت كامل الطيف الإسلامي تقريبا ولم تكن وحدها فقد تجمع الإخوان المسلمون بصفة مستقلة في جماعة الإخوان و وجماعة النهضة الإسلامية المحلية ودخلوا جميعا في منافسة مع الحزب الحاكم الذي كانت تمثله جبهة التحرير الوطنية القوة الرئيسية الوحيدة في البلاد إلى ذلك الوقت منذ الإستقلال في 1962 ، كانت المفاجأة كبيرة لحجم إقبال الجمهور الجزائري على جبهة الإنقاذ الإسلامية التي فازت في الإنتخابات البلدية بنسبة أكثر من 85% وبسبب تمتعها بشعبية عريضة مكنها 3.5 مليون ناخب من أن تدخل الإنتخابات البرلمانية بقوة أواخر سنة 1990 وتكتسح الأغلبية الساحقة في الدور الأول. لقد حققت كذلك تفوقا ساحقا في الدور الثاني في مطلع 1991 ونجحت بلا منازع وبمباركات الشعب الجزائري لأن تكون مرشحة لتشكيل الحكومة الإسلامية الموعودة بشكل مستقل كما ردد ذلك مرارا زعيميها البارزين عباسي مدني وعلي بلحاج بأن هدفها الحكم بالشريعة الإسلامية .. لكن لأن هذا الطريق

مسدود، ولأن الغرب عموما وفرنسا خصوصا لن ترضى عن مثل هذا الحكم في الجزائر، هدد الرئيس الفرنسي ميتران بالتدخل العسكري إن لزم الأمر للحيلولة دون هذا النجاح الباهر للإسلاميين في وصولهم للحكم .. وقال بكل وضوح:"إذا فاز الإسلاميون في الانتخابات في الجزائر سأتدخل عسكرياً كما تدخل بوش في بنما فكانت النتيجة تدبير الانقلاب العسكري مطلع 1991 الذي سجّل نهاية الجبهة الإسلامية بطريقة بشعة جدا، وسجن زعماءها واختفى عشرات الآلاف من أنصارها بعد أن غيّبوا في المعتقلات الصحراوية ولا زالت تتردد قصص مهولة للتعذيب والترويع الذي دفع ثمنه الشعب الجزائري فقط لأنه طالب بحكم إسلامي. وهذا كان السبب الأول وراء اشتعال جذوة الجهاد في الجزائر، وأعقبه أعمال عنف وحرب أهلية دامية راح ضحيتها أكثر من 150 ألف شخص. وتحولت التجربة الديمقراطية في الجزائر إلى حالة دموية مشهودة.

فأي أمل يبقى لدعاة الديمقراطية في سلوك هذه الطريق بعد مشاهدتهم للطريقة القبيحة التي أجهضت بها جهود الجبهة الإسلامية للإنقاذ رغم حجم الدعم الشعبي الذي كانت تحظى به!

فمن يؤمن بعد هذا بإمكانية الوصول لحكم إسلامي عن طريق سلوك طريق الديمقراطية في

العالم العربي والإسلامي! إنهم إن فعلوها فلن تكون إلا ديمقراطية بلا إسلاميين وتحت شروط العنت لتخرج لنا جيلا جديدا يرضى بالكفر دينا!

تجربة الإخوان المسلمين في اليمن

ترجع هذه التجربة إلى مطلع التسعينيات وهي قصة حزب التجمع اليمني للإصلاح الذي خاض أول انتخابات قامت بعد الوحدة سنة 1993 بعد الثورة الشعبية التي كانت تطالب بوضع كلمة (الشريعة هي المصدر الأساسي للتشريع) في مقدمة الدستور العلماني والقانون الوضعي للبلاد وهذه من المفارقات العجيبة. وقد شهدت شوارع اليمن خروج أكثر من مليون مسلح في تظاهرات مهيبة للاحتجاج أمام القصر الرئاسي. لكن الغريب والصادم أن قيادات الإخوان أقنعوا الناس بالعودة لبيوتهم خشية من الفتنة.!

وكانت سياسة علي عبد الله صالح مثل سياسة السادات في بداياته، وهي تقريب الإسلاميين من أجل كسر شوكة الاشتراكيين الشيوعيين القادمين من الجنوب مع الوحدة. فانتعش لذلك نشاط الإسلاميين، حتى أصبح حزب التجمع

اليمني للإصلاح ثاني أقوى حـزب في البلاد. وشـارك في حكم اليمن الموحد عبر المجلس الرئاسي بمشاركة أحد أعضائه.

لكن هذا الصعود لحزب الإصلاح، كان له تداعيات أهمهـا حصار الجنوبيين في البرلمـان. والـذين رفعـوا شعار الانفصـال وحظوا بدعم دول مجلس التعاون الخليجي والسـعودية فكـانت النتيجـة الحـرب الـتي أدت إلى سـيطرة اليمن الشـمالي على الجنوبي وتحديدا بفضل الـدور المحـوري الـذي لعبـه الإخـوان والإسـلاميون في المجهـود الحـربي. لكن مـا أن اسـتتب الحكم للرئيس صالح بعد أن وضعت الحرب أوزارها عمد إلى تقليص دور الإســلاميين ليصــبحوا مجــرد كتلــة برلمانيــة محــدودة . وليتفاجـأوا بفـوز حزبـه في دورة 1996 ومـا تلاهـا في 2003. وبأغلبية ساحقة تجاوزت الـ 70% وتم تقليص حجم الإصلاح كثيرا. وإثبات أن طريق الإخوان كان مسدودا في اليمن.

تجربة تركيا

انطلقت تجربة تركيا منذ مطلع الستينات مع حزب السلامة الإسلامي التركي بزعامة البرفسور نجم الدين أربكان الذي نجح في الفوز عبر الانتخابات في الوصـول إلى منصـب نـائب رئيس الحكومــة في أواخــر الســتينات.. ولكن كمــا أثبتت التجــارب

السابقة فإن هذا الصعود أجهض بانقلاب عسكري وأثبت فشل التجربة الديمقراطية في تركيا وعاد بالبلاد إلى حكم العسكر.

وبعد حظر حزب السلامة غير اسمه وأعاد المحاولة من جديد تحت اسم حزب الرفاه .. وعلى طول عقد من الجهود المضنية تمكن في النهاية من إحراز الأكثرية النسبية في انتخابات 1996 البرلمانية بنسبة 21% من مجموع الأصوات يليه أكبر الأحزاب العلمانية بأكثر من 18%. وهي النتيجة التي أثارت استياء الغرب. ورغم قيام أربكان بإنشاء وزارة ائتلافية استجاب فيها لجميع الضغوطات كان منها التوقيع على التعاون العسكري مع إسرائيل، إلا أنه لم يستمر إلا سنة واحدة .. وانتهى به الأمر بانقلاب سياسي من العلمانيين اتهم فيه أربكان وحزبه الرفاه خلالها بتهم ملفقة أدت إلى نفيه عن السلطة وحلّ حزب الرفاه ومنع رجالاته من مزاولة العمل السياسي.

لم يتعلم الإسلاميون في تركيا من هذا الدرس وأصروا على إعادة التجربة، ليظهروا من جديد باسم حزب الفضيلة والذي بقي يمثل أقلية وانتهى به الأمر للحظر والوأد مرة ثالثة.

ثم ظهر أحد أعوان أرباكان وهو رجب طيب أردوغان بحزب العدالة للتنمية وحمل شعار علمانية إسلامية وتمكن من الفوز في انتخابات 2002 بأغلبية كبرى 36% من مقاعد

البرلمان خولته من تشكيل حكومة تسبح بحمد العلمانية ليل نهار، وتتماشى والسياسات الأمريكية في المنطقة.

وانحصرت إنجازات التجربة التركية العلمانية "المؤسلمة"، في بعض التصريحات والمظاهر، وبعض الخدمات للمساجد ومدارس القرآن، بينما في الجهة المقابلة ظهر أصحابها وهم يحتسون الكؤوس مع قادة اليهود ويرسلون المساعدات لإطفاء حرائق إسرائيل، واشتركوا في الحرب التي يخوضها حلف النيتو ضد المسلمين بل وتسلموا زعامة النيتو في أفغانستان، وفتحوا قواعدهم العسكرية للجيوش الصليبية وقدموا الدعم المتواصل للغزو الأمريكيو أوروبي للعراق فضلا عن الدعم الاستخباراتي وتسليم المعتقلين المسلمين للسجون السرية الأمريكية، لقد قدم الأتراك الكثير من القرابين لأجل إرضاء الأمريكان ولا زالوا، وسفك بسبب دعمهم للغرب الكثير من الدماء المسلمة في العراق وسوريا وأفغانستان كلّ هذا وهم يرددون العلمانية لا تعارض الإسلام فلم يبقوا للإسلام إلا اسمه.

لقد فشلت تجارب الإسلاميين مع الديمقراطية ليس فقط فيما سبق بسطه من أمصار، ولكن أيضا في الأردن والكويت وفي باكستان والسودان وفي العراق وفلسطين حيث أضحت

الديمقراطية في الأخيرتين مجرد مشروع تطويع الإسلام السياسي للدخول في أنفاق سلطة خدماتية ما قامت إلا عبر اتفاقيات أمنية تحفظ أمن الاحتلال.

الخلاصة

وإن تكرر فشل هذه التجارب في انتهاج سبيل الديمقراطية لإقامة الحكم الإسلامي إنما هو دليل صارخ على أن طريق الإسلاميين طريق مسدود تماما، إما بوأده بالانقلابات وقوة السلاح أو بإجهاضه بالعمد وتبديد قواه قبل أن يرى النور وإما بسلخه تماما ليخرج من دائرة الإسلام! هذا إن قبلنا مزاعمهم في أنه أمر مقبول شرعا، فكيف إذا أضفنا لهذا الفشل حرمته شرعا ومناقضته للإسلام جملة وتفصيلا!

ثم بقراءة عميقة في هذه التجارب الفاشلة نستخرج حقيقة مهمة جدا، ألا وهي حقيقة صحوة إسلامية حقيقية تنشدها الشعوب المضطهدة رغم جميع محاولات السلخ من الدين التي سلطتها الأنظمة الوظيفية لتغريب الناس عن دينهم، وهذا ما يفسر نتائج الانتخابات بالأغلبية لكل ما يحمل اسم إسلامي.

كما نخرج بقاعدة أخرى مهمة جدا أيضا وهي أن التدخل الغربي وأنظمته الوظيفية أمر مسلم به ونتيجة حتمية أمام كل تجربة ديمقراطية للإسلاميين، لضمان تحجيمهم ولجم مشاركتهم إما قبيل استلامهم السلطة كما حصل في تجربة الجزائر أو بعد وصولهم لها كما حصل في تركيا ومصر أو بنسف جهود أصحابها قبل أن ترى النور كما حصل مع بقية التجارب ، ثم لن يرضوا عليهم إلا إذا انسلخوا تماما من دينهم وصاروا تبعا لهم بشكل كامل فيسقط عنهم توصيف "إسلاميين". ويصدق فيه قول الله تعالى (**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**).

وقد تكرر أمام أعيننا مسلسل التنازلات المخزي الذي قدمه الإسلاميون لتجاوز عنت السلطة و تلاعباتها لأجل حفظ حق ممارسة ما يمكن ممارسته من العبث الديمقراطي المهين. فأي إسلام بعدها يمثلون؟!

كما أن جميع الاسلاميين الذي قبلوا بشروط اللعب في حقل الديمقرطية كشفوا عن استعدادهم لأن يكونوا جزءا من السلطة عبر انتمائهم لأجهزتها التشريعية وجزءا من جهاز الحكم عبر تسلمهم الوزارات بل وصل الأمر إلى الانضمام لتحالفات السلطة من أجل محاربة التيارات المعارضة والنخبة الثائرة على الحكام وأعوانهم المستعمرين في الأمة. فكانت

صورة بشعة بحق بل مجرمة بحق الإسلام في سبيل الحكام الطواغيت.

هذا المسلسل في التنازل المخزي لم يقف عند هذا الحد بل أفضى إلى قبولهم الانضمام لحلف قوى النظام العالمي الجديد عن علم أو بسذاجة ليصبحوا مجرد أتباع لمتغلب كافر.

الإسلاميون المعتدلون وفق المعايير الغربية

وإن كنت سأوظف مصطلحا معاصرا يناسب الإسلاميين الذين ينادون بالديمقراطية المفلسة كمنهج لحكم المسلمين، فإن أنسب مصطلح لهم هو "الإسلاميون المعتدلون وفق المعايير الغربية" ذلك أنهم الأقدر على مغازلة الغرب، والخضوع لمنظومته وقوانينه، وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دَخلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لا تَّبعتُموهُم» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال «فَمَنْ» ؟.

نعم لقد تتبع دعاة الديمقراطية بشعارات إسلامية خطا الغرب الكافر فوصلوا للحكم ولم يصل معهم الإسلام ذلك أنهم باعوه بثمن بخس حين أخضعوه لرغبات البشر،

ولتجاربهم الفاشلة فشلا ذريعا، وكلما قدموه هو إعادة استنساخ الأنظمة الغربية العلمانية بعباءة إسلامية، وزادوا الطين بلة والمصيبة بلاء، حين أصبح أي فشل لهم ينسب للإسلام بينما هو في الواقع فشل أسملة العلمانية أو دمقرطة الإسلام لا غير.

فلا غرابة من أن يحظى هؤلاء الإسلاميون المعتدلون وفق المعايير الغربية بتشجيع ودعم الدولة الغربية ذلك أنهم الوسيلة الأفضل لقطع الطريق أمام العاملين لوصول الإسلام النقي من كل شوائب على خطى السلف الصالح لسدة الحكم ليسوس المسلمين كما يحب الله ويرضى، فآن الأوان على أقل تقدير أن نطوي سجل التجارب الفاشلة الثقيلة هذه بمقطاعة تامة لأي مشروع ينادي بالديمقراطية الإسلامية لأنها مجرد كذب وخداع وتلاعب بالدين لا يقدم مصلحة للأمة فضلا لأصحابها ولنخرج بشكل تام من دائرة التيه والعبث التي تستنزف وقتنا وجهودنا وأرواحنا في ما لا ينفع بل يضر ولنبحث عن طريق مفتوح يشع منه نور الإسلام ونحن نعلم يقينا أن نور الله لا يهدى لعاصي.

✿ ✿ ✿

مراجعة كتاب "ما وراء الديمقراطية"

صدر كتاب "ما وراء الديمقراطية" للكاتبين فرانك كارستن وكال بيكمان في عام 2012م، وترجمه حديثًا أنور عدنان بعد 8 سنوات من نشره.

الكتاب الذي عرض فكرته الرئيسية بعبارة "لماذا لا تؤدي الديمقراطية إلى الوحدة والرفاهية والحرية بل إلى عدم الاستقرار والصرف غير المسيطر عليه وحكومة استبدادية" شمل عبر أكثر من 100 صفحة: تمهيداً ومقدمة وفقرة بعنوان الديمقراطية: التابو الأخير، وأخرى عن الإيمان الديمقراطي، ثم تضمن الفصل الأول 13 خرافة من خرافات الديمقراطية، بينما تناول الفصل الثاني أزمة الديمقراطية، وخطاياها، وفقرة بعنوان لماذا تسوء الأمور باستمرار؟ وأخرى بعنوان: لماذا نحتاج إلى ديمقراطية أقل.

وفي الفصل الثالث عرض الكاتبان أفكارهما البديلة عن الديمقراطية تحت عنوان: نحو نموذج سياسي جديد، وعنوان آخر: اللامركزية في سويسرا، واختار الكاتبان الخاتمة تحت عنوان: مستقبل مشرق.

التمهيد

أشار الكاتبان في مطلع كتابهما إلى أن نقد الديمقراطية كما يحصل في هذا الكتاب قد يبدو للناس أمرًا غير منطقي بل وضربًا من الجنون. وفي الواقع هذا رد فعل طبيعي، فبعد سقوط الشيوعية ثم الاحتفال بالديمقراطية على أنها البديل الصحيح، وتلهف المضطهدون حول العالم لمزيد من الحرية والديمقراطية، فمن يجرؤ على الحديث ضدها؟

وأكد الكاتبان على أن انتقادهما للديمقراطية بشدة لا يعني أن البديل هو الديكتاتورية وحرمان الناس العيش في ظل نظام سياسي ينعمون معه بالحرية، كما أن المشاكل التي يعرضها الكاتبان في هذا الكتاب ليست بالضرورة خاصة بالديمقراطية فقط.

لذلك يشرح الكاتبان في هذا الطرح المشاكل الجذرية في الديمقراطية البرلمانية وأن المبادئ والمحركات في هذا النظام المشاد به بصورة كبيرة لا تؤدي إلى النتائج المطلوبة هذه الأيام.

والدليل على ذلك الأزمات التي تصاعدت في العديد من الدول الديمقراطية. خاصة في الولايات المتحدة واليونان وإسبانيا، حيث أن هذه المشاكل لا يتم تفسيرها بالنظام الديمقراطي

نفسه بل بالسوق الحر أو انعدام الديمقراطية أو المصرفيين الجشعين أو السياسيين الخونة.

وأوضح الكاتبان إلى أن هذه نتيجة طبيعية فجميعنا وقعنا ضحية النظام التعليمي والإعلام وسياسيينا الذين رسخوا بيننا مفهوم أن الديمقراطية هي شيء يجب أن يُعتز به ويتكاثر، وأنه ليس هناك بديل عقلاني له، لكن بعد دراستها والتفكر بها، توصل الكاتبان إلى استنتاج مختلف تمامًا عما ترسّخ لدى الناس.

كتاب "ما وراء الديمقراطية" ينقض مفاهيم الديمقراطية، ويؤكد على أنها نقيض الحرية فمن ملازمات الديمقراطية أنها تميل إلى مقدار أقل من الحرية وليس العكس. وهو أمر لا يمكن استدراكه أو إصلاحه لأن الديمقراطية نظام جمعي معطوب بصورة متأصلة كما هو الحال مع الاشتراكية.

وليست أول مرة يطرح فيها مثل هذه الأفكار غير المألوفة والفريدة من نوعها بشأن الديمقراطية فقد سبق وأن طرح هانز هيرمان هوب، كتابًا أكاديميًا بعنوان: "الديمقراطية الإله الذي فشل"، إضافة إلى بضعة مقالات قليلة جداً، كُتبت حول هذا الموضوع، لكن بحسب الكاتبان ليس هناك كتاب موجز ومنظم وسهل القراءة يظهر نقاط الضعف الملازمة لمحركات

الديمقراطية من منظور ليبرتاري محب للحرية مثل هذا الكتاب الذي جاء في أفضل وقت نظرًا لما تعانيه الكثير من الديمقراطيات من مشاكل اجتماعية واقتصادية يبحث لها الناس تفسيرات وحلول.

ويقول الكاتبان أن هذا الكتاب لا يلقي باللوم على السياسيين بل يلقي باللوم على النظام الديمقراطي نفسه. إذ أنه لا يمكن انتقاد السياسيين وقد تم انتخابهم. ومن الطبيعي أن يتصرفوا بقصور، فهم يعلمون أنهم في السلطة مؤقتًا لذلك يتصرفون بجشع، فيفرضون الضرائب بشكل زائد، ويقترضون الأموال أيضًا بشكل زائد، مدركين تمامًا أن من يخلفهم من أجيال هم من سيدفع الفواتير في المستقبل.

ثم هم يصرفون أموال الآخرين وليست أموالهم الخاصة، فماذا نتوقع منهم؟ وتساءل الكاتبان هل كنت لتتصرف بشكل أفضل في الكونجرس؟ والجواب: أشك في ذلك.

مقدمة

في المقدمة تناول الكاتبان تحت عنوان جانبي: "الديمقراطية التابو الأخير"، انتقادهما لمقولة: "إذا كانت هناك أي أمراض

تعاني منها الديمقراطية اليوم فإنه يمكن فقط الشفاء منها بمزيد من الديمقراطية".

ويناقش الكاتبان في هذا القسم كيف يرفض الكثيرون الاعتراف بأن النظام الديمقراطي البرلماني في أزمة. رغم أنهم غير راضين ومنقسمين بصورة عميقة، حيث يشتكي السياسيون أن المصوتين يتصرفون كأطفال مدللين، ويشتكي المواطنون من أن السياسيين مصابون بالصمم أمام رغباتهم. بل أصبحوا متلونين يغيرون انتماءاتهم من حزب سياسي إلى آخر بصورة روتينية، ويشعرون بالانجذاب إلى أحزاب راديكالية وشعبوية بصورة متزايدة.

أما الأحزاب فليس لديها إجابات وهي غير قادرة على تطوير بدائل حقيقية. أصحابها عالقون في هياكل حزبية صارمة مثالياتهم مسيطر عليها من مجاميع المصلحة الخاصة واللوبيات.

وفي نفس الوقت تقوم الحكومات الديمقراطية بعمل سيئ في تنفيذ ما يعتبره الكثيرون مهمتها الأكثر أهمية ـ المحافظة على القانون والنظام ـ، فالجريمة والتخريب غير مسيطر عليهما، والشرطة ونظام العدالة لا يمكن الوثوق فيهما، وغالبًا ما يكونان فاسدين بصورة كاملة.

الإيمان الديمقراطي

رغم أن أزمة الديمقراطية معترف بها بصورة واسعة لا يوجد نقد للنظام الديمقراطي نفسه على وجه التقريب بحسب الكتاب. وفي الحقيقة فإن انتقاد فكرة الديمقراطية هي إلى حد ما محرمة في المجتمعات الغربية. ليس من المبالغة أن نقول أن الديمقراطية أصبحت دينًا، دينًا علمانيًا حديثًا كما لخص ذلك الكاتبان.

ويمكنك أن تطلق عليها "الدين الأكبر في العالم" فالله والكنيسة تم استبدالهما بالدولة كأب مقدس للمجتمع والانتخابات هي الطقوس التي نصلي بها للدولة للحصول على التوظيف والسكن والصحة والأمن والتعليم.

ويرى الكتابان أن "العقول الشريرة جدًا" فقط هي التي تجرؤ على الحديث ضد فكرة مقدسة كهذه كما هو واضح، مشيرًا بين قوسين إلى "الإرهابيين والأصوليين والشيوعيين".

الديمقراطية – الجمعية

وتحت عنوان الديمقراطية الجمعية، أكد الكاتبان على أن الديمقراطية البرلمانية تمتلك عقبات أكثر بكثير من ميزاتها. فهي غير عادلة تؤدي إلى البيروقراطية والجمود، وتقوّض

الحرية والاستقلال والمشاريع، وتؤدي بالضرورة إلى الخصومة والتدخل والخمول والصرف الزائد، والأمر ليس كذلك لأن سياسيين معينين يفشلون في تأدية وظائفهم، أو لأن الحزب الخطأ في السلطة، بل لأن "هكذا يعمل النظام".

وناقش الكاتبان كيف أن الديمقراطية بالتعريف هي نظام جمعي، أي أنها اشتراكية من الباب الخلفي. وبعبارة أخرى في الديمقراطيات كل بنية المجتمع معدة باتجاه الدولة.

كما ناقش الكاتبان خلاصة أن الحرية ليست نفسها الديمقراطية، وعرضا الأمثلة على ذلك. والبدائل الوحيدة التي يستطيع الناس تخيلها بحسب الكتاب هي أشكال من الدكتاتورية مثل النموذج الصيني أو شكل من أشكال القومية أو الأصولية.

لكن الديمقراطية لا تعني الحرية، إنها فقط بنفس المقدار، شكل من أشكال الدكتاتورية دكتاتورية الأغلبية والدولة. وليست هي مترادفة مع العدالة أو المساواة أو الوحدة أو السلام كما يؤكد الكاتبان.

الفصل الأول: خرافات الديمقراطية

الخرافة 1: كل صوت محسوب

تناول في ذلك الكاتبان كيف تحث الطبقة الحاكمة الناس على التصويت بصورة مستمرة، على أساس أنه التزام أخلاقي يضمن الحقوق، لكن ما يهمهم حقيقة الأمر هو أن نسبة تصويت عالية تعطيهم ختم الموافقة حقًا أخلاقيًا بأن يحكموا الناس.

وأشار إلى أن هنالك قسم من الناس يرفضون أن يصدقوا وهم التأثير الذي تبيعه الديمقراطية، أما من لا يزال مغرمًا بالديمقراطية فيصفهم الكتاب بإنهم يعانون متلازمة ستوكهولم، "لقد أصبحوا يحبون سجانيهم بدون أن يدركوا أنهم يتبادلون استقلالهم بالسلطة التي يملكها السياسيون والمدراء عليهم".

الخرافة 2: الشعب يحكم في الديمقراطية، هل حقًا يحكم الشعب في الديمقراطية؟

ويوضح الكتاب بأن المشكلة الأولى هي أن الشعب غير موجود، وهنالك فقط ملايين من الأفراد بنفس العدد من الآراء والمصالح، كيف يستطيعون أن يحكموا سويًا؟ إنه أمر

مستحيل. ثم ليس الشعب الذي يقرر في الديمقراطية بل أغلبية الناس. ويبدو أن الأقلية لا تنتمي للشعب.

والديمقراطية نوعان: مباشرة وغير مباشرة (تمثيلية).

في المباشرة الكل يصوت على كل قرار يتخذ كما في حالة الاستفتاء، أما في غير المباشرة فيصوت الناس لأناس آخرين يتخذون قرارات بدلًا عنهم لاحقًا. وناقش الكاتبان في هذه الفقرة حجج الديمقراطية غير المباشرة لنقضها.

وأوضح الكتاب أن إرادة الناس ليست التي تحكم في الديمقراطية بل إرادة السياسيين محكومة بمجاميع ضغط محترفة وجماعات المصالح والنشطاء هي التي تحكم، شركات النفط الكبرى وشركات الزراعة الكبرى وشركات الأدوية الكبيرة والرعاية الصحية الكبرى والمجمع الصناعي العسكري وول ستريت كل هؤلاء يعرفون كيف يستميلون النظام لصالحهم.

ونخبة صغيرة تتخذ القرارات، غالبًا خلف الكواليس غير مهتمين لما يريده الشعب.

والخرافة الأخرى التي وصفها الكتاب هي أنه غالبًا ما يقال أن الديمقراطية تعتبر طريقة جيدة لتحديد سلطة الحكام، لكن في الحقيقة، الحكام يستطيعون أن يفعلوا كل شيء يريدونه.

الخرافة 3: الأغلبية على حق

يشرح الكتاب كيف أنه من الصعب رؤية كيف تؤدي العملية الديمقراطية بالضرورة إلى نتائج جيدة أو صحيحة. فكون الكثير من الناس يؤمنون بشيء، هذا لا يجعله صحيحًا. وهنالك الكثير من الأمثلة في الماضي عن الأوهام الجماعية، على سبيل المثال لا يصبح الأمر عادلًا أو صحيحًا أخلاقيًا فقط لأن الكثير من الناس معه كما يوضح الكاتبان.

والحقيقة المخجلة هي أن الناس على الأغلب يكونون في جانب الديمقراطية لأنهم يأملون أو يتوقعون أن يكونوا في جانب الأغلبية حيث يستطيعون الاستفادة من نهب ثروات الآخرين. وفي الديمقراطية الاعتبارات الأخلاقية تتغلب عليها إرادة الأغلبية، العدد يتغلب على الجودة، عدد الناس الذين يرغبون بشيء ما ينقض اعتبارات الأخلاق والعقلانية.

ونقل الكتاب قولًا للكاتب والسياسي البريطاني أوبيرون هيربيرت من القرن 19، يصف منطق وأخلاق الديمقراطية حيث يقول: "خمسة أشخاص في غرفة، لأن ثلاثة أشخاص لديهم وجهة نظر واثنين لديهم وجهة نظر أخرى، هل يمتلك الأشخاص الثلاثة أي حق أخلاقي لأن يفرضوا وجهة نظرهم على الاثنين الآخرين؟

ما هي القوة السحرية التي تأتي إلى الأشخاص الثلاثة بحيث لكونهم أكثر عددًا بشخص واحد من الاثنين الآخرين، ولذلك فجأة يصبحون ملاك عقول وأجساد هؤلاء الآخرين؟ طالما كانوا اثنين مقابل اثنين، لفترة طويلة قد نعتقد أن كل شخص بقى سيداً لعقله وجسده، لكن من اللحظة التي يقوم بها شخص متصرفًا السماء وحدها تعرب بأي دافع، بالانضمام إلى أحد الأطراف أو الآخر، ذلك الطرف يصبح فجأة مالك لأرواح وأجساد الطرف الآخر".

هل كان هناك على الإطلاق خرافة مهينة وغير مبررة بهذا الشكل؟!.

الخرافة 4: الديمقراطية محايدة سياسيًا

على عكس ما يبدو عليه الأمر مع الديمقراطية في الواقع تتبنى الديمقراطية اتجاهًا سياسيًا معينًا. وإذا أرادت الأغلبية (أو بالأحرى الحكومة) فإنهم يستطيعون أن يقرروا أننا جميعًا يجب أن نرتدي سراجًا عندما نمشي في الشارع لأن ذلك أكثر أمانًا، أو أن نلبس مثل المهرجين لأن ذلك يجعل الناس تضحك.

لذلك يؤكد الكتاب على أنه لا توجد حرية فردية مقدسة، مما يجعل الباب مفتوحًا لتدخل الحكومة المتزايد بشكل دائم. وفي

الواقع فإن التطفل الحكومي المتزايد دائمًا هو بالضبط ما يحصل في المجتمعات الديمقراطية.

باختصار، الديمقراطية في الواقع ليست محايدة سياسيًا، هذا النظام هو جمعي بطبيعته ويؤدي إلى تدخل حكومي أكثر وأكثر وحرية فردية أقل وأقل. وفي الحقيقة كما يوضح الكتاب، الديمقراطية في جوهرها أيديولوجيا شمولية، لا يوجد حرية مقدسة في الديمقراطية، كل ناحية في حياة الفرد هي معرضة لسيطرة الحكومة. وفي النهاية الأقلية هي كليًا تحت رحمة نزوات الأغلبية.

وحتى الدستور يمكن تعديله من قبل الأغلبية، الحق الأساسي الوحيد الذي تملكه في الديمقراطية إلى جانب الترشيح لمنصب، هو حق التصويت لحزب سياسي، بصوت واحد تسلم استقلالك وحريتك إلى إرادة الأغلبية. ويصل الكتاب إلى حقيقة أن مع الديمقراطية يجب أن تشتري ما اختاره الأغلبية سواء أحببت ذلك أو لم تحب.

الخرافة 5: الديمقراطية تؤدي إلى الازدهار

يعرض الكتاب الحقيقة في أن الدول الغربية ليست مزدهرة بسبب الديمقراطية بل هي مزدهرة بالرغم من الديمقراطية، ويعود ازدهارها إلى تقليد الليبرالية الذي يميز هذه البلدان.

وكنتيجة لذلك لا تملك الدولة السيطرة الكاملة على اقتصادها حتى الآن. ولكن هذا التقليد يتم إضعافه بصورة منتظمة من قبل الديمقراطية.

وناقش الكتاب في هذه الفقرة ما يسمى "تراجيديا المشاع". وأوضح أن الديمقراطية تعمل بنفس الطريقة، فالمواطنون مشجعون على أن يحصلوا على امتيازات على حساب الآخرين أو على أن يمرروا أعباءهم للآخرين.

ويُنتخب السياسيون لكي يتلاعبوا بهذا النظام، فهم يديرون الأملاك العامة، ولا يملكونها لذلك لا حاجة لأن يكونوا اقتصاديين، بل على العكس يدفعهم ذلك للصرف بأكبر قدر ممكن لنيل المديح ويدفع حلفاءهم الفواتير.

> فالأكثر أهمية بالنسبة إليهم من مصلحة البلد طويلة الأمد هو حاجتهم إلى إرضاء المصوتين.

أيضًا يدفعهم التفكير إلى أخذ أكبر مقدار ممكن طالما أصبحوا مسؤولين عن الخزائن العامة، ذلك أن بعد رحيلهم لا يمكنهم أن يغنوا أنفسهم. في هذا النظام الكارثي بحسب وصف الكاتبان، ديون الحكومات الضخمة هي نتيجة عجز الميزانيات الضخمة والذي ـ بدون مصادفة ـ تعاني منه كل البلدان الديمقراطية تقريبًا.

ويواصل الكاتبان: لكن العفن يمتد للعمق أكثر، فسياسيونا الديمقراطيون لا يجمعون الضرائب فقط ثم يضيعوها لاحقًا بل تمكنوا من تحقيق سيطرة على نظامنا المالي، من خلال البنوك المركزية مثل الاحتياطي الفيدرالي الأمريكي والبنك المركزي الأوروبي.

فالحكومات الديمقراطية تقرر ما الذي يمثل مالًا (العملة القانونية) وما هو مقدار المال الذي يتم صناعته ويتم ضخه للاقتصاد، وما مقدار معدل الفائدة. وفي نفس الوقت تقطع هذه الحكومات العلاقة التي كانت بين المال والورق والقيم الضمنية مثل الذهب. وبالتالي فإن كل الازدهارات المفاجئة يتبين لاحقًا أنها فقاعات تتلاشى عاجلًا أم آجلًا. وهذه الفقاعات تحدث فقط لأن الأسواق تم إغراقها بالديون السهلة وكل اللاعبين أمكنهم أن يحملوا الديون في جيوبهم.

لكن هذه الأطراف لا يمكن أن تستمر للأبد، فعندما يصبح من الواضح صعوبة إرجاع الديون، تنفجر الفقاعات وهكذا تحدث الركودات في الاقتصاد.

الخرافة 6: الديمقراطية ضرورية لضمان توزيع عادل للثروة ومساعدة الفقير

قدم الكتاب أمثلة عن الدول الديمقراطية بالأرقام لإثبات حقيقة هذه الخرافة، وكان الاستدلال بالأرقام والإحصاءات نقطة قوة في طرح الكاتبين، وضربا مثالًا بهولندا التي تعتبر دولة رفاه ديمقراطية تقليدية، حيث غرفة التخطيط الثقافي والاجتماعي (وهي وكالة حكومية) وصلت إلى استنتاج في تقرير منشور في أغسطس 2011، أن مجاميع الدخل المتوسط لسنة 2007 تحصل على مساعدات حكومية أقل من كل من مجاميع الدخل المتوسط والمرتفع، وفي الحقيقة وجد الباحثون أن مجاميع الدخل المرتفع تحصل على أكبر مقدار من مساعدات الحكومة!

والمفترض بحسب الكاتبان أننا نحتاج الديمقراطية لمساعدة الفقير بينما المحتاج هو ستار للمصلحة الشخصية للناس الذين ينتفعون من ماكينة إعادة التوزيع.

الخرافة 7: الديمقراطية ضرورية للعيش سوية بانسجام

في الواقع إذا جرى الكل وراء أهوائهم فقط، فإنكم لن تتمكنوا من العيش سوية، هكذا تقول المحاججة التي عرضها الكاتبان.

فآلية اتخاذ القرار الديمقراطي غالبًا ما تولد الصراعات، هذا لأن جميع أنواع القضايا الشخصية والاجتماعية يتم تحويلها إلى قرارات جماعية في الديمقراطية. وذلك من خلال إجبار الناس على الالتزام بالقرارات الديمقراطية، وبالتالي تؤدي الديمقراطية إلى علاقات عدائية بين الناس بدلًا من أن تكون وفاقية.

وأشار الكتاب إلى أن القادمين الجدد في السياسة الذين يُحتفى بهم في البداية كمنقذين دائمًا ما يخيبون آمال الناس في النهاية، ولا يوجد سياسي يستطيع أن يحقق المستحيل رغم حجم الوعود التي يقطعها في بدايته.

ونقل الكتاب قول الكاتب الأمريكي إتش أل مينكن حيث قال: "ما يثمنه الناس في هذا العالم ليس الحقوق، بل الأفضليات". وأضاف:

الرغبــة في إنقــاذ البشــرية هي تقريبًــا في كــل الحالات خداع في سبيل الرغبة بالحكم.

وأضاف الكتـاب: "نحن" هي الكلمـة المعتـدى عليهـا بالمقـدار الأكبر في الديمقراطية، مؤيدو خطوة ما دائمًا مـا يقولـون "نحن نريد شيئًا"، "نحن يجب أن نقوم بشـيء مـا"، "نحن نحتـاج إلى شـيء مـا"، "نحن نملـك الحـق"، كمـا لـو أن الجميـع يوافقـون بصورة طبيعية، وما يعنونه بـذلك في الحقيقـة هـو أنهم يريـدون ذلك لكن فقط لا يريدون أن يتحملوا المسؤولية بأنفسهم.

وضـرب مثـالًا على ذلـك كيـف أن النـاس سـيقولون: يجب أن نسـاعد العــالم الثـالث، أو يجب أن نحــارب في أفغانســتان، ولكنهم أبدًا لا يقولون: أنا ذاهب إلى مساعدة العـالم الثـالث من معي؟ أو أنا ذاهب إلى مقاتلـة طالبـان، لهـذا الديمقراطيـة تقـدم طريقـة مناسـبة لإلقـاء المسـؤولية الشخصـية على الآخـرين من خلال قول "نحن" بدلًا من "أنا" فـ 99.999% من عبء القرار يقع على عاتق الآخرين.

ومـا يسـمى بالوحـدة في الديمقراطيـة يوضـح الكتـاب، هـو في النهاية مبني على القـوة، لكن الوحـدة الجبريـة هي حقيقـة شـيء متنــاقض بذاتــه، لكي تكـون الوحــدة حقيقيــة فإنهــا يجب أن تتضـمن عملًا تطوعيًـا، لا تسـتطيع أن تقـول أن شخصًـا مـا تم

سرقته في الشارع، أظهر الوحدة مع السارق مهما كانت أهداف السارق نبيلة.

في الحقيقة ـ يلخص الكتاب ـ أولئك الذين يستخدمون النظام الديمقراطي لكي يفرضوا الوحدة يقومون بذلك لأنه لا يجب عليهم أن يدفعوا لذلك بأنفسهم. ويؤكد الكتاب على أنه لا يوجد تبرير لإجبار بقية الناس على أن يقوموا بنفس الشيء الذي تريده.

الخرافة 8: الديمقراطية لا مفر منها من أجل الإحساس بروح المجتمع

في الديمقراطية أي اختلاف في الرأي يؤدي إلى صراع من أجل السلطة والموارد مع ربح إحدى المجموعات على حساب الآخرين. فالكل يقدم مطالب للدولة والدولة تجبر المواطنين الآخرين على أن يلبوا هذه المطالب.

ويبين الكتاب أنه من الصعب أن يكون الأمر غير ذلك لأن الدولة بغض النظر عن أي شيء هي مجرد أداة للسلطة تعمل بالإكراه.

ونتيجة هذا النظام يصبح الناس مدللين، ويطالبون دومًا بالمزيد من حكامهم ويشتكون إذا لم يحصلوا على ما يريدون. وفي

نفس الوقت فإنهم لا يملكون خيارًا سوى المشـاركة في النظـام. لأنهم إذا لم يقوموا بذلك سيتم انتزاع المال منهم بالقوة على يد بقية السكان.

بهـذه الطريقـة يقـوض النظـام اعتمـاد النـاس على أنفسـهم أي قدرتهم على إعالة أنفسـهم. في نفس الـوقت فإنـه يقـوض رغبـة النـاس بمسـاعدة الآخـرين، بمـا أنهم بالفعـل مجـبرين على أن يسـاعدوا الآخـرين. وعقليـة النـاس اليـوم أصـبحت ديمقراطيـة جدًا، فلم يعودوا يدركون حتى كم أصـبحت أفعـالهم وأفكـارهم لا اجتماعية.

ويطـرح الكتـاب السـؤال: هـل الديمقراطيـة ضـرورية من أجـل هكذا إحساس بالوحدة؟ والجواب: من الصعب أن نفهم لماذا.

فعندما تتحدث عن مجتمع ما فأنت تتحدث عما هـو أكـثر من نظـام سياسـي، يتشـارك النـاس مـع بعضـهم اللغـة والثقافـة والتـاريخ، كـل بلـد لديـه أبطالـه التـاريخيين ومشـاهيره ونجومـه الرياضيين وكذلك أدبه وقيمـه الثقافيـة وقيمـه الأخلاقيـة ونمـط حياته، ولا واحدة من هذه مرتبط بالنظام الديمقراطي، كل ذلـك تواجد قبل أن يكون هناك ديمقراطية، ولا يوجد سبب للاعتقاد أن ذلك لا يستطيع أن يستمر بلا ديمقراطية.

وفي نفس الوقت لا يمتلك أي بلد ثقافة موحدة تمامًا، داخل كل بلد هنالك اختلافات كبيرة بين الناس. فهناك الكثير من المجتمعات المناطقية والإثنية التي لديها روابط قوية مشتركة ولا يوجد شيء خاطئ في ذلك أيضًا، فداخل إطار المجتمع الحر يمكن أن تتوجد كل هذه التكوينات الاجتماعية والتجمعات السوية.

والفرق بين هذه التجمعات الاجتماعية والديمقراطية هو أن الديمقراطية منظمة تكون العضوية فيها إجبارية. والتجمع الحقيقي يكون مبنيًا على الاشتراك الطوعي.

الخرافة 9: الديمقراطية تعني الحرية والتسامح

واحدة من الخرافات الأكثر استمرارًا حول الديمقراطية هي أنها نفس "الحرية"، فبالنسبة للكثير من الناس الحرية والديمقراطية يأتيان سوية كما النجوم والقمر، لكن في الحقيقة الحرية والديمقراطية متعاكستان، ففي الديمقراطية يجب أن يخضع الكل لقرارات الحكومة، كون الحكومة منتخبة من قبل الأغلبية، والإكراه هو الإكراه، سواء كان يُنفذ من قبل الأغلبية أو من قبل حاكم واحد.

ويوضح الكتاب أنه في الديمقراطية لا أحد يستطيع أن يهرب من القرارات المتخذة من قبل الحكومة. إذا لم تطع سيتم تغريمك، وإذا رفضت دفع الغرامة سينتهي بك المطاف في السجن، لا يوجد فرق بهذا المعنى لا يوجد فرق أساسي بين الديمقراطية والدكتاتورية.

والحرية يوضح الكتاب تعني أنه لا يجب عليك أن تقوم بما يريده غالبية نظرائك البشر، بل أن تستطيع أن تقرر بنفسك كما قال الاقتصادي جون تي فيندرز ذات مرة: "هنالك فرق بين الديمقراطية والحرية، الحرية لا تقاس بفرصة التصويت، بل يمكن قياسها بمدى ما لا نصوت عليه".

وفي الديمقراطية لا يجب عليك أن تفعل ما تخبرك به الحكومة فقط بل تحتاج إلى رخصة من الحكومة من أجل أي شيء تفعله أنت أساسًا. وكل الحريات التي نملكها في الأمة الديمقراطية هي ممنوحة من قبل الدولة، وقد تأخذ منا في أي وقت.

القصد هو أنه لا يوجد شيء في النظام الديمقراطي بذاته أو في مبدأ الديمقراطية يضمن حقوق الأقليات. ومع ذلك فإن الكثير من الناس لا تريد التخلي عن هذه الحريات بالرغم من أن روح الحرية تتآكل بسبب التطفل الديمقراطي.

وسلط الكتاب الضوء على حقيقة أنه في أجزاء أخرى من العالم الناس أقل ارتباطًا بالحريات الشخصية، والعديد من الديمقراطيات اللاغربية لا تبالي بالحرية الفردية، وضرب الكتاب مثلا على انتخاب الفلسطينيين في قطاع غزة ديمقراطيا من وصفهم بـ"الأصوليين غير المحبين للحرية كثيرا" حماس، "والتي حينها ويا للسخرية، لم يتم قبولها من الولايات المتحدة والحكومات الديمقراطية الغربية الأخرى"، رغم أنها جاءت عن طريق الديمقراطية.

الخرافة 10: تشجيع الديمقراطية على السلام وتساعد في محاربة الفساد

يوضح الكاتبان أن الديمقراطيات غالبا ما تظهر على أنها دعوات حروب إلى حد كبير، فالولايات المتحدة الديمقراطية الأقوى في العالم، بدأت عشرات من الحروب، ونفذت الحكومة الأمريكية انقلابات عديدة وأسقطت حكومات ودعمت دكتاتوريين وأسقطت قنابل على مدنيين مسالمين، بل وحتى قنابل ذرية.

كما تمتلك الولايات المتحدة حاليًا قوات في أكثر من 700 قاعدة عسكرية في أكثر من 100 بلد منفقة على الدفاع بقدر بقية دول العالم مجتمعة تقريبًا.

وكذلك اخترعت "بريطانيا الديمقراطية" معسكرات الاعتقال (كما في جنوب إفريقيا) وكانت الدولة الأولى التي قمعت المعارضة القومية في مستعمراتها بواسطة القصف الجوي، مدمرة قرى كاملة (كما في العراق في العشرينات).

ونسخة أخرى من هذه الخرافة تدعي أن الديمقراطيات لا تبدأ حربا ضد بعضها، بينما في الحقيقة ومنذ الحرب العالمية الثانية عدد كبير من البلدان الغربية والتي تصادف كونها ديمقراطيات، كانت ولا تزال موحدة في حلف الناتو وتظهر رغبة قليلة في مهاجمة بعضها، لكن هذا لا يعني أن هذا مرتبط مع الديمقراطية أو أنه تاريخيًا كانت الديمقراطيات مسالمة تجاه بعضها.

وضرب الكتاب أمثلة للحروب وأوضح أن الديمقراطية لا تجلب بالضرورة شفافية أكثر أو تحمل مسؤولية، كما يتم الادعاء غالبًا.

وأوضح الكتاب أن في الواقع حقيقة أن السياسيين يحتاجون إلى الأصوات لكي يتم انتخابهم تشجع الفساد، إنهم يحتاجون

إلى أن يفعلوا شيئًا من أجل ناخبيهم لكي يربحوا الأصوات. هذا النوع من الفساد منتشر في الولايات المتحدة بالذات، سياسة إغراء الناخبين.

فالسياسيون الأمريكيون على الأغلب لا يتوقفون عن فعل أي شيء لكي يحصلوا على التمويلات الفيدرالية أو البرامج لأجل ولاياتهم ومناطقهم بالإضافة إلى ذلك يميلون إلى أن يكونوا جنود شطرنج لمنظمات الضغط القوية، التي تزودهم بالمال من أجل حملاتهم الانتخابية المكلفة، بالإضافة إلى ذلك، الأبواب الدائرة في واشنطن أصبحت مشهورة، حيث ينتقل الأشخاص ذوي النفوذ من السياسة إلى عمل الأعمال أو الجيش وبالعكس بدون أي خجل.

وبلدان ديمقراطية أخرى تشهد أشكال مشابهة من الفاسد، بينما في الدول النامية تسير الديمقراطية تقريبا دائما يدًا بيد مع الفساد، ونفس الشيء ينطبق على بلدان مثل روسيا وإيطاليا وفرنسا واليونان، فالفساد تقريبًا لا مفر منه أينما ملكت الدولة الكثير من السلطة بغض النظر عن النظام السياسي، وهذا بالتأكيد يشمل الديمقراطية.

الخرافة 11: يحصل الناس على ما يريدون في الديمقراطية

الواقع مختلف عما تروجه الديمقراطية، كيف يعمل النظام الديمقراطي، فالتعليم يدار من خلال النظام الديمقراطي، وهذا يعني أن السياسيين والبيروقراطيين يحددون كيف يتم تنظيم التعليم وكم مقدار المال الذي يصرف عليه.

وبعد عرض النظام الاشتراكي للاتحاد السوفيتي خلص الكاتبان إلى أن الديمقراطية تؤدي حتمًا إلى درجة من الاشتراكية. وما ينطبق على التعليم ينطبق على قطاعات أخرى يتم التحكم بها ديمقراطيًا، مثل الرعاية الصحية والسيطرة على الجريمة.

والديمقراطية لا تقوم بإيصال ما يريده الناس، فالناس يصوتون للسياسيين الذين يعدون بمقاومة الجريمة لكن النتيجة هي عادة ما تكون النتيجة مجرد عدم أمان أكثر بدلا أن يكون أقل.

وسلط الكتاب الضوء على الأداء الضعيف للشرطة كنتيجة مباشرة لحقيقة أنها يتم التحكم بها ديمقراطيًا، فقد تم منح الشرطة احتكارا في مجال تنفيذ القانون، والشرطة هي منظمة تستلم أموالا أكثر كلما قل عدد المجرمين الذين يقبضون

عليهم، وبالتـالي إذا نجحت الشـرطة في تقليـل الجريمـة سـيتم تقليص ميزانيتها وسيخسر منتسبو الشرطة وظائفهم.

وأوضـح الكاتبـان أنـك إذا أردت إثبـات أن الديمقراطيـة لا تفي بوعودها فكر كيف أنه في كل انتخابـات يعـترف السياسـيون أن الحكومة قد خلقت الفوضى، وفي كل مرة يعدون الشعوب أنهم سيغيرون كل شيء، التعليم والأمن والرعاية الصـحية وإلى آخـره للأفضل، لكنهم دائما يقدمون نفس الحل: "أعطونا أموالا أكـثر وسـلطة أكـثر وسنصـلح المشـاكل"، لكن هـذا لا يحصـل على الإطلاق بالطبع لأن سبب المشاكل يرجع لمـال وسـلطة هـؤلاء السياسيين.

الخرافة 12: جميعنا ديمقراطيون

إذا كـانت الديمقراطيـة تفشـل في إيصـال مـا يريـده النـاس في الحقيقــة، يتســاءل الكاتبــان: لمــاذا لا يــزال معظم النــاس يـدعمونها، أليس لأن كـل مـواطن صـحيح التفكـير ديمقراطيًـا، بالرغم من أنه قد يتذمر من الحكومة أحيانًا؟

ويوضحان لاحقًا أن الجملة الثانيـة قابلـة للجـدل، فيمـا إذا كـان الناس حقًا يؤمنون بشيء لا يعتمد على مـا يقولونـه بـل على مـا يفعلونه عندما يكون لديهم حرية الاختيار.

والشخص الذي يعيش في دولة ديمقراطية ويقول أنه مؤيد للديمقراطية يبدو مثل مواطن في الاتحاد السوفيتي السابق، فهو يقول أنه سيختار سيارة "لادا" حتى لو كان لديه الخيار لاختيار سيارة "شوفرليت" أو "فلوكسفاكن"، قد يكون ذلك صحيحًا لكن ليس على الأرجح، بل هو مثل المواطن السوفيتي، الذي لم يكن يملك خيارًا سوى سيارة "لادا". نحن لا نملك خيارًا سوى الديمقراطية.

وبعد مناقشة هذه الفكرة يصل الكاتبان إلى خلاصة: "من أجل أنفسنا ونظرائنا حول العالم، يجب علينا أن ندعو للحرية، وليس للديمقراطية لأننا وصلنا إلى حيث يفعل مجلس نواب محتال أي شيء يستطيع أن يجمع عليه تصويت أغلبية".

أسباب ميل الناس إلى دعم الديمقراطية

يتساءل الكاتبان: لماذا كلنا نعتقد أننا جميعا ديمقراطيين؟ والجواب بالتحديد: هو أنه يتم إخبارنا أننا كذلك، فمدارسنا وإعلامنا وسياسيونا، جميعهم يقومون بإيصال رسالة بأن البديل الوحيد الممكن للديمقراطية هو الديكتاتورية، بالنظر إلى هذه المكانة "الإلهية"، كحصن ضد الشر، من سيجرؤ على أن يكون ضد الديمقراطية؟

الخرافة 13: لايوجد بديل أفضل للديمقراطية

يتناول الكتاب قضية ما إذا قلت أنك ضد الديمقراطية، فيشك الناس فورًا أنك مؤيد للديكتاتورية، لكن هذا هراء بحسب الكاتبان، فالديكتاتورية ليست البديل الوحيد للديمقراطية.

ونقل الكتاب قول ونستون تشرشل:"الديمقراطية هي الشكل الأسوأ للحكم من عدا أن كل الأشكال الأخرى التي تم تجريبها" وكذلك قال فرانسيس فوكوياما في كتابه الشهير نهاية التاريخ والإنسان الأخير: "عولمة الديمقراطية الغربية الليبرالية كشكل النهائي للحكم الإنساني" افتراضيًا لم يكن هناك شيء أفضل.

وبهذه الطريقة أي انتقاد للديمقراطية يتم إجهاضه في المهد. وفي الحقيقة الاتجاه في هذه البلدان هو إلى حد ما العكس، أي نحو مركزية أكثر وأكثر.

فأوروبا تتحول إلى مركزية أكثر لدرجة أن الألمان يستطيعون أن يقرروا كيف على اليونان أن يعيشوا وبالعكس؟ وفي هذه الديمقراطية الضخمة يمكن لبلدان أن تلقي بعبء عواقب سياساتها الاقتصادية قصيرة النظر على سكان البلدان الأخرى، بالضبط كما يستطيع المواطنون في الديمقراطية الوطنية أن يعيشو على ظهور المواطنين الآخرين. وذلك هو منطق الديمقراطية على المستوى الأوروبي.

وكلما كبرت الدولة الديمقراطية كلما أصبح السكان أكثر تباينًا، وازداد التوتر الذي سينشأ.

ويتساءل الكاتبان: لماذا لا يستطيع الناس أن ينظموا أنفسهم بطريقة تختلف عن ما هو موجود في الدول التي يحكم فيها الشعب في المجتمعات الأصغر على سبيل المثال؟ ويناقش الكاتبان: لكن اللامركزية يتم معارضتها بشدة من قبل حكامنا الديمقراطيين بل وحتى تصبح مستحيلة، فإذا كانت الديمقراطية نظاما جيدا حقا فالمفروض أن تتوقع إمكانية أن تتيح للناس الاختيار بين الانضمام طوعا إلى الأمة الديمقراطية أو الانسحاب، لكن ليس هذا ما هو عليه الحال.

ويرى الكاتبان أنه كلما صغرت الوحدات الإدارية كان الناس أكثر تجانسا وازدادت فرصة أن يكون الإفراط في الديمقراطية محدودًا. ويسمح ذلك بخلق روح التنافس بين المناطق مع بعضها وسيتم تقريب القوانين إلى ما يريده الناس وسيصبح الحاكم أكثر حركية وأقل بيروقراطية. كما يمكن للمناطق أن تتعلم من بعضها لأنه يمكن لكل منها أن تجرب سياسات مختلفة.

الفصل الثاني: أزمة الديمقراطية

لخص الكتاب في هذا الفصل حكايـة الديمقراطيـة الـتي بـدأت كنموذج رائـع لتقويـة الشـعب لكن بعـد 150 سـنة من التطـبيق بانت نتائجها التي ليست إيجابيـة، وأصـبح من الواضـح الآن أن الديمقراطية هي قوة استبدادية بدلًا من أن تكون تحررية.

كما تتبعت الديمقراطيات مسار الـدول الاشـتراكية، وأصـبحت غير فعالة وفاسدة وقمعية وبيروقراطية. وهذا ليس لأن النمـوذج الديمقراطي تم تخريبه بل على العكس بسبب الطبيعـة الجمعيـة الكامنة في هذا النموذج.

خطايا الديمقراطية

يسلط الكتـاب الضـوء على حقيقـة أن الشـعب سيصـبح متعلقًـا بالحكومـة بشـكل متزايـد، وأكـد أن هـذه الطريقـة في الواقـع لا تستطيع أن تعمل على الإطلاق، فلا تستطيع الحكومة أن تحقق كل المطـالب، وفي النهايـة سـيقوم السياسـيون بالشـيء الوحيـد الذي يستطيعون فعله: وهو:

•رمي المال على المشاكل.

•إنشاء قواعد وأنظمة جديدة.

.إنشاء لجان للإشراف على تطبيق قواعدهم•

وفي الحقيقة لا يوجد شيء يستطيعون فعله، فكسياسيون هم لا يستطيعون حتى أن يدفعوا فواتير فعالياتهم، والتي يتم تركها لدافعي الضرائب ليقوموا بدفعها.

ويخلص الكاتبان في هذا القسم إلى أنه يمكن للإنسان أن يشاهد عواقب هذا النظام حوله كل يوم: البيروقراطية، الطفيلية، جنون العظمة، دولة الرفاه، السلوك الضد اجتماعي والجريمة، المستوى المتوسط والمعايير المنخفضة، وقصر المدى.

لماذا تسوء الأمور باستمرار

هناك الكثير من الناس الذين يملكون مصلحة راسخة في استمرار هذا النظام الديمقراطي بحسبما أوضح الكتاب، وبينما تكبر الحكومة ببطء، تنمو هذه المجموعة معها.

ونادرًا ما يتم تحميل السياسيين مسؤولية الأفعال التي قاموا بها وتبين أنها ضارة على المدى البعيد، بل يحصلون على المديح بسبب نواياهم الطيبة والنتائج الأولية والإيجابية لبرامجهم.

أما العواقب طويلة الأمد (كالديون التي تحتاج إلى أن يتم إعادة دفعها) ستكون مسؤولية خلفائهم. بالمقابل يمتلك السياسيون دافعًا قليلًا للعمل على البرامج التي تؤدي إلى نتائج بعد

مغـادرتهم المنصـب، لأن القـادة المسـتقبليين سيحصـلون على التقدير بسببها. لهذا تصرف الحكومات الديمقراطية أموالًا أكثر مما تستلم دائمًا.

إنهم يحلون المشكلة من خلال فرض الضرائب، أو هناك طريقة أحسن من ذلك لكون الناس يستاءون من دفـع الضـرائب، وهي طريقة اقتراض المال أو طباعته ببساطة.

وبالرغم من كل المشـاكل الـتي تجلبهـا الديمقراطيـة لنـا، يقـول الكاتبان:

> نسـتمر بالأمـل والاعتقـاد أنـه بعـد الانتخابـات القادمة كل شـيء سـيتغير، وهـذا يجعلنـا عـالقين في دائرة مفرغة.

وشبه الكتاب المواطـنين في الديمقراطيـة مثـل مـدمني الكحـول الذين يحتاجون إلى أن يشربوا المزيد دائمًا كي يشعروا بالثمالة.

لماذا نحتاج إلى ديمقراطية أقل؟

السؤال الذي يطرحـه الكاتبـان: إلى مـتى يمكننـا الاسـتمرار على هذا الوضع، مع الأخذ بعين الاعتبـار عـدم الرضـا في المجتمـع وعدم القدرة في النظام السياسي والاقتصادي.

لحسن الحظ ـ يجيب الكاتبان ـ هناك طريق آخر، بالرغم من أن الكثير من الناس قد يجدون من الصعب تخيله، والطريق هو ديمقراطية أقل، حرية فردية أكثر.

الفصل الثالث: نحو نموذج سياسي جديد

وفي الفصل الثالث والأخير تناول الكتاب كيف سيبدو هذا النموذج الليبرتاري عند التطبيق. ويوضح الكاتبان أنه من الوهم الاعتقاد بأن المشاكل التي يواجهها مجتمعنا يمكن حلها بالمزيد من الديمقراطية، والوهم الأكبر أن نعتقد بأن الديمقراطية هي النظام الأفضل من بين كل الأنظمة المقترحة.

وأن الإيمان الأعمى بالديمقراطية في مجتمعنا ليس بديهيًا، إنه في الحقيقة ظاهرة جديدة إلى حد كبير. وأن معظم المثقفين المحافظين والليبراليين الكلاسيكيين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر من ضمنهم مفكرين مشهورين كانوا معارضين للديمقراطية.

يقول إدموند بيرك: "من هذا أنا متأكد أنه في الديمقراطية غالبية المواطنين يصبحون قادرين على ممارسة الاضطهاد الأكثر وحشية على الأقلية .. وأن اضطهاد الأقلية سيتمدد إلى عدد

أكبر بكثير وسيتم تنفيذه بضراوة كبيرة، ذلك يمكن على الدوام تقريبًا إيقافه من قبل حكم ملك واحد".

وقال توماس ماكلولي المفكر البريطاني الليبرالي الشهير: كنت لفترة طويلة ولا زلت مقتنعا أن المؤسسات الديمقراطية الخاصة لابد أن تدمر الحرية أو الحضارة أو كليهما عاجلا أم آجلا".

وبعد عرض تطور الفكر الديمقراطي تحت عنوان "اللامركزية والحرية الفردية" يقول الكاتبان: هل البديل للديمقراطية ممكن؟ مجتمع بدون دولة مهيمنة، بدون حكم الأغلبية، مجتمع تعاوني وحر؟ والجواب: قطعًا ممكن. فهكذا بديل هو ضروري بصورة ملحة إذا لم نرد أن ننحدر إلى الطغيان والركود.

ويرى الكاتبان أن العالم الغربي يحتاج إلى نموذج جديد، نموذج يجمع بين الحركية والحرية الفردية مع الانسجام الاجتماعي. وهو أمر يمكن تحقيقه بحسب الكتاب، والشيء الأول الذي يجب فعله هو تقليل دور الحكومة، فالناس يحتاجون إلى الحصول من جديد على حق التحكم في حياتهم وثمرات عملهم بدون التدخل والقواعد وفرض الضرائب. أي سيخلق الناس مجتمعات آمنة وقابلة للحياة ومستدامة.

وتحت عنوان "سوق للحكم"، نقل الكاتبان قول باتري فريدمان حفيد ميلتون فريدمان، الفائز بجائزة نوبل:"الحكومة هي قطاع ذو موانع دخول عالية، في الحقيقة يجب عليك أن تفوز في الانتخابات أو تقوم بثورة لكي تجرب شكلا جديدا من أشكال الحكومة".

واللامركزية بحسب الكاتبان ستكون نافعة للعديد من المجاميع في المجتمع، مع الاستقلال المحلي، فالمفكرون التقدميون يمكنهم تطبيق أفكارهم التقدمية والمفكرون المحافظون يمكنهم فعل نفس الشيء مع قيمهم، بدون إجبار الآخرين على تعديل طريقتهم في الحياة.

والناس الذين يريدون العيش في مجتمع يراعي البيئة يمكنهم أن يعيشوا وفق أحلامهم، وعلى حسابهم. فمقاربة حجم واحد يلائم الجميع غير ضرورية وغير مرغوب بها كما خلص الكتاب. واللامركزية على عكس الديمقراطية الوطنية هي نظام عش ودع الآخرين يعيشون.

ولهذا النظام المقترح مزاياه، فالتنوع في الحكم يسمح للناس أن يقرروا بصورة أسهل تحت أي نظام حكم يرغبون في العيش، يستطيعون الذهاب إلى بلدة أخرى أو بلد آخر إذا رغبوا بحكم مختلف، وهكذا تنافسية تضمن أن يتم تحميل الحكام

المسئولية والذي نادرا ما يحدث حينما يتم تقييد تأثير المواطن بانتخابات كل أربعة سنوات.

وناقش الكتاب بعد هذا الطرح المطول "اللامركزية في سويسرا" مسلطًا الضوء على نجاح سويسرا بفضل اللامركزية رغم أنها دولة ديمقراطية ولكن ـ يشدد الكاتبان ـ هذا لا يعني الدعوة للمثال السويسري كنموذج أو خيار وحيد، بل إنه مثال على كيفية عمل الحكم اللامركزي وكيف أنه يؤدي إلى ضرائب أقل وحرية فردية أكثر ولا يعني هنا أن الديمقراطية هي بالضرورة شيء جيد طالما كانت في مكان صغير.

وقال الكاتبان:

> في الماضي لم يستطع الناس تخيل حياتهم بدون ملك، والآن ننظر إلى الديمقراطية بنفس الطريقة.

وضرب الكاتبان مثلا عن طبيعة نظام الحكم الذي يقترحانه كبديل للديمقراطية حيث أن المجتمع الحر والنموذجي سيكون مشابها للنموذج المبني على أساسه الأنترنت، ومع الأنترنت فقط عدة قواعد بسيطة تنطبق، والباقي مفتوح للجميع لكي يشاركوا بالطريقة التي يرونها مناسبة، والقاعدة الرئيسية هي

التواصل عبر بروتوكول (تي سي بي، أي بي) والذي أثبت أنه يعمل جيداً بصورة رائعة.

وتحت عنوان "الطريق إلى الحرية"، يوضح الكتاب أنه إذا كان التقدم التكنولوجي إشارة إلى التنمية المستقبلية، فإمكانيات اللامركزية واحدة، وفي الحقيقة التكنولوجيا هي القوة الديمقراطية الحقيقة، أكثر من النظام الديمقراطي نفسه.

وباختصار يوضح الكتاب فكرته كالتالي: إن دولة الشعب الديمقراطية الكبيرة يجب أن تفسح المجال لوحدات سياسية أصغر يختار المواطنون فيها الطريقة التي يريدون أن يشكلوا بها مجتمعهم بأنفسهم، طالما كان ذلك ممكنا، يجب اتخاذ القرار حول القضايا محليًا على أصغر مستوى إداري ممكن. وحتى إذا كان هذا يعني نهاية الاتحاد الأوروبي فسيكون ذلك أفضل بكثير.

فالاتحاد الأوروبي ـ يفسر الكاتبان ـ يمثل ما هو عكس اللامركزية، إنه النموذج المثالي للمركزية، طاغوت بيروقراطي غير قابل للعمل، حيث الحرية الفردية يتم تهديدها أكثر حتى من الديمقراطية الوطنية، كلما كان وقت محوه أقرب كلما كان ذلك أفضل.

مستقبل مشرق

يبدو المستقبل مشرقًا بحسب كتاب "ما وراء الديمقراطية"، فقد راكم البشر معرفة هائلة وقدرة ضخمة على الانتاج أكثر من كافية لخلق رفاهية لكل شخص في العالم.

والطريق إلى الاستقلال والتقوية سيستمر ولكنه لن يمر من خلال الديمقراطيات الكبيرة، بل سيمر ـ بحسب طرح الكتاب ـ من خلال اللامركزية وتنظيم الناس في وحدات إدارية صغيرة يتم تصميمها من الناس أنفسهم.

ويختم الكتاب بالتأكيد على أنه حان الوقت للناس أن يستيقظوا على حقيقة أن الديمقراطية لا تؤدي إلى الحرية أو الاستقلال، إنها لا تحل الصراعات ولا تطلق العنان للقوى المنتجة والمبدعة، بل العكس تخلق العداء والقيود.

حان الوقت للناس أن يدركوا أن الحرية التي يتمنوها لأنفسهم يجب أن يتم كذلك منحها للآخرين. وأن الحرية لا يمكن أن تستمر إذا لم يتمتع الآخرون بنفس الحرية وأنه في النهاية هم أنفسهم سيصبحون ضحايا للإكراه الذي يمارسونه على الآخرين ديمقراطيًا.

يجدر الإشارة إلى أن الكتاب حظي بثناء وتقدير هانز هيرمان هوب، مؤلف كتاب الديمقراطية: "الإله الذي فشل". كما تميز الكتاب بشرح مبسط وهادئ لكل فكرة ودعمها بالأمثلة البسيطة والمعطيات بالأرقام.

ومع أن الكتاب نجح بشكل كبير في كشف عيوب الديمقراطية وخرافاتها وأثبت فشلها كنظام للحكم، إلا أن البديل الذي اقترحه وهو نظام اللامركزية لم يكن مقنعًا بشكل كافٍ على أنه البديل الأمثل.

✿ ✿ ✿

24

آن الأوان لتحطيم آصار علماء السوء

في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنَّا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: "نعم". فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: "نعم وفيه دخن". قلت: وما دخنه؟ قال: "قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر". فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: "نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها " ، فقلت: يا رسول الله صفهم لنا ، قال: "نعم ، قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا"، قلت يا رسول الله: فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك") .

فسبحان الذي أجرى علما من الغيب على لسان نبيّه وصفوة خلقه محمد صلى الله عليه وسلم، ليشخص لنا حالنا بدقة لا متناهية فلا نقول: كنّا جاهلين!

دور علماء السوء على مدار التاريخ

وكيف نجهل و نحن أينما قلبنا أبصارنا في صفحات التاريخ ندرك قاعدة ثابتة تتكرر مع الحكام، ملخصها أن أي سلطة قامت على رؤوس المسلمين فظلمت وتجبرت لم تكن لتحقق مرادها لولا مساندة علماء "السوء" وفي المقابل أي سلطة عدلت وأحسنت لم تكن لتتألق في سعيها بدون معيّة علماء "الحق". ولو ركزنا الاهتمام على تاريخ خلفاء بني أمية والعباسيين، لعرفنا كيف كانت البداية باستمالة الفقهاء والعلماء ليدعموا سلطانهم عند العامة، واستمر الحال معهم في تصاعد تدريجي ليتفاقم ويتحول لأبشع صوره، حين وقعت فتنة خلق القرآن في عصر المأمون والمعتصم، وحينها ظهر ابن أبي دؤاد—عالم البلاط في ذلك العصر والمفتي العام لخليفة المسلمين— وهو يحرض المعتصم لقتل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، قائلا له : اقتله يا إمام ودمه في عنقي!

كيف يجب أن تكون مواقف العلماء

ولكن مهما اكفهرت صورة تلك الحقبة من الزمن واسودت، إلا أنها كانت متميّزة بنور ماجد شق الظلام الدامس وأشرق بالانتصارات! كونها شهدت—على الضفة المقابلة— بطولات خالدة كانت تزخر بها أمة الإسلام ، سطرها علماء حق، قاماتهم في العلم والإباء لا تُبارى، تصدوا لهؤلاء المبتدعة المتذللين للسلاطين ولم تأخذهم في دين الله لومة لائم. كالإمام أحمد بن حنبل وأبو حنيفة وسفيان الثوري والأوزاعي رحمهم الله.

الإمام أحمد بن حنبل وخلق القرآن

بل وثق لنا التاريخ مواقف الثبات لهؤلاء الجبال بصورة تعجز الأقلام عن وصف روعتها، ونسجل منها هنا موقف أحمد بن حنبل في رفض عذر العلماء الذين أجابوا الحاكم للقول بخلق القرآن تحت وطأة التهديد وقد ترخصوا في الأمر بقول الله تعالى: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) وبحديث عمار رضي الله عنه، فكان رد الإمام أحمد المفحم: (إن عمارا ضربوه وأنتم قيل لكم سنضربكم)! واستمر كذلك إمامنا أحمد لا يداهن في دين الله أحدا وإن كان علما عالما

مثله، كما كان موقفه مع الإمام المحدث يحيى بن معين رحمه الله، الذي تنازل للحاكم مترخصا بنفس ذاك الدليل، فقال الإمام أحمد بحكمة المبصر: (يقول لي أكره ولم يضرب سوطا واحدا!). ثم بعد إقامة الحجة عليه لم يكلم أحمد يحيى بقية حياته، ولم يرد عليه السلام، لما سلم عليه حين كان أحمد طريح فراش الموت رحمه الله !

ولا شك أن أخوف ما يخاف العالم على نفسه هو مجالس السلاطين والحكام، لما جاء فيها من تحذير نبوي واضح وصريح، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ومن أتى أبواب السلاطين افتتن) ، وقال: (وما ازداد عبد من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا). وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص. وهذا ما يفسر حزم إمام السنة أحمد بن حنبل مع العلماء أكثر من غيرهم في موقف الفتنة!

حال علماء السلاطين في العصر الحديث

ولنطوي هذه الصفحات التي مضت، وكل أمة رهينة بما كسبت، ونطلع على حالنا اليوم، بحكام غير شرعيين أقامهم الغرب بقياسات تناسب مصالحه تماما في المنطقة .. أذاقونا ألوان الغصاصة والقهر ولا زالوا! وطوقونا بالآصار والأغلال

التي من بينها بلا شك، علماء السوء ليستمروا في ظلمهم وغيّهم بسياسة "الاستغفال".

الجامية

ولعل بداية بروز صيت هؤلاء "العلماء" في عصرنا الحديث كان منذ إنشاء التيار المدخلي أو الجامي في السعودية—نسبة لربيع المدخلي أو محمد أمان الله الجامي— إبان حرب الخليج الثانية 1991م حين صدرت الفتاوى "المتأنقة" من هذا التيار بجواز دخول القوات الأجنبية بلاد الحرمين، ولم يقف رموز هذا التيار ومفتيوه عند هذا الحد بل انتشروا في عدة أمصار مسلمة كالسرطان الخبيث ليسجلوا أقبح الفتاوى المخالفة لنصوص الشريعة، الهدف الأول والأخير منها هو شرعنة أحكام السلطان وتمرير قراراته بلباس ديني وتجريم من يتظلم أو يستنكر أيضا بلباس ديني! ذلك أن السلطة الدينية كانت ولا زالت أقوى مروّض للشعوب وأنفذ قوة لريادتها.

ولقد رسخ هذا التيار قواعد ما أنزل الله بها من سلطان وعوّدوا الشعوب المسلمة عليها كي تبقى خانعة للحكم الجبري الذي نعيش حقبته — أو زوال حقبته إن كنا لها أهلا –. منها أنه لا يجوز معارضة الحاكم مطلقا ولا الخروج عنه ولا نصحه

علنـا. وكـل من تجـرأ على ذلـك صـنف من الخـوارج ونبـذ وحوصر .

اختلفت مواطنهم واجتمعوا على شرعنة أفعال الحكام

ومن هؤلاء الأئمة المبتدعة في دين اللـه أفـتى بعض شـيوخ الأزهـر في مصـر بقتـل سـيد قطب وإخوانـه بـدم بـارد—رحمهم اللـهـ. وعلى نهجهم وقلـة حيـائهم قـال الشـيخ السـعودي عبـد المحســن العبيكــان: أن الأمريكــان لا يضــربون إلا من يعتــدي عليهم في العراق! وأن الكفار لو عينوا على المسـلمين حاكمـا ، فهو ولي أمر شرعي!

وبتحايلهم أيضا تمكن حافظ الأسد من توريث الملك لابنه السـفاح بشـار الأسـد في سـوريا وأفـتى محمـود لطفي عـامر أن جمـال يجـوز لـه أن يـرث حكم والـده حسـني مبـارك في مصـر باعتباره أميرا للمؤمنين! وكذلك فعل أسامة القوصـي حين حث حماس على قبول الصلح مع إسرائيل اقتداء بالسـادات، وبفعـل الرسول صلى الله عليـه وسـلم يـوم الحديبيـةـ زعمـ ، وكـذلك على خطاهم تجرأت هيئة كبار العلماء في السـعودية على فتـوى قتـل المجاهـدين للأمريكـان والحكم بـأنهم لا يروحـون رائحـة الجنة — تأليا ـ !

ومما لا شك فيه أن ثورات الشعوب أضحت أكثر حدث مزلزل في عصرنا الحديث لعروش المتسلطين على البلاد المسلمة، ولهذا في أوج هذه الثورات كان نشاط هؤلاء العلماء المطبلين للحكام يصل الذروة، وبلغوا معها أبشع درجات الفظاعة والجرأة في حياكة الفتاوى للسمع والطاعة العمياء وتعدي حدود الله لصالح حكامهم.

ولهذا حظي هذا التيار بقرب النظام وإضفاء الشرعية لفتاواه وامتلأت منهم مجالس وموائد الحكومات. بل وانتشروا بين طبقات الناس والعلماء لتشتيت المعتقدات والاختراق. فلا تخلو برامج التلفاز من لقاءاتهم ولا دروس الإذاعات من سمومهم وكذلك اللقاءات والاجتماعات التي تسمى "إسلامية" من هيمنتهم بل لا يعترف بدار إفتاء إلا إن كانوا هم سدّتها ورأس حربتها!

> لا أحد يجادل في أن الفتاوى اليوم تحاك على قياس الحاكم، وأن الحائك الذي يلقب بـ "فضيلة الشيخ" و"العلامة"، وظيفته تحريف الكلم عن مواضعه وسوء التأويل ولي أعناق النصوص، لتوافق أهواء من يخدم من الملوك.

وللأسف الشديد فقد أضحت هذه الظاهرة سنة كونية في كل صراع بين الحق والباطل، ومع عصرنا الذي تقبع فيه الأمة

المسلمة تحت وطأة حكام عملاء للهيمنة الغربية، كانت الظاهرة ملفتة جدا، لتعكس حجم الظلم والجور الذي يقوم عليه هؤلاء الحكام ولتبرز حجم مولاتهم للكفار وكذا لتفسر فداحة الضرر والأذى الذي يدفع ثمنه المسلمون تحت سلطانهم، ويبقى أشدها مرارة أن بفضل هؤلاء العلماء أسبغت الشرعية على الاحتلال لديار المسلمين—مباشرا كان أو غير مباشر- وأفتي بموالاة الأمريكان في حربهم ضد الإسلام بلا أدنى حياء!.

قال ابن القيم —رحمه الله- وإن الذنوب لتعم مصائبها الحيوانات والحشرات والجعلان في جحورها، يقول الله عزوجل: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ). قال مجاهد وعكرمة: هي الحشرات والبهائم يصيبها الجدب بذنوب علماء السوء الكاتمين فيلعنونهم.

وفي زماننا لا يتجاوز تصنيف العلماء ثلاثة أصناف: أحدها علماء سلطان ومطبلين له في كل مناسبة وبدون مناسبة، والآخر، علماء عجزة قد أثقلت كاهلهم الخشية من الحاكم وسطوته فتشبثوا بنصوص "للضرورة أحكام" وصنف أبى إلا أن يقول كلمة الحق عند سلطان جائر فكان مصيره السجن والتعذيب.

وبهذا فإن أصناف العلماء على ثلاثة منازل، منزل يكتم الحق أو يبدله، ومنزل يشتري بدين الله وعهده ثمنا قليلا، ومنزل لا يخاف في الله لومة لائم ولا يخشى إلا الله.

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى
للمشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه
بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

كيف يؤثر علماء السوء على واقع الناس؟

وبهذا يمكننا أن نفسر خذلان كل ثورة نهوض وإجهاض كل دعوة تحرير وتبديد كل نداء (أن اغدوا على حرثكم وحي على الجهاد)، نفسره بنكوص العلماء عن دورهم في القيادة، وقعودهم تحت ظلال الحكام المستبدين، فتلاشت الكثير من المحاولات وفشلت – بسبب غيابهم عنها – العديد من التضحيات، ثم بدل أن يستدركوا هذا التقصير قاموا بتوجيه سهامهم في اللوم والتقريع والذمّ لأصحابها! فكانوا سببا محوريا في ضعف بنيان هذه الأمة بلا جدال. قال ابن مبارك– رحمه الله– :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء
ورهبانها

لقد آن الأوان لأمة دينها الإسلام أن تخرج من عناصر حزنها واستضعافها، أن تنطلق من طور الهدنة والاستكانة بروح وثابة رافضة للظلم والعدوان جريئة في الحق لتكسر آصار وأغلال علماء السوء هؤلاء، وتنأى بنفسها عن التكلف والصلف وإعدام الكيان والذات، آن الأوان أن نطوق علماء السوء هؤلاء بجيش من السخط ونستبدلهم بأئمة تشهد لثباتهم جدران الزنازين الباردة والحارة، من أئمة الحق الذين حوربوا لمجرد إنكارهم منكرا في زمن الخور! ولتحييهم الأفئدة أينما كانوا ولتشيعهم الأرواح أينما رحلوا!

لقد آن الأوان لهذا الليل الطويل الجاثم على هممنا وآمالنا أن ينجلي. لقد آن الأوان أن نسحب الثقة ومصير خواتيمنا من أيدي علماء يجيدون الانطراح على عتبات السلاطين ونسلمها لأئمة لا يجيدون الانطراح إلا على عتبات الربوبية.

آن الأوان أن نكسر كل الآصار والأغلال التي تقيد نهوضنا وتحرمنا الوقوف من جديد بلا تلجلج أو خوف بل بكل ثقة بالله ثم النفس! وأولها و أخطرها على الإطلاق هي آصار علماء السوء ثم نبدأ بعدها الحديث عن الإنجاز!

✿ ✿ ✿

25

شبهاتٌ انتهت صلاحيتها.. جريمة كبرى

إنها لجريمة كبرى تلك التي يروج لها علماء السوء في بلاد المسلمين باعتبار الحكام ـ الذين جاء بهم الغرب أساسا وسعى لبقائهم في السلطة ابتداء وكلّفهم مهمة الهيمنة على هذه الشعوب المسلمة انتهاء — ولاة أمر شرعيين، كيف يستقيم هذا وقد شرّعوا من دون الله وحكموا بغير ما أنزل الله وأعلنوا ولائهم بلا أدنى حياء لأعداء الله، وقدموا القربات والمودات، وجنودهم والأموال واصطفوا معهم في جيش واحد وصف واحد، وتحت قيادتهم الطامعة الماكرة الكافرة؟!، دون أن ننسى سجل الفسق والظلم والنهب لأموال المسلمين الذي تلطخت به سيرهم وضجّت به المحافل — وإن كان كفرا أصغرا لا يخرجهم من ملة المسلمين ـ لكنه يضاف إلى ركام الجرائم بحق الدين والأمة المسلمة. فكيف يقبل عاقل من عالم سوء الحكم بشرعيتهم كأولياء أمور لهم على الرعية المسلمة كافة حقوق الطاعة والولاء والتعاون.

موقف علماء السوء من الحكام الخونة

إن علماء السوء، لم يكتفوا باعتبار الحكام الخونة حكاما شرعيين بل حكموا بمشروعية الاحتلال الصليبي الأمريكي وغيره لبلاد المسلمين بدعوى أن ذلك استنصارا مشروعا بهم تبرره الضرورة كما رأينا في العراق وحرب الخليج وغير مكان. وتجرأوا على الافتاء بمشروعية التطبيع مع اليهود. بل وإسباغ الشرعية على احتلال فلسطين اعترافا منهم باتفاقيات ومعاهدات سياسية وعسكرية واقتصادية تمت بين الكفار وأولياء الأمور "الشرعيين" حسب زعمهم. وحتى تكتمل معالم الجريمة قاموا بتحريم أي مقاومة للمحتلين الصليبيين واليهود، واعتبروها إرهابا للمستأمنين والمعاهدين، وخروجا على أولياء الأمور "الشرعيين". وبهذا أصبح كل ثائر ومجاهد ومقاوم مفسد في الأرض، وإن رفع لواء المطالب الشرعية عاليا لا يردها عالم عاقل ولا مسلم منصف. وأصبحت بعض بلاد المسلمين مرسى للبارجات الأمريكية والغربية ومتنزها لجنود الكفر بقاعداتهم التي ملؤوها بكامل عتادهم ومئات الآلاف من جنودهم وطائراتهم وقنابلهم وصواريخهم وصنفوا بعد كل هذه التعبئة العسكرية كذميين يحرم المساس بظل أحدهم رغم ما وثقه التاريخ من جرائمهم

بحـق المسـلمين وفضـائحهم في سـجون الفظاعـة اللاإنسـانية واعترافات جنودهم ورجالاتهم بطغيانهم.

تشويه العقيدة

وازداد فظاعـة إجـرام علمـاء السـوء حين أطلقـوا الحملات الـتي يشـوهون بهـا العقيـدة ويحرفـون بهـا الكلم عن مواضـعه بدعوى الوسطية و الإعتدال والانفتـاح وحـوار الأديـان والتطـور الحضـاري، الـتي لا تمثـل إلى غثـاء أمريكيـا زائلا تخـدّر بـه الضمائر وتدبّر به المكائـد حتى أصبحت المـرأة تـأم المصلين المختلطين رجـالا ونسـاء وأصـبح الكثـير من الحـرام حلالا!. وانتشرت هـذه الفتـاوى بين النـاس كالنـار في الهشـيم ووطـدت لانتشـارها شـبكات الإعلام وقنـوات الحكـام في كـل مجـالات الاتصالات ونشر المعلومـة، ليصـبح مشـهد الملـك الـذي يعلـق صليبا على صدره وهو فرح مسرور مشهدا معقـولا مقبـولا عنـد المسلمين، ويفتي لجوازه كبـار رجـالات الـدين الـذين يحملـون الأسماء اللامعة في هيئة كبار المفتين.

تلبيسات إبليس

ومع ثبوت كل هذه الجرائم في سـجل حكامنـا اليـوم لا زال علماء السوء يمتهنون أسـاليب ملتويـة لتضـليل النـاس، وتهـوين

المصاب وهو جلل! فحين تقام الحجة على علماء السوء في كفر حكامهم بمجرد عرض سيرة ولي أمرهم وإثبات تبعيته للغرب الكافر وتفصيل سجل جرائمه بحق شعبه ودينه، يتستر علماء السلطان خلف حجة أنه لا يمكن تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله لأنه مرتكب لكبيرة وهي كفر دون كفر ومن يكفر بالكبيرة هم الخوارج فقط وبهذا يحفظون حق الحاكم ويكفرون مخالفيه وهو تلبيس صحيح في عناوينه خاطئ في تنزيله ووجه استدلاله فالحاكم قد كفر بعلمه وبإرادته وقد تأنق في ردّته من جوانب شتى وثبتت عليه بمسالك عديدة فأي تلبيس توهمون؟!.. ثم يطالب علماء السوء الشعوب بالحكم على الظاهر فهذا حاكم يظهر الإسلام، وإن ظهر منه ناقض من نواقض الدين، يستعينون بقياساتهم العوراء كقولهم أن الإسلام قد نهى عن قتل الكافر حال إظهاره الإسلام حتى وإن كنا متأكدين من إبطانه الكفر. وكذلك ننهى عن محاسبة الحاكم المظهر لناقض الإسلام بحجة أنه قد يبطن الإسلام ... وهو استدلال أعوج عقيم يعكس دناءة التفكير!
ثم لدينا شبهة العصر المكي، حين يجعلون من طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية دعوته في مكة وعدم خروجه على قريش وصبره على أذاهم، مثالا يقتدى به مع حكامنا ! وتناسوا أن المرحلة المكية كان الحاكم كافرا وفي عصرنا

يزعمون أن الحاكم مسلم! فكيف يستقيم قياس على مختلفين فضلا على أن الدين اليوم انتشر والدعوة قامت والرسالة وصلت ولسنا في مرحلة انطلاقة الإسلام بل نحن في مرحلة حفظ هذا الإسلام وجني ثماره.

الإرهاب شمّاعة

ثم لأجل قطع الطريق على النجباء، يهاجم علماء السوء كل مستنكر وكل منتقد يبرز عوراتهم بإقصائه تماما من المشهد واتهامه بالخارجية والإرهاب والتطرف بدل مناقشة حججه وبيناته، كل هذا لعلمهم بضعف مؤونتهم ولحماية عقول الناس من الاستنارة بما يكتمونه عنهم ، ذلك أن الخوارج قوم يظهر عليهم آثار العبادة ويحسنون الحديث فأصبح علماء السوء ولرد أي حجة تصدر من فصيح الاستعانة بهذا التلبيس لضمان ألّا يتلق النّاس العلم إلا من رؤوسهم وتستمر هيمنتهم. يقول الشيخ عمر عبد الرحمن – رحمه الله – : (فالخوارج قد عرفهم العلماء بأنهم الذين خلعوا طاعة الإمام الحق ، وأعلنوا عصيانه ، وألبوا عليه ، فأين الإمام الحق الذي يعتبر الخارج عليه خارجاً ؟! أين علي بن أبي طالب اليوم ؟! وإن كنا خوارج فمن تكونون أنتم ؟! هل تكونون علياً وأصحابه ؟! وهل كان عليٌّ مقتبساً أحكام قانونه من شريعة الفرس أو الروم ؟! هل كان

حكمه يقوم على الاشتراكية الديمقراطية أم كان عليّ داعيا إلى الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي ؟ أم كان عليّ حليفاً لليهود صديقا لبيجن ؟! أم كان علي تاركاً لحدود الله ، منفذاً لعقوبات ما أنزل الله بها من سلطان ؟ أم كان علي يعتبر المناداة بالخلافة جريمة لا تغتفر ؟! أم كان علي محارباً للعفة والطهارة ، داعياً لتحرير المرأة وسفورها ؟! أم كان علي من المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين ، الذين قالوا : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ؟! وعذراً للإمام علي ، فلم يكن كرم الله وجهه شيئاً من ذلك كله ، بل كان أحرص الناس على تنفيذ شرع الله ، والحكم بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ، فالخارج على هذا الإمام العادل هو بحق خارجي ، أما من أتى كل هذه الأباطيل التي ذكرناها فالخارج عليه ليس بخارجي ، ولكنه مسلم مؤمن تقي)

صدق الشيخ عمر عبد الرحمن رحمه الله، وهو أحد العلماء الربانيين كما نحسبه قضى نحبه — بعد رحلة زاخرة من العطاء — خلف قضبان السجون الأمريكية وهو الضرير المستضعف، فقط خشية ما يحمله من كلمة حق عند سلطان جائر!

وشتان بين علماء حق وعلماء سلطان، عن عبد الله بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (سيكونُ أمراءٌ تعرِفونَ و تُنكِرونَ ، فمَنْ نابَذَهمْ نَجَا ، ومَنْ اعتزَلَهم سلَّمَ ، ومَنْ خالَطَهم هَلَكَ)

حجج ساقطة

إن أول ما يجب أن نسقطه من أيدي علماء السلطان الدفاع عن شرعية الحاكم: وهو الكرت الذي يعطي صلاحيات مطلقة للحاكم مهما أسرف في تعدي حدود الله ووقع في جريمة الكفر البواح أو بدّل شريعة الإله وظلم. وإسقاط رميهم المخالفين له بالخروج من الملة وإنزال أحكام المفسدين في الأرض عليهم مهما كانت دوافعهم سليمة أو مشروعة . قال العلامة ابن القيم – رحمه الله :علماء السوء جلساء على أبواب الجنة يدعون الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق " .

طواغيت

نعم إن جميع الحكام اليوم غارقين لأعناقهم في دين الأمم المتحدة قد رضوا بها حكما وبدساتيرها وقوانينها منهاجا وبأعضائها وبلدانها أولياء، فكانوا صورة حية عن الطواغيت كما وصف ابن القيم رحمه الله قائلا: "الطاغوت كل ما تجاوز العبد به حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرةٍ من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها، وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته).

لاعذر لهم

كما وجب إسقاط أي عذر يقوم على أن الحكام اليوم معذورين، لم تقم عليهم الحجة، يقول الشيخ محمد بن عبدالوهاب – رحمه الله تعالى – في رسالته إلى بعض تلامذته: فإن الذي لم تقم عليه الحجة، هو حديث عهد

بالإسلام، والذي نشأ ببادية بعيدة، أو يكون ذلك في مسألة خفية، مثل الصرف والعطف، فلا يكفر حتى يُعرَّف. وأما أصول الدين التي أوضحها الله وأحكمها في كتابه، فإن حُجة الله هي القرآن، فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحُجة ولا يجادل أحد أن الحكم بما أنزل الله هو من أصول الدين، ومن المسائل الظاهرة الواضحة البينة، التي تضافرت عليه الأدلة في القرآن والسنة .. فمن بلغه القرآن فقد بلغته الحجة .. "

فهل بقي من عذر لحكام يعلمون وجوب إقامة الشريعة ويستبدلونها بحكم القوانين الوضعية البشرية التي ما أنزل الله بها من سلطان.. وهل من عذر بقى لمن يوالي القوى الغربية الكافرة والله سبحانه وتعالى يقول، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ**﴾ آل عمران.

قد عرضنا جملة من شبهات علماء السلطان وشاهدنا كيف انتهت صلاحيتها بمجرد الرجوع إلى حكم الشريعة الغراء! قد عرفنا اليوم الداء وعرفنا سبيل النجاة، ومن اعتصم بالله ما اقترب من عالم سلطان، فحطموا أغلالهم وقاطعوا أصواتهم وتحرروا من ترهاتهم واستبشروا بعدها بالخير!

✿ ✿ ✿

26

شبهاتٌ انتهت صلاحيتها.. لم يعد من عذر

إن المتأمل في واقع الشعوب المسلمة اليوم، وما تعانيـه من أزمات نفسية واجتماعية واقتصادية بل وحـتى أخلاقيـة! ليدفعـه المشهد للتساؤل؟ إلى متى ستبقى الأمة تدوّن المظالم وتحصـي المصائب وتعد الضحايا وتوجه أصابع الاتهامات!

لا شـك أن الغالبيـة العظمى متفقـة أن المسـؤولية تقـع على عاتق الحكومات، ولا يجادل أحد في أن ثـورات الربيـع العـربي كانت دليلا صارخا على رفض هذه الشـعوب المسـلمة لواقعهـا المرير ولرغبتها الجامحة في تغيير أنظمة الحكم التي تـأنقت في أسـاليب الاسـتبداد والقمـع والتجويـع للرعيـة وكـذا السـجن والتنكيل والتشريد لكل من عـارض سياسـاتها وتعـدياتها بحـق الإسلام والمسلمين.

ولكن هذه الحكومات قد خبرت شعوبها المسـلمة وأدركت أن لجام الدين هو السـبيل الأنجـع لترويضـها وتطويعهـا راغمـة

فتسكن وتهدأ وتتبدد ثورتها مهما أسرف الحكام في الظلم وقبح التدبير!

وكما أسلفنا من قبل في مقالتنا (آن الأوان لتحطيم آصار علماء السوء) فإن الحاكم قد سخّر لخدمته فريقا متخصصا من المشايخ والعلماء حرفتهم المتاجرة بدين الله وليّ النصوص وتحريف الكلم عن مواضعه في سبيل إخضاع الشعب لأهواء هذا الحاكم وإن كانت تلك الأهواء جريمة كبرى في منظار الإسلام وأئمته.

ويبلغ نشاط هذه الحاشية الملازمة لبلاط السلاطين، ذروته حين يلوح في الأفق دخان ثورة أو رذاذ موجة استنكار أو حتى هتافات مظاهرات احتجاج سلمية!

فما إن تبدأ ملامح السخط بالتبلور إلى رد فعل غير مرغوب فيه عند هؤلاء الحكام، حتى يخرج علينا أبواقهم، وعلماء السوء، المرقعين للظالمين، فيحتلون المنابر والشاشات ويخرجون أوراقهم المهترئة لتكرار نفس سيناريو الحجج البالية! مهمتهم: إحباط النفوس التي اضطرمت حنقا وأسا ورغبة في التغيير.

ولاشك أن أول كرت يرفعه هؤلاء بوجه المستنكرين هو تحريم الخروج عن الحاكم واعتبار جميع الحكام اليوم-

الجـاثمين على صـدور شـعوبهم—ولاة أمـر مسـلمين وجبت طاعتهم ويحرّم الخروج عليهم بل وحـتى انتقـادهم. وبعرضـهم لقائمة من الأحاديث والنصوص التي تـدعم قـولهم بغض النظـر عن الخطأ في تنزيلها على واقعنـا، تكبّـل أي حجـة في المطالبـة بتجريم الحاكم!

وقفة

إن قوة أي أمة مسلمة ـ لا شك ـ خلْفها حاكم مسلم، يـوالي المسـلمين ويـبرأ من الكـافرين، يحكم بمـا أنـزل اللـه ويطبـق شـريعته، يُقاتَـل من ورائـه ويـدفع بـه العـدوان، صـفته العـدل والقسـط، والإخلاص والفـداء للأمـة المسـلمة، فتتـوازن الأمـة داخليا، وتدفع عدوها خارجيا وتزدهر حضارتها وتصلح أحوال الرعيّـة. ثم بـالعكس كلمـا فسـد الحـاكم، فسـد معـه كـل شـيء وتزعزعت أركان الدولـة وتقهقـرت أحـوال الرعيـة وامتـدت يـد الأعـداء الخارجيـة وعبثت بهـا أيـدي النفـاق الداخليـة وتنتهي بقصة سقوط حرّ، ولا يمكن أن يقوم حكم في بلاد مسلمة دون قيام العلماء الربانيين لثغرهم، يقوّمون الاعوجاج ويفتون للناس في المـدلهمات وأمـور العبـادة والحيـاة، ينصـحون للحـاكم ولا تأخـذهم في دين اللـه لومـة لائم، فبهم تتحـد فئـات الأمـة وبهم

تتقدم الأجيال للقمة. ولكن إن فسد الحكام وفسد معهم العلماء فالمصاب جلل، كما جاء في الأثر:

(صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، العلماء والأمراء).

نقطة الضعف

ولأن حكامنا أدركوا تماما ـ كما يدرك العلماء ـ أن الدافع الأقوى للشعوب للثورة والانتفاض والمطالبة بعزل الحاكم هو أن يرسخ في أذهانهم وجوب عزل هذا الحاكم في شريعة الإسلام، والذي هو في الأخير مرتبط ارتباطا وثيقا حاسما بقضية إسلام هذا الحاكم أو كفره وكذا تطبيقه لحكم الله أو تبديله لشرع الله، وعلموا تمام العلم أن رسوخ هذا الحكم في أذهان المسلمين يترتب عليه نتائج قد تقضي على أحلامهم وعروشهم وينفلت معها عقد أهدافهم. فكان التوظيف المحموم لعلماء السوء، من أجل تبديد أي محاولة تفكير للفصل في هذه القضية ـ وإن وصلت حالة هذه الشعوب إلى أسوء حالات الظلم والانهيار ـ وكان الترويج بقوة لتلك الحجج البالية في أن الخروج عن الحاكم فساد في الأرض يوجب العقاب!

ولن تجد حاكما واحدا نصب على ديار المسلمين إلا وله مؤسسة دينية ضخمة تؤمن لهم الشرعية لتأمين انقياد الشعب، الذي يشكل الدين جزءا رئيسيا من تركيبته النفسية والثقافية.

الحكم الشرعي

وإن المتفَق عليه عند علماء الأمة السابقون واللاحقون، هو أن الحاكم الذي لا يجوز الخروج عنه هو المسلم الذي يحكم بما أنزل الله وإن ظلم، فله حق السمع والطاعة في كل ما يأمر به، ما لم يكن معصية، في المنشط والمكره، والصبر على الأثرة، وألا ينازعه أمره وصفته، فإن بدّل حكم الله وحكم بغير ما أنزل! فقد كفر، وجاز الخروج عليه بل وحرّم البقاء تحت حكمه كما في الحديث الصحيح المتفق عليه، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دعانا رسول صلى الله عليه وسلم فبايعناه فكان مما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وألا ننازع الأمر أهله، قال صلى الله عليه وسلم: (إلا أن تروا كفرا بواح).

و معنى— بواحا—يريد ظاهرًا، باديا... (وعندكم من الله برهان) قال: الحافظ بن حجر في شرح البخاري (أي نقص آية وخبر صحيح لا يحتمل... التأويل. وقال النووي في شرحه

لمسلم: (المراد بالكفر هنا المعصية، ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمـور في ولايتهم ولا تعترضـوا عليهم إلا أن تـروا منهم منكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام). أي أنـه لا يشـترط أن يعلن هذا الحاكم الردة عن الإسلام أو الكفر، بـل يكفى إظهـاره لبعض المظاهر الموجبة للكفر.

لوازم الحكم

إذًا فمسـألة الخـروج على الحـاكم مقرونـة بثبـوت كفـره ثم يـترتب عليهـا وجـوب قتالـه والخـروج عنـه، وقـد نقـل الإمـام النووي في شرحه لصحيح مسلم عند شرح الحديث السابق عن القاضـي عيـاض الإجمـاع على الخـروج على الحـاكم إن كفـر. فقـال: قـال القاضـي عيـاض: أجمـع العلمـاء على أن الإمامـة لا تنعقد لكافر. وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل. وقـال وكـذا لـو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها. قال القاضي عياض: فلو طـرأ عليـه كفـر وتغيـير للشـرع أو بدعـة، خـرج عن حكم الولايـة وسـقطت طاعتـه ووجب على المسـلمين القيـام عليـه وخلعـه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك. فإن لم يقع ذلـك إلا لطائفـة وجب عليهم القيـام بخلـع الكـافر ولا يجب في المبتـدع إلا إذا ظنـوا القـدرة عليـه فـإن تحقـق العجـز لم يجب القيـام ويهـاجر المسلم عن أرضه ويفر بدينه".

فإن طوينا صفحة الكفر البواح ونظرنا في أحد موجبات عزل الحاكم الأخرى سنجد ترك الحكم بما أنزل الله موجب رئيسي يجيز عزله، وقد ورد هذا في جمع من الأحاديث النبوية الصحيحة منها الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله).

وإقامة كتاب الله تعني الحكم بما أنزل الله...
فمن لم يحكم بما أنزل الله فلا ولاية له.

وأما إن كان الحاكم مسلما لم يتلبس بناقض من نواقض الإيمان، أو كفر فيه من الله برهان أو لم يحكم بغير ما أنزل الله فلا يجوز الخروج عليه ولا عزله.

ووجوب الخروج مشروط بالقدرة والمنعة، وجواز الخروج فيهما مشروط بأن يرجى عقد الإمامة لرجل صالح تتواجد فيه شروط الإمامة، وأما إذا صار الأمر من جائر إلى جائر، أو استلزم مثل استيلاء الكفار على المسلمين، فلا يجوز الخروج.

تزكية فاسدة

ثم إن اجتمعت جريمة كفر الحاكم وحكمه بغير ما أنزل الله وظلمه وتضييعه لحقوق الرعية وموالاته لأعداء الإسلام، فلا يرتاب عاقل حول وجوب عزله وقتاله وإن زكاه جميع علماء السلطان.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عن أولئك الذين يزكون من يحكم بغير ما أنزل الله: (إن هؤلاء الطواغيت الذي يعتقد الناس فيهم وجوب الطاعة من دون الله كلهم كفار مرتدون عن الإسلام، كيف لا وهم يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويسعون في الأرض فساداً بقولهم وفعلهم وتأييدهم. ومن جادل عنهم، أو أنكر على من كفرهم، أو زعم أن فعلهم هذا لو كان باطلاً لا ينقلهم إلى الكفر، فأقل أحوال هذا المجادل أنه فاسق، لأنه لا يصح دين الإسلام إلا بالبراءة من هؤلاء وتكفيرهم).

لقد اعتبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجرد عدم التكفير جريمة كبرى، فكيف بمن يتخصص في تزكيتهم وتلميعهم ويشيد بفعالهم ويبرر طاماتهم ويعادي من أنكر عليهم!

واقع الحكام اليوم

ولنأتي لواقع حكامنا اليوم، إننا نشاهد أمام أعيننا كفرا بواحا لنا فيه برهان، فأغلب حكامنا يحكمون بما لم ينزل به الله سلطانا، وقد عمدوا لالتزام أحكام الدساتير البشرية الوضعية ومنهم من غرق في وحل الديمقراطية التي تحكم برأي أغلبية الشعب لا حكم الشرع، ومنهم من يجعل الحكم صوريا إسلاميا في حين يخضع لولاية الكفار من اليهود والنصارى علنا ووصلت هذه الموالاة إلى المشاركة مع الكفار في قتال المسلمين لأجل مصلحة الغرب الكافر. ويكفي مثالا الغزو الأوربيوأمريكي لبلاد المسلمين في العراق وأفغانستان الذي حظي بمشاركة هؤلاء الحكام وكل ألوان الدعم البشري والمادي.

هذا دون أن نحسب ما تلبسوا به من أشكال مكفرات الأقوال والأفعال وما أتوا به من أسباب الخروج من ملة المسلمين. ودون أن نحصي سجل المظالم الثقيل الذي تئن لوطأته الشعوب المنهوبة المسلوبة الثروات والحقوق.

وبالنظر للحكم الشرعي في حالة حكامنا الخونة اليوم فإننا سنتفق جميعا ألا ولاية لهم شرعية على الشعوب المسلمة، وهذا يترتب عليه أحكام، منها سقوط ولاية الحاكم وبطلان

إمامته، ووجوب الخروج عليه بالقوة وخلعه، بل ووجوب قتله لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :(من بدل دينه فاقتلوه). كما يجب عدم مساعدته ولا العمل لديه ولا مشاركته جريمة الحكم بغير ما أنزل الله بأي منصب أو أي شكل. كما لا يعتبر بعهوده ولا مواثيقه، ولا معاهداته ولا أمانه... لأنه لا يمثل المسلمين. ولدرء مفاسد عزله وجب المسارعة في نصب إمام مسلم بدلا عنه.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري: (إنه ـ أي الإمام ـ ينعزل بالكفر إجماعا فيجب على كل مسلم القيام في ذلك فمن قوي على ذلك فله الثواب، ومن داهن فعليه الإثم، ومن عجز وجبت عليه الهجرة من تلك الأرض).

إننا نشاهد في كل يوم مشهدا تدمي له القلوب، لحكام المسلمين وقد أسرفوا في مولاة الكافرين من يهود ونصارى، فأضحت اجتماعاتهم ولقاءاتهم تعكس تلك المودة والقربى مع أعداء الإسلام رغم تلطخ أيديهم بدماء المسلمين، توقع معهم المواثيق والمعاهدات والتحالفات وتسخر تحت أيديهم الجنود والمعدات والخدمات والولاءات! وأضحت ثروات هؤلاء المسلمين منهوبة وحقوقهم مسلوبة بل وأصبحنا ندفع الجزية وهم الصاغرون. وهذه الحقيقة وحدها ـ والتي لا يمكن أن

يطمسها عالم سلطان ـ تكفي لأن يتفكر المرء في أي فسطاط يريد أن يكون، هل سيقبل بفسطاط فيه القائد كافرا فقط لأن حاكمه ارتضاه وليا أم أن ينأى بنفسه عن جريمة الكفران! لا يفعلها مسلم عاقل!!

قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**).

✿ ✿ ✿

27

حين ترسم سُنَّة التدافع مسار هذه الأمة

يظلم المشهد مرات وتتحطم الأماني عند عتبة الانكسار لفترات، وتبلغ القلوب الحناجر وتضيق الأفئدة ويظن الناس بالله الظنون، ثم تتغير المشاعر فجأة لحدث غير متوقع يغيّر من حسابات البشر، أو عاقبة لم تكن تخطر على بال، تتسارع لتحليلها الأقلام وتعلو الفضاء أجواء التفاؤل تردد "يا رب ما أرحمك"، هكذا تتدافع حلقات أمتنا مع كل نازلة أو نكسة مؤلمة تعيشها.

وإن أبرز ما يؤسف في هذا الواقع، هو غفلة الناس عن سنن الله في كونه، تلك السنن التي لا تتبدل ولا تتحول، ولا تحابي أحداً ولا تستثني أحداً، تأتي لتنتشل المؤمنين من مستنقعات الإحباط إلى سمو اليقين والأمل.

إننا نشاهد اليوم المدافعة في أوجها بين قوى الشر والخير، بل نشاهدها بين كل مكونات الحق ومكونات الباطل، لتضبط مسار الأمة في الطريق الذي ينبغي لها أن تسير فيه، تدفعها له الابتلاءات والهزائم والانتصارات وفضل الله العظيم.

قال تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾، فبفضل هذا التدافع وهذه المواجهة تظهر معالم طريق الحق لنصرة الدين ورفعة المسلمين.

قال عبد الله بن مسعود الصحابي الفقيه الذي ما فتئت الحكمة تتفجر بين ثنايا حروفه: "إن للملك لمة بقلب ابن آدم. وللشيطان لمة. فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالحق. ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالوعد"، ثم قرأ: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا**﴾.

وتأمل كيف يشخص هذا الوصف حالة التدافع في ذات الشخص الواحد، حين يتدافع لبّ المرء بين اللمتين حتى تكون غلبة إحداهما على الأخرى، فيلجأ صاحب نزعة الشر لنزعته وصاحب نزعة الخير لنزعته.

وهو ذات الصراع بين جموع البشر والجماعات، فإن سيطر على المشهد المؤمنون والصالحون فإنما نتيجة السعي الحثيث والصبر، هو الصلاح والنماء والخير العظيم، وإن استولى عليه الكافرون والمجرمون، فإنما نتيجة المكر والكيد، هو الفساد والظلم والطغيان المبين كما نشاهد.

وتتجلى ملامح هـذا الصـراع والتـدافع في كـل مجـالات الحياة، السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والاعلامية والتعليمية، لم يخلو ميدان من المعارك بين الحق والباطل إلا وسنة التدافع ماضية فيه لترسم مسار هذه الأمة.

ولا يعني هذا أن يبقى الصراع والتدافع محصورًا بين أهل الحق وأهل الباطل، بل سنة التدافع تدخل في كل مكونات المشهد، حتى بين أهل الباطل أنفسهم، فتجد فريقا أظلم من فريق في مواجهة على باطل، وقوة أفسد من قوة في صراع على باطل، فيميل المسلمون لأقربهما للحق، وأقلهما أذى وضررا، وكل هذا من مقادير سنة التدافع. قال تعالى: (**الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ***).

وكذلك التدافع بين أهل الحق أنفسهم، بين من يملك دعوة الحق الأقوى ومن يحمل دعوة الحق الأضعف، وتستمر المنافسة بينهم بالاختلاف والتدافع حتى يتحقق أحق الحقين وأكثره موافقة لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ما يفسر الكثير من التناقضات التي تقوم عليها الأمة اليوم بين فئاتها المختلفة والمتنازعة. والتي وجب عليها الاصطفاف جميعا

حين يكون العدو لا يفرق بين الأقوى حجة من الأضعف حجة بينها.

ومن يتابع آثار سنة التدافع في صراع الحضارات اليوم، يدرك أنها كالقانون الذي يأتي لضبط الميزان والقوى، ويحفظ لأهل الإيمان حقهم، فيسخّر لهم من فضله من يدافع عن دينهم ويذود عن حياضه، مؤمنا كان أو فاجرا، فيعتز الإسلام وأهله، ويزداد يقين المسلمين ويفخروا.

ويستوجب على المسلمين أن يدركوا حقيقة سنة التدافع فيقفوا في صف الحق دائما لأن مصيره النصر ولو بعد حين، سواء في داخل المرء أو في داخل المجتمع المسلم أو في المواجهة العالمية مع قوى الشر والطغيان. منهجهم فيه (لا تركنوا) (ولا تطغوا) على الاستقامة التي أرادها الله سبحانه لعباده المؤمنين حتى يبلغوا مراتب التمكين والاصطفاء.

ولا يحزن المؤمن حينما يشاهد تصارع الأفكار على أشده، فإن ذلك من لوازم سنة التدافع وبها تستبين سبيل المجرمين وبها تتنقى الصفوف وبها يركم الله الخبيث مع الخبيث والطيب مع الطيب.

إنها سنة التدافع التي تمضي بنا لشواطئ الأمان والاستقرار والتمكين المبين، تلك السنة التي انطلقت مع هذه الأمة

ترشدها سبل السلام منذ ظهرت الرسالة المحمدية في مكة وكان الإسلام في أضعف أحواله، ثم بالهجرة النبوية وغزوة بدر التي سجلت تاريخ الانعطافة الكبرى في تاريخ صعود المسلمين والدولة الإسلامية الأولى، ثم بعد بفتح مكة بدأت مرحلة مدافعة الكفر وأهله خارج جزيرة العرب، لتتوسع الدائرة وتنتهي بالقضاء على فارس والروم؛ فيسود الإسلام في الأرض وتنتشر معه أنوار الهداية والعدالة والازدهار والحضارة الماجدة.

وقد ضعف المسلمون في الغزو الصليبي والتتري لكنهم ما لبثوا أن عادوا حين استجمعوا قواهم وأسباب النصر، فاستقووا مرة أخرى وسطروا مشاهد بطولة يعجز القلم عن تدوين روعتها في حطين وعين جالوت والزلاقة وأخواتها وكانت فصولا أخرى من سنة التدافع.

ولا يعني هذا أن عصرنا يخلو من مشاهد النصر بل هي موجودة وإن كان يطغى عليها ضباب الدجل، فهناك نصر يخفى على الكثيرين مع الحرب المعلنة على الإسلام يتجلى في عدد المعتنقين لهذا الدين العظيم وعدد الباحثين عنه والساعين له، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

ونصر آخر يخفى على الناس، في الحرب المعلنة على الحجاب والنقاب التي كلما جمعوا خيلهم ورجلهم لاقتلاعه

من جذورنا زاد انتشارا والإقبال عليه في قلب أوروبا وإن تعـرت المسلمة في بلدها. ونصر آخر نبصره في الاقتصـاد حين يمحـق اللـه الربـا وتغـرق الـدول الكـبرى في أتـون الـديون والفوائـد المتراكمـة فـترهن المصـانع وتفلس الشـركات ولا تحصـى الخسـائر ولا التبعـات لـدى البنـوك والحكومـات. ونصـر آخـر نبصـره في الطبيعـة الـتي تنتفض على فسـاد الإنسـان فتنقلب إعصارا وزلزالا يهد ما بناه كل من شـارك في بث التلـوث وسـار بالظلم بين العباد وما يعلم جنود ربك إلا هو. ونصر آخر نبصـره على دعاة التغريب والانحلال حين ترتفـع في الغـرب معـدلات الانتحار والتحرش والشذوذ والأمراض النفسية والجسـدية الـتي باتت تؤرق مؤسساتهم البحثيـة والطبيـة رغم كـل التطـور الـذي بلغوه في مجالات العلم المادي. وغير ذلـك الكثير من مشـاهد النصر في عصرنا الحديث.

فأيها المسلم لا تخضع لبطش قوى الكفـر والشـر وكن على يقين أن لـه صـولة ولقـوى الإيمـان والخـير صـولات لكنـك لا تبصرها وتغفل عنها.

فسنة التدافع تعيد ترتيب هذا الكون كما يشـاء اللـه، ليقطـع دابر المفسـدين، ويجـزي الظـالمين الجـزاء الأوفى، ويعـدّ هـذه الأمـة لاسـتلام أمانـة التمكين والخلافـة في الأرض، وينقي الصف من كل صاحب هوى أو بدعة أو ظلم.

وختاما فاعقل أيها المسلم وأيتها المسلمة، أن سنة التدافع تأتي لترسم مسار هذه الأمة رغم كل الكيد والمكر الذي يُجمع لها، خلاصتها: خاب من كسب ظلما! فالظالم أيا كان وصفه ومهما بلغت قوته، سيدفع ثمن ظلمه عاجلا أم آجلا، وليس مهما على يد من، بل المهم أنه سيدفعه جزاءً وفاقًا، وما كان ربك بظلام للعبيد.

فلتلتزم طريق الإسلام القويم ولا تبتئس لما يفعل المجرمون، فإنما هو التدافع إلى حين.

✿ ✿ ✿

28

وقفاتٌ مع الهجرة النبوية

إنه لمن تمام الغبن أن يجهل المسلم سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم بكل ما تحمله من ميراث ثقيل زاخر بالفقه والحكمة والخبرة والدروس والعبر وما لا يوجد إلا في ميراث الأنبياء.

وبما أننا ركبنا سفينة عام هجري جديد، فسألخص في نقاط بعض أهم الخلاصات التي يلزم الإحاطة بها عند تدبر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، لعل الذكرى تنفع المؤمنين، ولا شك أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قد يتفاوت في إدراكها المؤمنون.

لم يكن مشروع الهجرة خيارا شخصيا بل انقيادا لأمر الله سبحانه، فهي عبادة وطاعة، جاءت بعد 13 عام من الصبر على الدعوة في مكة وعلى بطش قريش وتعدياتهم التي أجبرت بعض الصحابة لهجرة أخرى أولى وثانية باتجاه ديار الحبشة، ينشدون عدل ملكها. وتلك قصة أخرى تستحق التدبر والمدارسة.

والهجـرة من ديـار تعلقت بهـا الأنفس وحُفـرت معهـا الـذكريات ورُبِّيَ فيهـا المـرء وعـاش فيهـا أجمـل اللحظـات مـع أحبته ليست بالمسألة السهلة ولكنها درس عظيم في إيثار الحـق وتقديمـه على كـل شـيء مهمـا غلا، ويـدخل في هـذا المفهـوم، هجران كل شـر وكـل هـوى واجتنـاب مـا نهى اللـه عنـه لمـا فيـه التقوى والاستقامة.

لقد قدمت هجرة الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم من مكـة التي ألفها إلى يثرب الغريبة البعيدة دليلا وحجـة على أن مـوطن المـؤمن يكـون حيث يعيش حـرا بإيمانـه معـتزا بدينـه، وأنـا الارتحـال من أرض لأرض في سـبيل ذلـك من تمـام الفقـه والسنة، وأن العبرة بحرية الاعتقاد لا حرية المطعم والمشرب.

لقد كانت هذه الهجرة المباركة حجر الأساس لتشـييد أول دولة للإسلام عرفتها الأمـة، تُعـد مراحـل تشـييدها أفضـل مثـال وأنجح نموذج لعبقرية الإنجـاز عرفهـا التـاريخ البشـري بشـهادة المؤرخين الغربيين، نظرًا للظروف وحجم التحـديات المحيطـة بنشأتها وتمددها.

ولابـد أن التخطيـط للهجـرة قـد كشـف عن الخصـائص القيادية المبهرة والفذّة التي يمتلكها رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم، كـأعظم قائـد عرفـه التـاريخ، فلم يقبـل النـبي على هـذا

المشروع إلا بعد أخذ الأسباب وقراءة المعطيات وتحليلها للتحرك.

لقد وظّف منظومة اختصاصات متكاملة لإنجاز هذه المهمة.

لم يترك النبي تفصيلا لم يعره اهتمامه، فمن إرجاع الحقوق لأصحابها، إلى توفير وسيلة النقل، إلى ترتيب خطوات الخروج ولوازمه من مقرات وتحركات إلى توفير الدعم اللوجستي والاستخباراتي إلى تضليل العدو وتشتيته، إلى الكتمان والسرية في الإنجاز، إلى دراسة خريطة الطرق والزمن إلى اختيار الأمناء والبدائل.

ولا شك أن نتيجة الالتزام بأمر الله وحسن التخطيط والأخذ بالأسباب ودعاء الله بقلب خاشع يقابله معية الله وتوفيقه وكف شر الأعداء وذاك هو معنى النصر.

وكيف لا ينتصر من كان يقينه يردد (ما ظنّك باثنين الله ثالثهما)، ثم حديث الصحبة حديث ذو شجون يستحق وقفة خاصة، رضي الله عن الصديق وصحبه.

ويدخل في مكونات جمال هذا المشهد، تلك الأرواح المؤمنة من النساء والرجال الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفة رجل واحد، وجعلوا أرواحهم رخيصة فداء

لـدين اللـه ولنـبي اللـه انعكسـت تفاصـيل إيمـانهم ومحبتهم للإسلام في كل مرحلة من مراحل الهجرة منذ أول حديث عنهـا إلى أحضان المدينة.

ومن يتدبر في تفاصيل طريق الهجـرة وكيـف أخفى رسـول الله صلى الله عليه وسلم أثـرهم وكيـف دخـل مـع الصـديق إلى المدينة وكيف استقبلهم أهلها، وكيف استوعب مشـاعر الإيثـار والمحبة من الأنصار وكيف بـدأت قيـادة مرحلـة جديـدة ليسـت كغيرها مما مضى. يدرك مـا معـنى أن تقـام دولـة على يـد نـبي، وما معنى الاقتداء بسيرته.

لقد برزت قيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشـكل لم يعرفه الصـحابة بعـد كقائـد ومؤسـس لدولـة انطلقت ببنـاء أول نـواة لهـا، المسـجد، وبـأول سياسـة فـذة، تـأليف القلـوب بين المهاجرين والأنصار من بين معالم بارزة أخرى، وبـدأ الصـحابة يتعلمون من سيد المرسلين الدروس العظيمة، إنها قصة صـناعة مجد أمة آمنت.

كـانت هـذه بعض الـدروس المستخلصـة من خلال تـدبر قصـة هجـرة نـبي اللـه عليـه الصـلاة والسـلام، عرضـتها بشـكل مختصر سريع، لأسلط الضوء على عظمـة هـذا المشـروع وعلى أهمية دراسته والتعمـق فيـه وفي تفاصـيله الـتي لا تنفـك تتصـل

بالمجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والتخطيط الاستراتيجي، وكل ما يدخل في فلك نصرة الدين.

فلنكن مهاجرين إلى الله بهجر نواهيه إلى أوامره، لتفتح لنا الدينا أبوابها وتزهر توفيقا ونجاحا وبشرى.

وأختم بالصلاة والسلام على نبي الله وعلى آله وصحبه ومن واهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

✿ ✿ ✿

29

فقه الأولويات.. أولويتك!

يشاهد الشباب المسلم مشهد الصراع تندفع رحاه في كل يوم، يبصر تلك المواجهة بين الإسلام والغرب، يستطيع أن يميِّز الحق عن الباطل في كثير من الأحيان ويتألم للظلم والاستضعاف وأثقال الذلة والهوان التي أنهكت جسد أمته. هذه حال الكثير من شباب المسلمين اليوم.

فهو يحمل في قلبه حلمًا عظيمًا وأماني كثيرة، يود تحقيقها معتزًا بدينه شامخًا بإيمانه ولكنه لا يدري من أين يبدأ، فتاريخه مشغولٌ بالكسل والجهل وربما الظلم لنفسه وغيره، وحاضره مكبّلٌ بالعجز والتشاؤم وربما ضعف الهمة والسعي، ينظر للمستقبل بنظرة الكآبة ويستسلم لكل فكرة هدامة، مع أنه ابن أمةٍ دينها عظيمٌ ومنهج الحياة فيه يرتكز على نظم مستنيرة بنور الكتاب والسنة لا يسقط أبدًا من مضى متمسكًا به.

فمن أين نبدأ المسير، وجراحات المسلمين في كل زاوية من عالمنا الإسلامي تنزف؟ قد تناثرت مآسيهم مستضعفين، وتشتت قواهم على طول مساحة مجد تليد تحطم.

لهذا أصبح الإحساس بالمسؤولية وحمل همّ هذه الأمة أولوية قصوى كما هي الفطرة السليمة في كل أمة.

دعونا نسلط الضوء على المحطة الأولى التي على المسلم والمسلمة البدء بها لركوب قطار التغيير والارتقاء من مرحلة الضعف لمرحلة القوة، من مرحلة السكون لمرحلة الإنتاج، من مرحلة المشاهدة لمرحلة العمل، بدايةً على الشباب المسلم ضبط ميزان الأولويات وتسطير جدول يصنف الأهم فالأهم، ولتكن مرحلة الاستدراك السريع، حتى لا يسبقه قطار العاملين فيلحق بالركب أسرع ما يكون بأقل خسائر.

الأولوية الأولى: علاقة المرء بربه

إن أولى أولويات المسلم علاقته مع ربه ابتداءً، فقبل أن يفكر في إحداث تغييرٍ ملموسٍ ويتحول إلى شخص ناجح ومؤثر، عليه أن يدرك يقينًا أنه لن يُوفّق في عملٍ ولا في تحقيق غاية حتى يوفقه الله لها، وحتى يكسب معية خالقه ومعونته قبل أي معية أو معونة.

وبقدر متانة علاقتك بربك بقدر ما يمنّ عليك بتوفيقه وتأييده لك، وهنا تتجلى قاعدة (إياك نعبد وإياك نستعين)،

فمن الناس من يجسد بشخصه مؤسسة أو جيشا ويكون فقدانه في الأمة ثُلمة لا تُسد، ومنهم من يؤتيه من واسع بركته وفضله فيترك الأثر في كل ميدان وساحة وكل أعماله صدقات جاريات. ومنهم من يقدم في الخفاء لا يشعر بعطائه أحد لكنه عند الله المعروف وأجره مضاعف محفوظ. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وعلاقة المرء مع ربه تبدأ بمعرفة عقيدته، بمعرفته أركان الإيمان والدين فيحفظها ويرسّخ معانيها، ويجتهد في ضبط فهمه للإسلام والإيمان والإحسان وفق الكتاب والسنة، يتعلم فروضه وكيفية أدائها، فيبدأ بالصلاة في وقتها وبحقوقها، ويجتنب المسارعة إلى أداء بعض النوافل والمستحبات حين يكون التفريط فتاكا في الفرائض والواجبات. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته، قال: وكيف يسرق صلاته؟ قال: لا يتم ركوعها، ولا سجودها".

وغالبا ما يبدأ المرء متحمسا يريد تحقيق كل شيء وهو غير قادر على تحقيق أهم شيء.

فتحقيق تغيير في حياتك يأتي رويدًا رويدًا وكما قيل، قليلٌ دائمٌ خيرٌ من كثيرٍ منقطعٍ، ولعل أهم سبب لانتكاسة بعض

الشباب في بلوغ أهدافهم هو الانطلاق المتحمس الذي يغفل فقه الأولويات ويركز على الفاضل ويترك المفضول، كمن يبني السقف قبل أن يبني الأساس.

ولابد أن يحرص المرء في نفس الوقت الذي يتعلم فيه دينه على التوقف عن المعاصي والانتهاء عنها، فلا يمكن لمقبل على رحلة العمر والارتقاء لمراتب السعداء أن يدخلها وهو مثقل الكاهل بالأوزار، وهذا يعني أن يطهر ماله من الربا كأولوية. فعن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم، أشد من ستة وثلاثين زنية".

ويعني أن ينتهي عن الكذب فيطهر لسانه وقلبه منه ويعود نفسه على تحري الصدق، ويعني أن يكفّ عن قطع رحمه فيصله مسارعًا يبتغي رضا ربه، وما كان من ظلم وهضم للحقوق فليُرجع لكل ذي حقه حقه وليبرأ ذمته حتى لا تكون حائلًا بينه وبين ما يرمو إليه من خير، ذلك أن الله سبحانه قد حذرنا في كتابه العظيم بآية منذرة قال تعالى: (**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً**) وخاب من كسب ظلما. وتأمل معي هذا الحديث فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، إن فلانة يُذكر من كثرة صلاتها، وصيامها، وصدقتها، غير أنها تُؤذي جيرانها بلسانها، قال: "هي

في النار"، قال: يا رسول الله، فإن فلانة يُذكر من قلة صيامها، وصدقتها، وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار من الأقط، ولا تُؤذي جيرانها بلسانها، قال: "هي في الجنة". فتأمل هذه المعاني النورانية.

وبعد ضبط علاقتك بربك وفق الكتاب والسنة، وتأدية الفروض وتقوية وصالك بالسماء، تأتي أولوية الإعداد العقلي والروحي، والذي يتطلب تحصيل نصاب العلم الشرعي، لا أقول كن ابن حنبل ولا أقول كن ابن تيمية رحمهما الله، ولكن كن العارف بنصاب العلم الشرعي الذي يؤهلك لأن تعرف ما لك وما عليك، قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ :"والمراد بالعلم: العلم الشرعي الذي يُفيد معرفة ما يجب على المكلَّف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته وما يجب من القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص، ومدارُ ذلك على التفسير والحديث والفقه.

فطلب العلم الشرعي واجبٌ على كل مسلم ومسلمة، ويدخل في هذا الإلمام بأساسيات العقيدة من توحيد وكشف للشبهات إلى الفقه وحديث وما تيسر منه لتعبد ربك عن دراية وعلم.

ثم ﴿قُـل هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُـونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُـونَ﴾، فالعارف بأصول دينه لا يستدرجه دجاجلة العصـر ولا يخلطـون له الأوراق فيتوه في ظلمات البدع والمحدثات، ذلك أنه مسـتندٌ لأصلٍ ثابتٍ، مستند لمعرفـة لا تـتزحزح ولا تتلجلج بفضـل من الله سبحانه.

ولعـل أهم مـا يجب تنبيـه شـباب المسـلمين عليـه هـو ألا يشـغلوا بـالهم بالاختلافـات في فـروع الـدين لأنهـا من الأمـور الثانوية خاصـة حين تكـون ديـار المسـلمين تئن وطـأة الاحتلال والهيمنة والظلم والطغيان!

بـل وجب التركـيز على نقـاط الوحـدة والاتفـاق والكليـات المشـتركة، فالإسـلام يسـع كـل العـاملين لـه وإن اختلفـوا في الفروع، وهي أولوية تقديم المتفق عليه على المختلف عليه.

الأولوية الثانية: الإعداد

بعد تحسين العلاقـة مـع ربـك، وأداء الفـرائض كمـا يجب، وبعد الإحاطة بنصـاب العلم الشـرعي الـواجب على كـل مسـلمة ومسلمة، تأتي مرحلة تلميع هذا العقل وتهيئتـه لتوسـيع مداركـه وتقوية بصيرته، وهي مرحلة الإعداد؛ وهي مرحلـة الإحاطـة بمـا

يجري في عالمك وما يجب عليك معرفته، سواء كان تاريخ أمتك أو واقعها المعاصر أو نبوءات النبي صلى الله عليه وسلم وما سيكون في آخر الزمان.

لاحظ أنك ستنخرط في الصراع بمجرد أن بلغت درجة من الوعي بماضيك وحاضرك ومستقبلك.

وتوازي أولوية توسيع المدارك أولوية لا تنفك عنها، هي تغذية الروح، بزيادة في الطاعات والقربات، وأقصد كل أنواع العبادات التي يقدر عليها المرء ويواظب عليها، وأرى الاهتمام بأعمال القلوب قبل أعمال الجوارح ويكون الذكر على رأس هرم الأولويات، فكلما ازداد ذكرك لله وتعلقك بالقرآن كلما فتح الله لك الفتوحات فتبصر الدنيا بعين الحكيم لا بعين الجاهل ولا تسأل بعدها كيف تتذلل لك العقبات.

وحين تصل لهذه المرحلة ستكتشف هداية الله للأعمال الصالحة بحسب صدقك وإخلاصك في الفرار إليه، فبعضهم يفتح الله عليه في القرآن وآخر في الصدقات وآخر في قيام الليل وآخر في الاستغفار وغيره. وهذه العبادات هي بمثابة وقود قلبك لتجاوز شراك الشيطان المتربص بك لزامًا، وللثبات في الملمات والمدلهمات وما ضاقت به نفسك من ابتلاءات،

ومخطأٌ من ظن التوفيق حليفه وهو بعيد عن وصال ربه يلتمس منه النصر والمدد، ومن ضيّع الأصول حرُم الوصول.

ولابد أن ينظر المرء في مصادره ومن أين يتلقى المعلومة وكيف يبني رصيده الثقافي والمعرفي، خاصة في عالم يعجّ بالغث والسمين والدجاجلة والمصطنعين، وهذا الأمر تكفله فراسة المسلم التي سيكتسبها مع الوقت، وبالتجارب والاحتكاكات، وكلما زاد اطلاعك وسلمت مصادر بحثك كلما كانت خلاصاتك قوية متينة يمكنك البناء عليها، ولا تنسى قاعدة "تبينوا" في هذه المسيرة، ذلك أننا نعيش في عالم بشع تضخّ فيه الافتراءات والبهتان والإفك بلا رقابة أو حسيب أو يقظة ضمير، فلا تكن ضحية دعاية بائسة أو إعلام أجير.

والإعداد يدخل فيه كل ما أمكنك تعلمه وإتقانه مما ينفعك وينفع أمتك، وقد يكون بالدراسة المنتظمة أو بالاكتساب وتحصيل المهارات بدورات تخصصية وتدريبية موجهة، واليوم توسعت دائرة التعلم وتحصيل الخبرات فلا تحرم نفسك من إعداد تشق به ظلام الأسى.

الأولوية الثالثة: رفقة المسير

بعـد هـذا الكمّ من الأولويـات لـدينا أولويـة أخـرى وهي الصحبة والرفقة التي بها يكتمل العطـاء، فلا تصـاحب إلا طيب القلب الصالح، صاحب الهمـة الـذي يحثـك على الخير وإيـاك والنمّـام ومن يشـغل وقتـك بالسـيئات والترهـات وسفاسـف الأمور، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم: "شـرار أمـتي الثرثـارون، المتشـدقون، المتفيهقون، وخيار أمتي أحاسنهم أخلاقًا".

فإن لم تجد رفقـة صـالحة فلا أفضـل من كتـاب أو مـواطن العلم والفوائد المرجاة. قال الله سبحانه وتعـالى: **﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾**.

ويـدخل في أولويـة الرفقـة، الأسـرة والأقربـاء، ويعـني هـذا حسن الصحبة والإحسان ودعوتهم للخير وصـالح الأعمـال، فـ (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، وإن شـئت الجنة وسعيت لها سعيها، فلابد أن تتمناها لأسرتك وتشـد على أيديهم كي يسعوا لها سعيها. وهذه وظيفـة الداعيـة وهي وظيفـة كل من علم أن يبلِّغ.

الأولوية الرابعة: أولوية العمل

ها قد تعلمت وأعددت فآن أوان العمل، ومن فقه الأولويات أن تسد ثغرًا في بنيان الأمة لا أن تنشغل بما يضيع أوقاتك ويهدر طاقاتك، أن تجعل خططك وجهودك في سبيل غاية نبيلة وأهداف عظيمة وهل هناك أعظم من غاية الإسلام وخدمة قضاياه والمسلمين! فإن اخترت هذا المقام وانبريت له فلا تدخل في مسائل جزئية أو خلافية لم يحسمها كبار أهل العلم منذ أول الزمان.، وركز في رحلة عملك على سد الثغرات الأولى فالأولى، وما أكثر الثغرات وما أحوج أمتك لإقبالك.

فانظر كيف يمكنك إحراز موطأ قدم في مسيرة النهوض التي نعيشها اليوم، وفق قدراتك وظروفك وطموحاتك وما تيسر لك من أسباب أو نلته من توفيق.

ومجالات العمل كثيرة وقائمتها تطول، فعلى كل مسلمٍ ومسلمةٍ أن يُتقن في ميدانه، حتى نرسم مشهد بنيان متراص من الخبرات، تصطف لنهضة هذه الأمة بكل تناغم وانسجام، تجمعها المحبة والأخوة في الله والرحمة والحلم وخفض الجناح للمؤمنين ووحدة الهدف والإسلام.

ولا تفكر في العواقب ولا تأسى كثيرًا على النتائج فمن سلك طريق المثابرين هانت في عينيه المصاعب والابتلاءات

لأن أولى أولوياته أن يُعذر عند ربه ويحظى بالقبول ومراتب النجباء. وإن تعطلت مسيرتك لسبب أو لآخر فاستجمع قواك وانهض وقاوم أي سقوط ذلك أن لكل فارس كبوة وأنت المسلم الأبي في يده سلاح الاستغفار والتكفير عن ذنوبه والهمة ذاتية الشحن.

ولو أتقنت فقه الأولويات في هذه الحياة ستحقق سبقًا وتكسب وقتًا وتدخر جهدًا، وهي طريقة الأذكياء في كل مجالات الحياة سواء في المسابقة بالعبادات من حيث أداء الأنسب من ناحية الوقت والأجر والذكر، أو من حيث تلبية حاجات هذه الأمة التي تبصرها ويمكنك العمل على سدها متبعًا قاعدة الأولى فالأولى، ومن فاز بالبركات جادت نفسه بالعطاءات وكان من (**أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ**).

هذا غيضٌ من فيضٍ وملخص فقه الأولويات الذي على كل مسلم ومسلمة الإحاطة به والله يؤتي فضله من يشاء والله واسع عليم.

✿ ✿ ✿

كيف تبني ذاتك وتطور مهاراتك

ليس بدعا من القول أن اعتبر بناء الذات وتطوير المهارات على مستوى الفرد المسلم أحد أهم ركائز النهضة الإسلامية المنشودة.

وحين نقرأ كيف تتناول الكتابات الحديثة هذا الموضوع نشاهد عمق التأثر بالفكرة الغربية والخلاصات النفسية التي نشأت وترعرعت وخرجت في ضوء مجتمعات تختلف بنيتها وتركيبتها العقدية والأخلاقية عن مجتمعاتنا.

1. مصادر التلقي

ولهذا أشدد بداية على ضرورة تحري مصادر التلقي في مواضيع بناء الذات وتطويرها وتحديد الأولويات وفهم الواقع والتاريخ والمستقبل، وكل ما يدور في فلك صناعة الفكر والمفاهيم والقناعات.

وهذا يعني إطلاق البحث ابتداءً من منبع العلم والمعرفة الأصلي، وهو الكتاب والسنة وخلاصات أهل العالم الربانيين، بدل الخوض في مستنقعات تعثر أصحابها وصدمتهم النهايات.

ثم بعد ترسيخ المفاهيم الأصيلة من منبعها الأول، يمكن بعد ذلك الاطلاع على غيرها من خلاصات البشر ولكن بعد تقييم صلاحيتها وفق مقاييس الإسلام العادلة.

وهنا أذكر تعليقًا استوقفني لأحد أثرى أثرياء العالم ممن حقق كل متع الدنيا في حياته وهو لا يزال في سن الشباب، حيث قال: "لم يعد في الدنيا ما يثيرني أو يحقق لي المتعة فكل ما أتمناه أجده وكل ما أسعى إليه أحصل عليه، لم يعد هناك أي شيء يستهويني!". لنبصر كيف تعكس هذه الكلمات المدى الأخير لأقصى غايات البشر المادية وكيف يقف صاحبها عند عتبة التيه والشتات بعد تلبية جميع مطالبه المادية، فيفقد متعة الحياة وسر الطمأنينة والسكينة النفسية. ولعل هذا ما يفسر ارتفاع نسب الانتحار لدى أفراد ملكوا كل الماديات المنشودة في حياتهم في دول أروبية غنية.

ولا يظن ظان أن مثل هذه الشخصية التي بلغت منتهى مراتب الغنى الفاحش في الحياة الدنيا لم تقرأ كتب بناء الذات أو تطوير المهارات أو لم تبحث عن أسرار التفوق والنجاح، بل إن مثل هذه الشخصيات تعد ناجحة في قصص بناء الذات وفق النظريات الغربية ومع ذلك لم تدرك مراتب السعادة الوجدانية التي يبثها الإسلام في أفئدة المسلمين مهما تباينت مراتبهم المادية الدنيوية.

فلا تتعلق سعادة المرء بحجم أمواله ومادياته وقدرته على تلبية رغباته وأمنياته بقدر ما تتعلق برضا نفسه وقناعته وإيمانه بسمو الرسالة والأهداف التي يسعى لتحقيقها مستنيرًا بالإيمان،

وهي الأهداف التي لا تقف إلا مع توقف أنفاسه في هذه الدنيا التي يردد فيها مع كل خطوة (انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا).

ذلك أنها سعادة تتعلق باليقين وبما عند الله سبحانه من وعد حق، تتعلق بتحقيق الحكمة من خلق البشر ووجودهم في هذه الحياة، تتعلق بالرسالة السامية والأمانة الثقيلة التي يحملها كل مسلم ومسلمة على عاتقه بعد أن فقه الإسلام وعمل به وله. وكل هذا تبثه التربية الإيمانية البصيرة بالنفس البشرية كما أراد الله —خالقها سبحانه- لها أن تكون.

لهذا مهما بلغ بالمسلم من غنى وثراء تجده يحمل أمانة العمل بما منّ الله عليه من فضل، ينفق في سبيل الله وفي سبيل أن يصنع لنفسه موطأ قدم مؤثر في نهضة أمته يكون حجة له يوم القيامة. فيعيش متعة النجاح والبذل والنفع لا متعة الكسب وإشباع الشهوات فحسب.

2. مفهوم بناء الذات وتطوير المهارات

ونعود لموضوع بناء الذات وتطوير المهارات، فبعد تحديد مصادر التلقي وتبيّن السليم من السقيم والبحث عن الأصيل منها لا المغشوش والاطمئنان لكل ما يصدر من الكتاب والسنة وخلاصات العارفين من أهل العلم والحكمة والتجربة.

نأتي لتعريف بناء الذات وتطوير المهارت، وهو في الواقع مشروع لا يحكمه سنّ معينة، فكل من أدركه بلغه، ولا يعتمد على ظروف بعينها فكل من اجتهد فيه حقق أهدافه.

وإنما هو مشروع اختصره القرآن بمصطلح بليغ وبليغ جـدا هـو "الإعـداد" وذُكـر بصـيغة الأمـر "وأعـدوا"، فالمسـلم مطـالب بإعـداد نفسـه لمواجهـة تكـاليف الحيـاة وعقباتهـا وصـعوباتها، ومطالب بالإعداد لحفـظ حريتـه وحريـة بلاده وأمنـه واسـتقراره وحضارته وقوته، ومطالب بالإعداد لترقيـة مشـاريعه في صـناعة الخير وما ينفع الناس في معاشهم وآخرتهم، ومطـالب بالإعـداد لحفـظ الحقـوق ورد المظـالم وإقامـة النظـام الإسـلامي بكامـل منظوماته العبقرية التي تحل جميـع مشـاكل المجتمعـات مهمـا بلغ بها التعقيد.

فبناء الذات وتطوير مهاراتها هو "الإعداد" للنجاح في رحلة الحياة وبلوغ مراتب الفـوز الأبـدي في دار الخالـدين، إنـه رحلـة العمر التي تشملها خصائص رائعة، أهمها القدرة على الانطلاق في أي وقت، والاسـتدراك في أي حين، والتعـاون كفـرد أو كمجموعة والتعامـل وفـق مـا يتـوفر من أسـباب وطاقـات لـدى الفرد ومحيطه. والأهم من ذلك كله، أنه مرهون باستطاعة الفرد فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ولهذا جـاء الوصـف العظيم في القـرآن (مـا اسـتطعتم)، لأن الاسـتجابة لأمـر اللـه بمـا يسـتطيعه العبـد هي المطلـوب، ومـا استعصـى عليـه فيـولي أمـره لخالقـه متوكلا عليه وهنا يظهر التوفيق الإلاهي والمعية الربانيـة وفضـل الله العظيم.

ومن هـذا المفهـوم، يبـدو واضـحا أن كـل مسـلم ومسـلمة مطالب ببناء ذاته وتطوير مهاراته وهو قادر على ذلك متى أراده.

ولنتأمل حين يصبح هذا المفهوم مطلبا واحدا بل الهدف المتفق عليه لدى أبناء الأمة المسلمة كيف سيتحول عطاء هذه الأمة وتفوقها وكيف سيصبح إنتاجها وسبقها.

3.الخطوط العريضة لبناء الذات وتطوير المهارات

لكن مفهوم بناء الذات يختلف من شخص إلى شخص ومن تركيبة نفسية إلى أخرى ومن جنس إلى آخر.

فلا يمكن أن نبني جميعا أنفسنا كنموذج منسوخ لبعضنا البعض، بل إن سرّ قوتنا ونجاحنا كأمة مسلمة هو نماذجنا المنفردة المتكاملة وقدراتنا الشخصية المنسجمة المتوافقة.

ومن هنا ننتقل إلى مفهوم البناء لدى كل شخص بحسب شخصيته وطاقاته وظروفه المتوفرة وطموحاته.

ـ معالجة نقاط الضعف

وهذه يقيّمها كل فرد بنفسه، ولعل أهم الخطوط العريضة لها، أن يبحث الإنسان نقاط ضعفه فيعالجها، مثال على ذلك: إن كان سريع الغضب كثير الانفعال، فليعمل على التطبع بطبع الهدوء والصبر وحسن التوكل والحلم. وهي معركة مع الذات يعينه في كسبها العبادات القلبية والقراءات النافعة والمداومة على الذكر والقرآن والأخذ بالوصايا النبوية المعالجة والرفقة الصالحة.

وقد تكون من نقاط ضعفه قلة علمه وضعف تحصيله المعرفي، وهنا يمكنه أن يبحث عن مدارس تقدم دورات تعليمية أو برامج خاصة للتدريس بأساليب أكثر مرونة وسهولة

للاستيعاب أو البحث عن أهل العلم والاختصاص ليرشدوه لأفضل المراجع التي يمكنه من خلالها رفع مستويات معرفته ثم رسم برنامج لمتابعة تحصيله العلمي فتتغير حياته مع كل معلومة جديدة تطرق عقله ويحلق مع متعة التعلم.

وقد تكون نقطة ضعفه البطالة وعدم القدرة على إيجاد عمل يشغله وينطلق من خلاله وأعتقد أن هذه مشكلة الكثير من شباب المسلمين اليوم.

وعلاج البطالة يكون ببحث الأعمال التطوعية التي يخدم فيها المسلم دينه وأمته. ولا أتحدث هنا عن طرق كسب العيش فهذه لها مقام آخر وهي أرزاق يسوقها الله لعباده وإنما عليهم بحث الأسباب لتحصيلها راضيين بقدرهم وصابرين مصابرين حتى يفتح الله عليهم.

ومع ذلك لا يمكن لهذه البطالة أن تحرم عاقلا لذة العمل والنشاط، وإن كان ذلك بدون مقابل مادي، فالمقابل المعنوي كبير جدا وكافٍ للمخلص، وهو بتطوعه يكسب مهنة وحرفة وخبرة، وتتوسع لديه المدارك والمفاهيم ويتعود الانتاجية ويخرج من دائرة العبث والتيه والكسل وهدر الوقت والصحة فيما لا ينفع بل يضر. وقد رأيت نماذج جديرة بالتقدير لشباب شغلوا أنفسهم بطلب العلم والرياضة والعمل التطوعي الخيري، فكانت بصيرتهم أن جمعوا بين قوة العقل وقوة الجسد، وتأمل معي هذه الآية من سورة البقرة: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ**

أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ).

فكان الاصطفاء لمرتبة الملك، تميز طالوت في قوته العلمية والجسدية، وهو غاية ما يطمح له الشاب المسلم، فإن تعذر عليه كلاهما فلا أقل من أحدهما مستندا لرصيده الإيماني والخلقي.

وكما أن الرجل قد يشكو قلة العمل تشكو كذلك المرأة من كثرة الفراغ وقلة الانشغال بما ينفع، مع أن أمام المسلمة خيارات كثيرة في برامج المسابقة بالخير والإحسان وتجارة الحسنات الرابحة التي لا تفوت عاقلة. بل أكاد أجزم أن المرأة أكثر قدرة على تحقيق بناء ذات رهيب وتطوير مهاراتها الشخصية بسرعة أكثر من الرجل حين تحمل همّ ذلك بجدية وتتوقد لديها الإرادة والعزيمة كشعلة لا تنطفئ.

من الصعب أن أحصر جميع نقاط ضعف الإنسان في هذه السطور ولكن الشاهد مما سبق، أن الهدف الأول من مشروع بناء الذات هو تحديد نقاط ضعف المرء ومعالجتها.

ـ تقييم المهارات وترقيتها

أما الهدف الثاني فهو بحث المهارات التي تميل لها نفسه البشرية والعمل على ترقيتها، فمن كانت ميوله قوية لحرفة ما ورغبة واضحة فيها، ليبحث سبل تطوير معرفته بها، وكم من عبقري في عالم الحاسوب انطلق من هوايته للحواسيب وكم من ناجح في التجارة والأعمال دفعته محبته لعالم الأعمال لا شهادته الأكاديمية، فالعبقرية تتفجر بحسب الرغبة التي تدفع

صاحبها وبحسب ما جمع لها من أسباب ووفر لها من وسائل، غايته الإسلام.

وبناء الذات مهم جدا لكل فرد، أبا كان أو ابنا، أما كانت أو ابنة، فالأبوة علم، وتحصيله يستوجب من الأب أن يبحث عن كل أسرار هذه المهنة العظيمة ويطور أداءه في التربية والتعليم لأبنائه بما يوافق الهدي النبوي الشريف وبما يليق برب أسرة هي الوحدة الأولى لنسيج المجتمع المسلم.

وكذلك الأم، من حيث كونها مصنع الأجيال والمحضن الأول للهمم المقبلة. وكلما كانت اهتمامات الأمة راقية خرجت لنا نماذج لا تقل تميزا وروعة عن نماذج الأجيال السابقة.

ويدخل في هذا المشروع، تطوير مهارات المرء في كل ما يقع تحت دائرة مسؤولياته، فـ (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته). ولا يُعقل أن يكون المعلم جاهلا بوسائل التعليم أو الطبيب مقصرا في أسباب الإحاطة بجديد البحث العلمي أو الأم مغيّبة عن فنون إدارة البيت!

إن المسلم والمسلمة في نشاط دؤوب، لتصحيح الأخطاء ولتطوير الذات واستكمال النقص، وإتقان العمل بإخلاص، فإن لم يتمكن المرء من تحقيق أغلب طموحاته في هذا الميدان فلا أقل من تحقيق نصاب ما يسمح له بالدخول في مرتبة المجاهدين قال تعالى : (**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**).

فتأمل معي أيها المسلم هذه الآية العظيمة، كلما زاد اجتهادك ومجاهدتك لنفسك وللصعاب، كلما انفتحت لك

الأبواب وبرزت مع الوقت معالم الطريق وسهل عليك المسير والتقدم. ثم لا تسل بعدها عن معية الله سبحانه وفضله على عباده المخلصين.

يقول ابن القيم رحمه الله:

لا يزال المرء يعاني الطَّاعةَ حتى يألَفها ويحبها، فيُقيِّض الله له ملائكةً تؤزُّه إليها أزًّا، توقِظه من نومه إليها، ومن مجلسه إليها. وقال سبحانه:﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ كلَّما ازداد العبد قربًا من الله، أذاقه من اللـذَّة والحلاوةِ ما يجِد طعمها في يقظَته ومنامِه، وشرابه وطعامه، حتى يتحقَّق ما وعده اللهُ فيه؛ ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾.

وهذا التشخيص الثاقب والرائع لابن القيم رحمه الله، لن تجده في الكتب الغربية مهما ازدانت بنسيج العبارات، ولن تجده إلا في كتب من أوتي فضلا عظيما من ربه.

ـ مرحلة العطاء والإنتاج

بعد معرفة نقاط الضعف وتحديد سبل علاجها وبعد تحديد المهارات وسبل تقويتها نأتي لمرحلة الإنتاج، وهي المرحلة الطويلة التي تمضي مع الانسان كرفيق درب صالح لا تنتهي صحبته لحدث مؤلم أو ابتلاء ولا تقف عند قلة ذات اليد أو ضعف الحال.

وهي المرحلة التي ينثر فيها من ثمار إعداده ويترك الأثر الرائع في مسيرته يقتدي به من خلفه ويفخر به من حوله.

وينعكس ذلك على أداء الفرد في الثغر الذي يقف عليه، فتظهر ملامح الصدق والإتقان والتفاني في عمله وفي سلوكه اليومي.

وكلٌّ واجتهاده وطموحاته، ولا تباين بين مشاريع الخير والعطاء حين يكون القلب مخلصًا والنية صادقة والإحسان غلابًا.

وقد يعاني المرء من عقبات مزعجة، كالمحيط المشوّش وضبابية الهدف وقلة المعين، وغيره من أسباب تجعل من انطلاقته ضعيفه، وخير ما يستعين به المرء في مثل هذه الحال، هو قضاء حوائجه بالسر والكتمان، وحسن التوكل على الله، فلا يكشف عن برامجه في بناء ذاته وتطوير مهاراته، ولا داعي للتشهير فتذهب بركة المسابقة.

وكلما كثر الحديث عن مشروع واعد كلما كثرت عثرات صاحبه وكثرت متاعبه.

ولا يعني الوصول لمرحلة الإنتاج أن يتوقف المرء عن الاستزادة والتعلم، فهل تسير سيارة بدون وقود لهدفها المنشود؟! بل لابد من المداومة على النهل من معين العلم والمعرفة بشكل موازي لنشاطات المسلم.

4. ملخص دليل بناء الذات وتطوير المهارات

وهنا ألخص دليل بناء الذات وتطوير المهارات في نقاط:

1ـ تحري مصادر التلقي الأصيلة.

2ـ تحديد مقياس الاختيار وفق مقاييس "الإسلام" العادلة.

3ـ تحديد مكامن الضعف والسعي لعلاجها.
4ـ تحديد المهارات والسعي لتطويرها وفق استطاعة المرء وما هو متاح.
5ـ الانطلاق في مرحلة الانتاجية بإخلاص والزاد هو الوصال مع السماء مهما ضعف الإعداد المستطاع.
6ـ تجاوز العقبات وقضاء الحوائج بهدوء بعيدا عن ضجيج الإشهار المحبط والعجب بالنفس والرياء.
7ـ الابتعاد عن كل ما يمحق بركة الإقبال ويحرم من الفتح المبين، وعلى رأس ذلك الذنوب والمعاصي والانتهاء بحزم "البطل" عن كل ما يعكر صفو العطاء والمسابقة.
8ـ إن صدق البذل في بناء الذات تترجمه ثمار العمل بعد التعلم، فمن لم يعمل بما علمه ولم ينفع ببنائه لذاته وتطويره لمهاراته فهو بحاجة لتصحيح المسار والانطلاق من جديد بنية صادقة وهمة أخلص.
9ـ إن بناء الذات لا يعني أن تكون شابا في مقتبل العمر أو في ذروة قوتك، بل حتى الضعيف والمعاق والكهل والشيخ، كلّ منهم مطالب ببناء ذاته وتطوير مهاراته بما توفر لديه من قدرة ووسائل، بل إن العطاء يكون مبهرا مع كثير من النماذج الصادقة التي أحسنت فقه بناء الذات وأحسنت توظيف مهاراتها. فكيف يطيب كسل أو قعود مع من وصية رسوله صلى الله عليه وسلم: " إذا قامت الساعةُ وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم: "احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزنّ".

وختاما، فهذه كلمات مختصرات في مواضيع كبيرة المضمون والأصول والتفرعات، وإنني هنا أختصرها لأناشد كل مسلم ومسلمة للسعي في بناء ذاته وتطوير مهاراته في مسيرته في هذه الحياة الفانية، مقبلا لله مخلصا إليه منيبا.

وإني لأعلم حجم العقبات والصعوبات التي قد تتربص بعزيمة المرء في هذا الزمان لكنني أرجع وأشدد على مصادر التلقي، فوالله إن كل الأسرار والحكم وأسباب القوة والاستمرار والسعادة والنجاح تستنبط من القرآن العظيم ومن سنة النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم، وما من داء إلا وله دواء وما من معضلة إلا ولها الحل لدى المستبصرين بنور الوحيين، فامض في دربك واضبط مواعيد بذْلك ضبط الدقائق والثواني، يحدوك إلى نهاية السفر (**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**) و(**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**).

✿ ✿ ✿

31

إن لكل قوم عيدًا وهذا ليس عيدنا

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده وعلى آله وصحبه، أما بعد،

فكما جرت به العادة عند نهاية كل سنة ميلادية، تسارع القنوات الفضائية والمنابر الإعلامية للترويج للحفلات الصاخبة والفعاليات المصاحبة والترتيبات والتهنئات، بمناسبة ما يسمى "يوم رأس السنة الميلادية الجديدة" الذي يسبقه بأيام معدودات، "عيد الميلاد المجيد"، أحد أعياد النصارى البارزة.

وللأسف فإن الهالة التي ترافق الاحتفال بالعيدين، تبرز الفارق في درجة الاهتمام بهما كعيدين غربيين، يفوق الاهتمام بأعياد المسلمين الواجبة ـ الفطر والأضحى ـ في عالمنا الإسلامي.

وبعيدا عن كون الأمر تشبهًا جليا بالنصارى وهو ما نهى عنه الإسلام ببينات شتى، فإن الانهزامية والضعف التي يعكسهما مشهد تقليد النصارى في آخر كل سنة ميلادية ليدعو للأسف العميق.

وإن جادل بعضهم في أن الاحتفال بيوم رأس السنة لا يخرج عن مفهوم الاحتفال، فإن معاودة هذا الاحتفال في الموعد المحدد له في كل سنة، يجعله عيدا بمفهوم اللغة والاصطلاح والأعراف. ولاشك أن هذا الأمر مخالف لشريعة الإسلام التي استبدلت أعياد الجاهلية بعيدين اثنين، لا ثالث لهما، فمن زاد على ذلك فقد وقع في البدعة. عن أنس بن مالك قال: كان لأهل الجاهلية يومان في كل سنة يلعبون فيهما، فلما قدِم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة قال: (كان لكم يومان تلعبون فيهما، قد أبدَلكم الله بهما خيرًا منهما؛ يوم الفطر ويوم الأضحى).

وما من مسلم يتحرى لنفسه مواطن التقوى ويترفع بها عن مهاوي الشبهات ثم قرأ قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم يخاطب أبا بكر بشأن أحد أعياد المسلمين (إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا)، إلا وتبادر إلى فهمه خصوصية الإسلام بتشريعاته وأعياده، ويدرك معنى قول الله سبحانه وتعالى:(**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**).

ومع أن النصوص واضحة في تحريم التشبه بالكفار حتى في الاحتفال بأعيادهم، لا زالت ظاهرة الاحتفال بيوم رأس السنة على طريقة النصارى منتشرة في عالمنا الإسلامي بشكل يدعو للاستنكار، وتجاوز الكثير من المسلمين وصية نبينا صلى

الله عليه وسلم (خالِفوا المشركين)؛ وتحذيره الشديد من عواقب هذا الأمر في قوله (من تَشبَّه بقوم فهو منهم).

وأوضَحَ هذه المعاني الإمام الذهبي – رحمه الله- بقول: "فإذا كان للنصارى عيد، ولليهود عيد، مُختصين بذلك، فلا يُشارِكهم فيه مسلم، كما لا يُشارِكهم في شِرْعتهم ولا في قِبلتهم".

بل ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله- إلى أبعد من ذلك فقال: "ولا يجوزُ بيعُ كل ما يستعينون به على إقامة شعائِرهم الدينية".

وقد أكد ذلك أيضا تلميذه الإمام ابن القيم ـ رحمه الله- حيث قال: "وكما أنه لا يجوز لهم إظهاره [أي العيد] فلا يجوز للمسلمين ممالأتهم عليه ولا مساعدتهم ولا الحضور معهم باتفاق أهل العلم الذين هم أهله".

ثم كيف يمكن لمسلم مهتدي أن يتبع كافرا ضالا في ضلاله! قال تعالى:(**وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**).

وما يزيد الطين بلة والحزن أسى، أن يسارع بعضهم لمحاكاة الزينة في أعياد غير المسلمين، فتكتسي المنازل بألوان ما يسمى "الكريسمس" ومنهم من يعلّق أذهان أطفاله بفساد

فكـري فيـوهمهم أن "بابـا نويل" أو "سـانتاكروز" سيحضـر لهم الهـدايا ! وهي أكـبر أكذوبـة ربي عليهـا أولاد النصـارى خلقت لـديهم عقـدًا نفسـية واضـطرابًا كتب فيـه بعض علمـاء النفس والطب منتقدين فكرة إنشاء الطفل على أكذوبة يعمد لترسيخها الوالدان مع درايتهما بذلك ثم يطالبانه بالصدق والفضائل.

وكم من مسلم أخـذ لأطفالـه صـورًا في حضـن هـذا الرجـل الـذي يلبس اللبـاس الأحمـر المميـز، بلحيـة بيضـاء اصـطناعية وقبعة بذيل متدلي، فيتعلق قلب الطفل به ويهـوى طريقتـه وهـو المسلم الفتي!

ولسنا في مقام تفصـيل أصـل قدسـية هـذا العيـد والشـجرة الـتي هي رمـز فيـه، ولا تـاريخ "سـانتاكروز" وعلاقتـه الوثيقـة بمفاهيم عقدية لدى النصارى، ولا حتى كشف حقيقة عيد يـوم رأس السـنة الـذي يمثـل عقيـدة وتاريخـا لـديهم، ولكننـا بصـدد التنبيه على أن التشبه بالكافرين في أعيادهم بدعة عظيمـة وجب اجتنابها والتحذير منها.

قال الإمـام الـذهبي: (قـال العلمـاء: ومن مـوالاتهم (اليهـود والنصــارى): التشــبُّه بهم، وإظهــارُ أعيــادهم، وهم مــأمورون بإخفائهـا في بلاد المسـلمين، فـإذا فعلهـا المسـلم معهم، فقـد

أعانهم على إظهارها، وهـذا منكـرٌ وبدعـةٌ في دين الإسـلام، ولا يفعلُ ذلك إلا كلُّ قليل الدين والإيمان)[9].

وإنه لمؤسف أن نرى الشباب المسلم في عصرنا الحديث الذي تنزف فيه الأمة المسلمة من وطأة النوازل والمدلهمات، وهو يتمايل عوده راقصا مبتهجا لانتهاء سنة ميلادية كاملة، وكأن قلبه يطيب له الاحتفال باقتراب أجله، ودنو موعد الحساب! وهذا إن دل فإنما يدل على درجة التبعية بعميّة التي ابتلي بها المسلمون إلا من رحم ربي، فكان وصفهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟! قَالَ: فَمَنْ؟!".

ولعل ما يعمد له الساعون في خراب هذه الأمة ومحو قداسة شرائعها الدينية وإعاقة مسيرة حضارتها الإسلامية، هو تزيين هذه الأجواء في نفوس المسلمين، الغارقين في شعور اليأس والقنوط والعجز وكذا الفقر والحاجة، فمجتمعات برمتها مضطهدة وثورات مجهضة وآمال محطمة، فيتسلل لهم الشيطان من خلال هذه الاحتفالات فيميلون ميلة واحدة للهو المحرّم لعلهم يهربون من واقعهم المرير، وليت الأمر يتوقف عند اللهو بل هو التمجيد لطريقة الغرب في الاحتفال واعتباره رقيًا حضاريًا وتميزًا يحسدون عليه رغم كل الشذوذ الذي

يحملـه ومشـاهد التخلـف وانحطـاط السـلوك الـذي تعكسـه ممارسات المحتفلين به، فكان تأثير الثقافة الغالبة غلابا!

ويتساءل المرء من يدير هذه الإمبراطوريات الإعلامية الـتي تضخ هـذا الفسـاد ضخاً في مجتمعاتنـا الإسـلامية، من يموّلهـا ويوجه سياسـاتها الإعلامية! من يـدفع بـإدارات الترفيـه لتتوسـع في جلب كل شاذ وساقط وسفيه لشغل المسـلمين برقصـه على منصة، ساعات ممتدة تهـدر بلا فائـدة مرجـوة وتتبـدد الطاقـات أمدا. أليس تيار التغريب المسموم الـذي يـتربص بنهضـة الأمـة، والذي يحاول أن يضرب أسس نهوضها بشغل شـبابها عن دينـه بإغراقه في مستنقع الشهوات وما حط من الاهتمامات!

ويا ليتنا شاهدنا ذات الإهتمام حين تحين أعياد المسلمين، بـل إن كثيرا ممن يحتفـل اليـوم بأعيـاد نهايـة السـنة الميلاديـة يتعامل مع عيد الفطر وعيد الأضحى كأيام عادية، لا يظهر فيهـا الاعتزاز بشعائر الله ولا يقيم لها وزنا ولا اعتبارا!

فكيف يمكن أن يمثل الإسلام من لا يعظم شعائر الله، ومن لا يحفظ ميزان ولاءه وبراءته، ومن لا يغار على حرماته ويشفق على كل يوم مر يدنو به إلى أجله؟

إننـا نشـاهد مزامـير الشـيطان وقـد غـزت أجـواء المسـلمين بحجة الفن والطرب! وكأننا في وقت دعة وتـرف، في حين تبـاد

أمم كاملـة من أمـة الإسـلام في تركسـتان ومينيمـار وإفريقيـا الوسطى على مرأى ومسمع البشر!

وكـأن فلسـطين لا تئن تحت مطرقـة الاحتلال الصـهيوني وسندان العمالة والتطبيع!

وتلك العراق وسوريا قد استولى عليها الرافضي ولا شك أن لبنان واليمن لم تخرج عن فكّ أطماعه.

فبـأي يـوم رأس سـنة يحتفلـون؟ هـل يحتفلـون على تلـك الدماء المسلمة التي سكبت، أو على حجم الدمار الـذي نـال من مـدن المسـلمين ، أم على أعـداد الأسـرى الـذين يعـانون خلـف زنازين الظلم! أم على عدد الأطفال الذين قضـوا من الجـوع؟ أم على محاربة الفضيلة والدين!

وليت الـذي سـارع للاحتفـال بهـذا اليـوم! أن يجعلـه يـوم محاسبة شاملة، لما أنجزه من خير أو وقع فيه من شر طيلـة أيـام السنة، ولينظر كم اقترب وكم ابتعد من خط النجاة، فإن اطمـأن لإنجازاته فلا يفسدها بخاتمة الحرام، كالتي نقضت غزلها منـذ بعد قوة أنكاثا.

وإن وجـد التقصـير فلابـد من الاسـتدراك لا الانبسـاط والاحتفال!

ومع أن الله أبدلنا عن السنة الميلادية سنة هجرية مليئة بالعبر ومواقف الفخر والاقتداء، لا زال المسلمون يتبعون الغرب حتى في نظام تواريخه!

إلى هنا يقف القلم عن لفت النظر، وننتظر تلك الضمائر أن تتحرك وتنكر البدع وكل ما يقوّض فرص نهوضنا كأمة معتزة بشرائع الإسلام تنير فضاء العالم برقيها وسمو أخلاقها واهتماماتها وحضارتها الماجدة لا تابعة ذليلة لقوم أضل.

✿ ✿ ✿

32

بين قيادة العلماء وقيادة الإعلاميين

ينتابنا الشوق والحنين، وشعور بالغربة مرير، حين نطالع صفحات مجدنا التليد. ولعل ما يعمق هذه المشاعر ذلك الفارق الشاسع بين الأمس واليوم، تأبى ضمائرنا أن تتقبل الضعف والمهانة التي قبعنا في قاعها نتخبط، مع ما تحمله أمتنا من ميراث ثقيل وتاريخ زاخر بالقوة والمكانة.

وحين نحاول تشخيص أهم أسباب هذا المآل، علينا أن نستذكر ـ بتوقير ـ مكانة العلماء عند كل موقف نصر أو مشهد عزة أو رقي حضارة أو ازدهار لفكرنا الإسلامي.

حينها كان العلماء قادة الأمة بلا منازع، مرشديها بلا مجادل، يقومون بشؤونها السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لم ينحسر دورهم في الإفتاء وتحصيل العلم، بل كان دأبهم العمل وسياسة الجماهير لما فيه الخير، فكان نتاجهم باهراً.

على عكس الحـــال اليـــوم، حيث تصـــدر الإعلاميـــون في الواجهة بدل العلماء، وأضحى الإعلامي بمـا يحملـه من بضـاعة مزجاة، يمارس دور «العـالم الملم»، فيقـود الجمـاهير تـارة هنـا وتارة هناك، بما يوفي التزاماته لأربابه، ومن وظفه ليقتات.

وإنــه لمؤســف بحـق، أن نشــاهد عـدد المتـابعين لمنـابر العلماء لا يصل لعـدد المتـابعين لقنـوات الإعلامـيين في أغلب الأحـوال، بـرغم ضـآلة النفـع الـذي يحصـله المـرء منهـا وكـثرة التشويش والاستهتار. وكذلك الاستشهاد بقـول الإعلامي الـذي تتجاذبه التصريحات في النـوازل والمـدلهمات بـدل البحث عن قول عالم عامل رباني يستند إلى معالم الحق!

ولا شك أن هذه الظاهرة لهي من مخلفـات الغـزو الفكـري الغـــربي، الـــذي تخلص من قيـــود الكنيســـة لمـــا اعتراهـــا من تناقضات وارتمى في أحضـان الماديـة بكـل اغـترار، فأخـذ يـبرز الآلـة الإعلاميـة لصـالح أهدافـه في الهيمنـة والعلـو في الأرض، وبالتفـاني في العـرض والاجتـذاب ظهـر الاهتمـام بـالإعلاميين والتأثر والانقياد.

وبهـــذا أصـــبحنا نشـــاهد الإعلامي ينتقـــد ويصـــحح ويقيّم ويوجه الحكومات والعلمـاء والشـعوب بانتقائيـة، وكأنـه مؤهـل لمثل هذا القضاء! مع العلم أن الآلات الإعلامية بكامـل أدواتهـا

توظفها حكومات وأنظمة وتيارات متصارعة في حلبة النظام العالمي تقودها السياسة والمصالح وغريزة حب البقاء.

وبالإضافة لهذا التأثر الفكري بنهج الغرب في التعامل مع الجماهير يساعد هذه الظاهرة في البروز تراجع دور العلماء بل غيابهم أحياناً كثيرة حينما يتعلق الأمر بالقيادة والتوجيه.

على عكس تلك العصور الذهبية التي كان فيها للعالم هيبة وسلطان يفوق ما لدى الملوك والأمراء، نجد اليوم الساحة فارغة يسرح فيها ويمرح كل رويبضة ومتعالم ومتنطع وربما خصم للإسلام لدود.

فمن لم يحرك وجدانه سيرتا الهروي وابن الخشاب رحمهما الله في أواخر القرن الخامس الهجري، عندما هدد أمن الأمة المسلمة حملة صليبية أولى كبرى على بلاد المشرق، وأخذت جيوش الغرب الجرارة تتوغل بعمق، وتسلب المسلمين الأرض وتهين الكرامة وتنهب الخيرات والثروات، في مساحة تمتد من الأناضول إلى أرض بيت المقدس.

تماماً كما نعيشه اليوم، كانت حالة الضعف والعجز والانقسام تبدد صلابة دولة السلاجقة، المظلة الأولى للأمة الإسلامية في ذلك الوقت، وخنجر الغدر يغرز في خاصرتها من

الفاطميين العبيدين مماثلاً لما نراه اليوم. فسقطت الشام ورفرفت رايات الصليب على تلالها.

ومع ذلك ومع درجة الضعف تلك والتهديد القاهر، وقف قاضي دمشق زين الدين الهروي، وفقيه حلب ابن الخشاب ومن رافقهما من علماء وقفة ثبات وقادوا الجماهير قيادة العلم والبصيرة.

فكانت ثمرات وقوفهم على ثغرهم وسهرهم على أداء الأمانة بكل تفانٍ واجتهاد، خروج جيوش المسلمين لمواجهة عدوان الصليبيين الغاشم. وكانت بركات حرصهم واجتهادهم، علو شأن عماد الدين ونور الدين الزنكي، أول من سعى في توحيد الجبهة الإسلامية كقادة وأول من دق مسمار الجهاد في نعش الصليبيين كمجاهدين. وأتم حصادهم فاتح بيت المقدس صلاح الدين الأيوبي بتحرير فلسطين، وعلى دربه طهر بلاد المسلمين المماليك من فلول الغزاة المحتلين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

ثم جاءت نوبة العدوان التتاري، وبرزت خلالها قيمة العلماء في حفظ بنيان الأمة وتوجيه الجماهير لساحات النصر المبين، ومن منا لم يتأثر بمشهد العز بن عبد السلام سلطان العلماء وهو يقود الجموع للتضحية بالنفس والنفيس في معركة

عين جالوت الفاصلة سنة 658هـ، ويلقي بالأوامر على سلطان مصر سيف الدين قطز ويسمع الجميع له ويطيع!

من منا لم يتأثر بسيرة كفاح ابن تميمة، الذي تصدر الصفوف الأولى بنفسه في معركة شقحب الشهيرة، فمنّ الله على المسلمين بنصر عظيم على المغول عام 702هـ. دون الحديث عن سيفه المسلول على المبتدعة وأعداء الدين، فكانت كتاباته كالمنجنيق تهدم حصونهم وتحفظ بنيان هذه الأمة.

ثم في عصر غير بعيد عنا، قاد الجهاد الفلسطيني لأكثر من نصف قرن الشيخ الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وكذلك فعل الشيخ عز الدين القسام العالم السوري الذي انتقل لأرض فلسطين وقاد الكتائب ليتصدى للإنجليز واليهود وفي الوقت ذاته كان ينشر الدعوة والعلم بين الجموع.

فالعالم من أمثالهم كان وقود أمة برمتها، ترجم علومه إلى أعمال برغم التكاليف المكلفة، فأتقن السياسة بمعنيين اثنين، سياسة الجماهير لما فيه صلاحهم، وسياسة الحكم بالحرص على رعاية مصالح المسلمين وانتظام أحوالهم وثباتهم عند المحن والمواجهات، على عكس السياسة في عصرنا اليوم التي لا تتعدى الخداع والكذب والتذبذب تماماً كما لقنها لنا

الغـرب. لا يحكمهـا ضــمير حي ولا قيم ولا مبـادئ! فكـان من مســتلزمات هــذا المكـر، إقصــاء تـام للعلمـاء وتجريـد كامـل لحقـوقهم في الوقـوف على شـؤون الأمـة ومـا يحكم مصـيرها، واقتصـر على تـوظيفهم فقـط في مـا يـتيح للحكومـات تـرويض الشعوب المسلمة.

ويقـول ابن بـاديس رحمـه الله في هـذا الأمـر: «الإسـلام لا يحجر على العلماء التدخل في أي شأن من شؤون العامة ـ كما يزعم البعض في هـذه البلاد ـ بـل هم أولى من غـيرهم بـذلك، وهم رعاة الأمة المسـؤولون، وليس لغـيرهم أن يسـتهجن فعلهم أو يلـومهم إذا هم قـاموا بمـا يجب عليهم نحـو أمتهم، وليسـت مهمة العالِم في الإسلام قاصرة على التدريس والإرشاد فقـط ـ وبعد فهل كان العلماء في كل أمة وفي كل عصـر إلا قـادة الفكـر والسياسة والدين؟»، لنعلم أن القيادة يوجـه دفتهـا عـادة العلمـاء ممن عرف أسرارها وأعطاها حقها من الدراية والبذل والحكمة.

وحـتى نقـرب الصـورة نضـرب المثـل، ولننظـر كيـف يتم عـرض خـبر يمس الإسـلام للجمـاهير كي تتقبلـه، كخـبر منـع النقــاب في بعض المجتمعــات المســلمة، فيتناولــه الإعلامي بسرعة وخفة ويبرره بجهل وتلبيس مهوناً من وقعـه، في حين لا يستشهد بقول العالم إلا على سبيل النقد والتهميش.

ولو أن الجماهير أنصتوا لصوت العالم لما تجرأ حاكم على منع النقاب! ولكن الإعلام حاول جاداً أن يخلق الفجوة بين العلماء والجماهير، وعلى هذه نقيس في كل نظم الحياة اليومية، من قوانين تُفرض ترفضها الشريعة، ومعاملات تسري تتعدى حدود الشريعة. ومع ذلك يلعب الإعلاميون دوراً مهماً في تهوين المصاب وتعويد الجماهير على الصدمات والتعبير على المواقف ووسائل الإلهاء بما يوافق سياسات أرباب مؤسساتهم الإعلامية التي تقودها أنظمة وتيارات لا تخدم الإسلام بل كثيراً ما تحاربه.

ولعل من أبرز ما يفسده الانقياد لغير العالم، هو ما يتأثر به المتلقي من أسلوب في الطرح أو كلمات في النقد، كقلة في الأدب والتطاول والجدال، وما حط من خصال، على عكس العالم الذي يضخ معاني الأدب والأخلاق وتقوى الله في الأجيال.

وبدل أن ترتبط الجماهير بدينها وأصالتها وتعيد الثقة بنفسها وطاقاتها، فيتجدد لها أمر دينها وتنطلق الهمم بامتداد، نشاهد التقهقر في مساحات ضيقة فقط لطرح المشاكل والشكاوى والتنديد دون توجيه الطاقات للعمل، فالناس ألفت المشاهدة، اعتادت على مقاعد المتفرجين ولا تتحرك لمواقع التأثير في الأمة، ولا مواطن العمل والعطاء، تقضي الساعات

وهي تقرأ التحاليل الموجهة بعناية، ثم يشوشها تحليل آخر معاكس ويحبطها تحليل ثالث مفلس! وهكذا تتراوح النفسيات بين التحليلات والتكهنات وتنفصل العروة التي تربط العبد بربه ودينه ومعالم الحق! وبدل أن يتبع النهج الرباني يغرق في جدالات الشاشات. وبدل أن يحكم على الأمر بمفهوم الإسلام يحكم عليه بمفاهيم الغرب القاصرة! وبدل أن يتعلق باليقين يتعلق بالتصريحات البائسة.

وما يزيد الطين بلة أن أغلب العلماء الذين يبرزون في الساحة ـ بغض النظر عن الأسباب ـ تنحسر خطاباتهم في نشر العلم الشرعي وتقويم السلوكيات، فجاءت خطاباتهم انعزالية أو أصولية، في وقت ينبض فيه الشارع ويتلمس كل من يداوي جراحاته ويلبي حاجاته ويتفاعل مع قضايا أمته، فكانت الهوة.

وهي الهوة ذاتها التي يزيد من تعميقها الركون لدعاوى ما يسمى الديمقراطية، والعلمانية التي تفصل الدين عن واقع حياة المسلم وتقطع الجيد المتصل بالسماء ليضيع المرء في متاهات التخبط والشرك. ويا ليت شعري حين تصبح هذه الأدوات مطلباً ملحاً لدى المسلمين بجهل وغفلة. يستجدون الحل في مسالك الغرب بعقيدته الفاسدة ويتركون الحلول التي يقدمها لهم الإسلام بالمحجة البيضاء!

بأيمانهم نوران ذكر وسنة فما بالهم في حالك الظلمات؟!

فمن لهـذه الجمـاهير حين يغيب العـالم، من لهـذه العقـول المشردة حين يخذلها العارف؟!

وقد يتساءل أحدهم كيف نحيي المهابة للعلماء ونعيد زمام القيادة لأيديهم، أقول الأمر معقد ويتحمل مسؤوليته الحلقـات الثلاثـة الـتي تمثـل تركيبـة كـل أمـة، الطبقـة الحاكمـة، وطبقـة الجماهير، وطبقة العلماء، فإن أقصت الأولى حق العلماء، فعلى الجمـاهير أن تفرضـه فرضـاً، وتعيـد لهم مكـانتهم الحـق، وعلى العلمـاء في الـوقت ذاتـه أن يكونـوا قـدر المسـئولية وأن يثبتـوا استقلاليتهم وعدم تبعيتهم أو أنهم مجرد أدوات في يد حاكم أو نظام، بل لا بد أن يفـوزوا بثقـة الجمـاهير حين تصـدق أفعـالهم أقوالهم، وحين تبصر فيهم الثبات على الحـق ولـو عنـد سـلطان جائر.

للأسف لقد أمعنت الآلة الإعلامية في تقزيم مكانة العلماء، وذلـك بمهمـتين اثنـتين، الأولى بتهميش دورهم والتقليـل من أهميتهم وإبعادهم عن ذاكرة الجماهير أو حصر دورهم في فقـه العبادات بدل معالجة قضايا الأمة، وهو مـا أسـميه الإقصـاء من دائرة التأثير الإعلامي في الجماهير، ثم الثانية، بسد الفراغ الذي يتركونه، بعلماء السـلطان أو الرويبضـات أو حـتى بـرامج اللهـو،

فأضحت البرامج الدعوية والدينية ـ على أهميتها ـ يلقيها لاعب رياضي، أو ممثلة راقصة أو جاهل لا يعرف حجم ظلمه لنفسه ويا لهول المصاب!

وتتبعها الجماهير بسبب بعض التأثيرات والزخرفات للترويج والتضليل، ويمكث العالم الذي غزا رأسه المشيب يدخر علمه لأجل غير مسمى.

وأستحضر هنا موقفاً مثيراً في عصر عماد الدين زنكي، حين تزاحمت الجماهير على أعتاب المساجد كما جرى في بغداد سنة 505هـ، فكسر الصاخبون الباكون المنبر واستجاروا بنخوة الخليفة والسلطان السلجوقي، وبنفس الطريقة استجاب المسلمون في بلاد الشام وخرج أهل حلب نساء ورجالاً وصبياناً سنة 532هـ، ودخلوا المساجد ومنعوا الناس من الصلاة، مطالبين بالجهاد حتى كسروا المنابر! لمواجهة الحملة الصليبية، ولنشاهد كيف يكون دور الجماهير قيادياً مؤثراً في بعض المواقف!

وحين يكتمل تواصل الحلقات الثلاثة (دفة الحكم والعلماء والجماهير) وتتفق على تطبيق شريعة الإسلام، فلا تحدثني بعدها عن عظمة العطاء ودرجات النجاح المبهرة التي

تبلغها الأمة المسلمة، ولكن إلى الآن حلقاتنا متفرقة وبينها وبين بعض مسافات، بل بعضها مفقودة تماماً!

قال تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**)، وأولو الأمر الذين تجب طاعتهم هم العلماء العاملون، وهو تفسير جمهور السلف رضي الله عنهم.

بل المتبصر في أحوال الحكام في ذاك الزمان الذي مضى، يجد الحاكم بنفسه عالماً، سواء في عصر الخلفاء الراشدين الذين كانوا أئمة وعلماء للمسلمين، أو فترات قيام الدولة الإسلامية مترامية الأطراف، وحتى إن لم يكن الحاكم عالماً، كان يستعين بالعلماء، ويستشيرهم في كل أمور سياسة الأمة، وكان يحسب للعلماء ألف حساب! كما قالت أم ولد للرشيد منبهرة في وصف عبد الله بن المبارك وهي ترى الناس تنجفل إليه: هذا هو الملك، لا ملك هارون الرشيد الذي يجمع الناس عليه بالسوط والعصا والرغبة والرهبة.

فحين تترسخ قيمة العالم في مجتمعه، وتدين له الناس بالاتباع تخضع السلطة مهما كانت متجبرة وظالمة، ثم لولا ثبات العلماء أمام جبروت الظلم لما انتعشت الجماهير

بمفاهيم العزة والثبات والكرامة والوحدة والمحبة والتفاني في خدمة الإسلام.

ولذلك استهدف أعداء الدين مراكز قوة المسلمين في علمائهم وتمت محاربتهم وملاحقتهم وتحديد مساحة تأثيرهم، وكلما بزغ نجم عالم وبدأت الجماهير تتهافت عليه، غيّب في زنازين السجون وناله من الحقد ما ناله، تماماً كما أفرغ الصليبيون الفرنسيون بالأمس حقدهم على الأزهر حين هاجموه بالمدافع وهدموا المنازل من حوله، وهدموا بعض جدرانه، ثم اقتحموه راكبين الخيل.. ولكن مكر أولئك يبور، فكان أن نصر الله المسلمين بأن قتل كليبر خليفة نابليون طالب أزهري هو سليمان الحلبي.

لن أواصل وصف مشهد الاستغفال الذي تعيشه الشعوب المسلمة حين تراجع العلماء وتصدر الإعلاميون، ولكننا على الأقل أصبحنا ندرك مكمن الخلل، فإما التدارك لتفعيلٍ ملحٍ لدور العلماء بإعادتهم للواجهة وتوحيد جبهتهم وتحصينها، ثم الحذر من تيارات الإعلام الجارفة وإعادة تقييم دور الإعلامي ليناسب حجمه ويخضع لتوجيه العالم لما هو نافع، وإما ستستمر حقبة التيه والظلام وتشتت الطاقات، إلى أن يشاء رب عادل.

33

من الحلول المهمّشة: العمل التطوعي

لم يزل العمل التطوعي سمة هذه الأمة، منذ انطلاقة نورها يشق ظلام الأرض، إلى يوم ألقت بظلال حضارتها سباقة بين الأمم.

ويرجع هذا الاهتمام بالعمل التطوعي ابتداء لتلك المفاهيم المستقاة من معين الكتاب والسنة، والتي تدعو المسلمين بآيات الذكر: (**وتعاونوا على البر والتقوى**) (**ومن تطوع خيراً فهو خير له**) (**وأوحينا إليهم فعل الخيرات**) (**وافعلوا الخير لعلكم تفلحون**)، تحثهم على المسابقة للخير (**فاستبقوا الخيرات**). كل هذا في سبيل الله وابتغاء مرضاته، لسان حالهم يردد (**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً**).

وعلى ذات الهدي حثت السنة النبوية المسلمين على العمل الخيري وتواترت الأحاديث المحرضة على ذلك، قال صلى الله عليه وسلم: " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن

كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة ". وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :"على كل مسلم صدقة"، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال:" يعتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق" قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: "يعين ذا الحاجة الملهوف "، قيل : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال:" يأمر بالمعروف أو الخير . قيل: أرأيت إن لم يفعل؟ قال:" يمسك عن الشر فإنها صدقة ".

وانعكست أنوار هذا الهدي في سير الصالحين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من بعد ذلك في العصور المتوالية، فكان التطوع لبنة أساسية في تماسك المجتمع الإسلامي وحفظه بنيانه ورقيه. ويطول ذكر الأمثلة من سير الخلفاء الراشدين والصحابة والمسابقين في تاريخ الأمة المسلمة – رجالا ونساء- من الذين خطوا صفحات مجد يتشرف كل مسلم بقراءتها والانتماء لأمة يجمعها القرآن والهدف والهمة.

ولم يحدد الإسلام نوع العمل الخيري وأجره، لأنه مقرون بنية العبد وإخلاصه، بل قرن العطاء فيه – ولو قلّ- بالإيمان لأهميته، قال صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة

الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان "وقال صلى الله عليه وسلم : "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار".

ومن ينظر اليوم كيف يسوّق الغرب لمفهوم العمل التطوعي عليه ألا ينبهر بهم، ذلك أن المسلمين كانوا الأسبق في حضارتهم لهذا التميز والخير. يستمدونه من شريعة ربانية لا تعرف النقص، ولكنهم قوم أدركوا أسرار قوتنا، فأخذوا منها ما ينفعهم ليبنوا عليه بنيان مجد أمتهم.

وفي وقت استُضعفت فيه الأمة المسلمة، تصبح الحاجة للعمل التطوعي ملحة والسعي له ضرورة وواجب. فالعمل الخيري يوظف طاقات المسلمين فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم وينمي الشعور بالمسئولية والتكافل الاجتماعي، ويربي الإرادة على عقلية العطاء والبذل، ويكسب صاحبه مهارات كثيرة وعلم، فيقوى نسيج المجتمع وتصمد وحدته أمام كل خطر.

قال صلى الله عليه وسلم: " مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ".

وانتشار بركات التعاون بين الناس يولد المحبة والمودة، ويغرس الفضيلة والقيم النبيلة، ويسد الثغرات التي قد يتطفل من خلالها المتربصون، كما يقصر من المسافات بين أفراد المجتمع الواحد، ويقوي شعور الإحساس بالغير، وهو ما يمثل مبدأ الأمة الواحدة.

لا يسعى صاحبه للمال، ولا للشهرة والجاه، يقدمه من طيب نفس وسعة صدر في سبيل أن يعم الخير بلاد المسلمين تحدوه الرغبة في الأجر والقرب من الله .

ومن أراد أن يطرق أبواب هذا الخير، فعليه أن يختار لنفسه المجال الذي يوائم عطاءاته ولا يستصغر العطاء مهما قلّ، فقد ذكر الحديث إماطة الأذى وعليها نقس كم من عمل صغير إن استمر، قد يحقق التغيير في سير مجتمعاتنا المكلومة.

قد تتفجر طاقات المرء في تقديم المساعدة في مجال التعليم أو تحسس حاجات الفقراء والمعوزين أو نشر العلم والدعوة بين العامة أو الإصلاح بين الناس وكل ما يدخل في فلك تفريج الكربات.

وقد يأخذ العمل التطوعي شكلا أكثر تنظيما وإدارة، كإقامة مؤسسات وجمعيات تحتضن طاقات المسلمين وتوظفها فيما يكون أثره أكبر، بحجم العطاء الجماعي وبركاته.

وفي وقت تمر به الكثير من بلاد المسلمين بنكبات حروب وفقر وحاجة وقحط، فعلى المسلمين أن يؤسسوا مؤسسات إغاثية كأولوية قصوى، تتولى نجدة المستضعفين والمهجرين وتغنيهم عن استجداء رحمة الغرب.

وللأسف رغم سخاء المسلمين لم تصل بعد منظومة الإغاثة لدينا لمستوى الغرب بماديته. مع أن النظر في مؤسسات الغرب الخيرية يحتاج لوقفة ونظر، إذ أنها مؤسسات كان لها أدوارا خفية لم تنبر لتقديم المعونة بدون أهداف سياسية ترجو من خلالها توسيع نفوذ حكوماتها وفرض هيمنتها وتصوراتها في مجتمعات مستضعفة. ويكفي أن نشاهد حجم الفضائح التي اقترنت بأسماء كبيرة ولامعة لمؤسسات حملت لافتة حقوق الإنسان والإغاثة بينما كانت الأولى في الاتجار بالبشر والتعدي على حقوقهم.

نعم يمكننا نصرة الشعوب المسلمة اليوم وتقديم المعونة والإغاثة لهم من خلال أبواب التطوع، من خلال التقرب لله بالعبادة والدعاء، والذي هو أضعف الإيمان أن يرفع الله الظلم عن كاهل المسلمين ولكن أيضا بالمسارعة لسد الثغور وتغطية المساحات الفارغة في الخطوط الأمامية ، كخط الدعوة والإعلام وخط الطب والإغاثة وخط الصدقات والكفالات. وغيرها.

ويـدخل في هـذا، العمـل على نشـر العلم وتحفيـظ القـرآن ودعم المؤسسات الراعية لكل ما يُبقي مصـادر التلقي محفوظـة من البدع والانحرافات .

وما يعكس روعة العمل التطوعي ذلك التنوع والبســاطة في الطرح الذي يمكن أن يتحقق بأفكار عملية وفعالة، وقد يبدأ من مجرد إعارة كتاب إلى إنشاء مكتبات ومراكز بحث ودراسات.

ومن بين المجـالات الـتي قـد يـبرع فيهـا المسـلم، مجـال الإعلام الذي أصبح بحد ذاته ساحة معركة تدور رحاهـا في كـل لحظة وحين، ولا يخفى تأثيرها على كل لبيب، فليتخذ لـه ثغـرا يدافع فيه عن الإسلام ويدعو فيه لوحـدة الأمـة والعـودة لكتـاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن يهدي الله به عبدا فهو خير له من حمر النعم.

فضـــلا عن رد الأباطيـــل وتفنيـــد الشـــبهات والتصـــدي للمتسلقين والمتربصين كي يعلم المتجرأ أن للدين أوليـاء ولكي ننتشل المغفلين من الانزلاق.

ومن الصـعب تلخيص جميـع أهـداف العمـل التطـوعي في حياة المسلم ولكن يمكن للمقبل عليه حصر خطط العطاء لديـه بحسب حاجة المجتمع الذي يعيش فيـه، فكـثرة الفقـراء، تعـني توسيع سبل جمع المال والصدقات لسد حاجاتهم. والتحـريض

على أداء فريضة الزكاة والتنبيه على أهميتها كفرض من فـروض الإسلام وحق لمستحقيها.

وكـثرة الجهـل تعـني الاعتنـاء أكـثر بنشـر العلم والمعرفـة والدعوة بينهم.

وكــثرة التهجــير والقتــل، يعــني مســاعدة المســلمين في الاستقرار وتلبية نقائصهم وسد حاجاتهم.

وكـثرة المـرض والمـوت، يعـني أن نبحث أسـباب تحسـين الظروف الصحية لإخواننا وتوفير الأدوية والمعونة الطبية لهم.

وكثرة العقوق والهموم والغم والكـرب، يعـني إحيـاء القـرآن في النفوس والسعي ببين الناس بالذكر.

وكـثرة البـدع والانحرافـات والتشـويه لهـذا الـدين والحـق، تحتاج لمن ينبري في عالم الشـبكات وميـادين المواجهـة ويبلي بلاء الفارس الحسن.

وعلى هذه يمضي يوم المسلم كالمرابـط يتحسـس الثغـرات في مجتمعـه فيسـدها غـير مبـال بإحسـان النـاس الظن فيـه ولا بمردود شـهرة أو مـال يأتيـه، بـل كـل همـه أن يتقبـل اللـه سـعيه ويعلي ذكره ويبارك في زرعه وجهده.

بمثـــل هـــذه المفـــاهيم الســـامقة لن يبقى في المجتمـــع الإسلامي إلا التعاضد والتـآلف غالبـا ونحقـق ولـو جزئـا يسـيرا مما يضمنه الاقتداء بنهج الرسول الكريم صلى اللـه عليـه وسـلم عند المسابقة بالخيرات.

فإلى أن نشاهد ثمـار هـذا الحـل المهمّش في واقـع حياتنـا، نرجو أن يكون لكل فرد منـا عملا تطوعيـا في حياتـه، وكلمـا تم التنسيق وإدارة الجهود بشكل جماعي هادف. كلما كانت النتائج أكثر تأثيرا وفعالية، ولن تلبث أن تظهـر بركاتهـا على ملامح أمـة أثقل كاهلها طول الانتظار والغفلة.

✿ ✿ ✿

34

منظومة الأخلاق في خطر!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". والمتأمل في معاني هذا الحديث يدرك أن المجتمع الجاهلي لم يكن يخلو من بعض مكارم الأخلاق، والتي نجدها في أشعار الجاهلية ومواقف العرب القديمة الراسخة من كرم وشجاعة ومروءة وإيثار وما يدور في فلك العطاء الإنساني.

نجدها في أشعار عنترة العبسي الذي قال:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك
إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة أنني
أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم

أو في قوله:

وأغض طرفي إن بدت لي
جارتي حتى يواري جارتي مثواها

والأمثلة في هذا الباب تطول، لكن ومع ذلك كان المجتمع الجاهلي فاسدا وينقصه الكثير من الأخلاق والمكارم لتعلقه بالوثنية وعبادة الأصنام والكثير من التيه والضياع، وهو النقصان الذي أتمه وأقام نظم الحياة فيه، الإسلام ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء.

واكتمل صرح منظومة الأخلاق في عصر النبوة بعد أن نزلت آية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا). واستلهم الجيل الفريد من الصحابة الفكرة والمعتقد، فترجم مثاليات الإسلام إلى واقع، وارتفع بالواقع البشري إلى درجة المثال. ويرجع الفضل في هذا التألق إلى الارتباط الوثيق في حس ذلك الجيل بين حقيقة الإيمان وبين القيم الخلقية التي يشتمل عليها هذا الدين. لقد كانت أخلاقهم تنبض بـ (لا إله إلا الله).

ولعل ما يثير الإعجاب بعظمة عطاء ذلك الجيل الناجح، أنهم في حقيقتهم لم يكونوا إلا بشرا، تعتمل في نفوسهم داوفع بني آدم، إلا أن حرصهم على الثبات في مستوى السموق .. فلم يستكينوا للهبوط أبدا ،كان كفيلا بتحقيق التميّز والسبق.

وهذا ما يفسر ولو جزئيا براعتهم في نشر الإسلام في ربوع الأرض الفسيحة وبين الأقوام والملل الكثيرة، حيث اجتذبت

قيمهم الراقيـة كـل من تعامـل معهم. وليسـجل التـاريخ عبقريـة الإسلام وسمو عطائه ومجد حضارته وهذا جزاء من اتبع الأثر.

أمـا اليـوم! فقـد وصـل بنـا خـط الانحـراف الطويـل إلى أمـة ضـعيفة متفرقـة، تحمـل الإسـلام إسـما بلا معـنى، إسـلاما بلا أخلاق، بـل إسـلاما متهالـك القـوى الاجتماعيـة والاقتصـادية والسياسية والعسـكرية والماديـة والروحيـة .. فمـاذا بقى فيـه من حقيقة الإسلام؟!

لقد انحرف المسلمون اليوم عن حقيقة الإسلام التي عرفها العالم في عصر النبوة والصحابة، سلوكا وتصورا. وعزلوا الـدين عن نظم الحياة المختلفة، وتوارت العقيدة وراء مغريـات الـدنيا الفانية، وحسابات البشر القاصـرة، فكـانت نتـائج ذلـك، شـعوبا مهزومة مستسلمة قد هيمن عليها الغرب، وعجزا قد ضـرب في صميم القلب بدت أعراضه في الأجيال المقبلة.

ولا شـك أن تـداعي الـدول الغربيـة وانـدحار المشـروع الاسلامي كـان السـبب الأول في موجـة التغـريب المظلمـة الـتي حقنت القيم الغربيـة المعلبـة في قـوالب مخصصـة للاسـتهلاك الإسـلامي، ليظهـر الانفصـام في أوضـح مشـاهده يغذيـه ذلـك التفلت البشرى الطبيعي من التكاليف كلما امتد الزمان.

وحين نتأمل درجة انهيار المنظومة الأخلاقية اليوم في كل مجالات الحياة، الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية والعسكرية، ندرك أن الإسلام أضحى يعيش غربته الثانية التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد فسدت الأذواق وأصبح الإعلام يقدم ألوانا من اللهو والفساد يتذوقها البعض على أنها ثقافة وحضارة وفن وارتقاء، واستهدفت المرأة بشيء من التخصيص فتجاذبتها دعوات التسفيه والتغريب، رُسمت لها المرأة الغربية مثالا للاقتداء، لتنزع عنها ثوب الحياء وتطمس أنوار العفة والحكمة وتتسابق على سراب الدنيا الزائل وشهوات لا طائل منها ولا خلاص، وأبرزت الراقصة العارية كمثال وقدوة، بكل جرأة، واحتقرت المحتشمة المثابرة باجتهاد وهمة، بكل خسة. ليكون المقياس في نجاحات البشر فاسدا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.. الناجح فيه الأشد انحرافا وفسقا.

وباستهداف المرأة مصنع العطاء في المجتمع الإسلامي، تستهدف الأسرة ويستهدف المسلمون بجموعهم لأجيال متتالية. وكذلك يستهدف يوميا الشباب والأطفال ببرامج هدامة تبث ببهرجة تلفت الأنظار هدفها الأول والأخير سلخ ذلك المسلم وتلك المسلمة من أصالته وعقيدته وخلق الريبة والشك في صدره، وشغله عن معالي الأمور ونافعها والرمي به في حفر

الشهوات والملذات وما حط من اهتمامات البشر. يسوقون مفاهيم لم يعرفها الإسلام بل يترفع عنها، ويحقنون ثقافة لا تمثلنا ولم تكن يوما سبب سعادتنا وتحررنا ورقينا بين الأمم.

لقد انقلبت المفاهيم تماما، وأصبح الالتزام بالدين كالقبض على الجمر والدفاع عنه جريمة لا تغتفر ثم الدعوة إليه تطرف في عصر علمانية تطغى وتحتقر.

وزاد الطينة بلة متنطعون سلطوا أقلامهم لترسخ القيمة فيما يراه الإنسان باجتهاد منه شخصي مهما كان شاذا أو نفعيا أو مبتدعا، وهمّشوا شرع الله، وهاجموا مصادر القيم في تشريعات السماء.

فكانت قيمهم هشّة، مادية بحتة، تستند لنزعات البشر المتغيرة والطالحة، في حين قيم الإسلام لا تتبدل مع الزمان ولا المكان، لا تتأثر بإقبال الدنيا أو إدبارها، لا في موقف قوة وظفر ولا في موقف ضعف وألم. ومع ذلك تخلوا عنها وتمسكوا بالوهن.

ثم لم نجني من الغرب من سوء كمثل تأثر المسلمين بسلطة الثقافة الغالبة، لتصبح الديمقراطية المستوردة أسمى مطالب المسلم والعيش على الطريقة الأمريكية المضطربة قمة الحضارة والتميّز.

في حين وبأدلة الواقع، أثبت الغرب فشل منظومته الأخلاقية ونفاق دعاتها وكساد سوقها، نشاهده بأوضح من الشمس في رابعة النهار في معدلات الجريمة والانحلال والفساد في مجتمعاتهم، نبصره عند كل مواجهة أو حرب، أو أزمة إنسانية أو ضعف، حيث يبرز شبح الجشع والصلف ويكشف الغربي عن وجهه الكالح، محتلا للأرض والفكر، متواريا خلف لافتات حقوق الإنسان والحريات في حين جاء بعسكره وترسانته ليهدم الإنسانية ويستعبد العباد بسياسات الإذلال والقهر وينهب ثرواتهم بدهاء ومكر. ويصطدم المسلم أمام مشهد يردد:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر
وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر

لم يعد صادما لنا أن نشاهد الألفاظ البذيئة تتقاذفها الأصوات التي تحمل أسماء مسلمة، لم يعد مثيرا للهدشة تطاول الصغار على الكبار وتجاوز حدود الاحترام والتوقير بين الفئات بفحش في القول والفعل. وهل يُسلب من إيمان الإنسان إلا بمقدار بذاءة لسانه فقد قال صلى الله عليه وسلم: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذئ).

لم يعـد مسـتهجنا اختفـاء الأخلاق والقيم لتحـل محلهـا الواجبات الوطنية أو النفعية الأنانية باسم الحرية والتحضر.

لم يعـد غريبـا استشـراء الكـذب والافـتراء، ولا نشـر الإفـك والبهتـان ولا تسـخيف الحيـاء والحلم، ولا تضـييع الأمانـة والعهد، والغاية تبرر الوسيلة.

لم يعـد ينكـر أحـد جـرائم العـدوان والظلم والاحتيـال حين قسى القلب وتحجـر، لقـد أصبـح دم المسـلم رخيصـا وحرمته مهانـة وسـلب حقوقـه وابـتزاز ممتلكاتـه مستصـاغا، وكـثرة المساس تفقد الإحساس.

ذلك أن أزمتنا الأخلاقية قد تجذرت في عمقنـا، في أنفسـنا وفي كل ما يتعلق بحياتنا. نبصرها في الأسرة الواحدة بين المـرء وأخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيـه وكـل من في محيطـه القـريب والبعيـد، نبصـرها في المؤسسـات والجامعـات، في الأسـواق والتجمعات، في مجـالات العمـل والتجـارة والمـال، في مواقـع التواصل والإعلام، في ثورات الشـعوب وحـتى المقاومـات، في كل حلقة وصل بين اثنين، نبصرها في سوريا واليمن وفلسـطين وكـل بلاد بهـا ألم أو فاقـة تركناهـا لوحـدها تسـتجدي الرحمـة والإغاثة! لم يعد هناك من خط خشية أو تقوى، فكيـف سـتكون النتائج مع مثل هذه الفوضى ثم نسترجي النصر!

لقد أخطأ من جعل الأزمة الأخلاقية في هامش أزمات الأمة اليوم، بل هي محور أزماتها وسبب استضعافها كما يكون علاجها سبب عودتها ونهضتها ومقياس حضارتها ورقيها، أو لم تسمع لقول أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبواً

فإن لم يتدارك كل مسلم ومسلمة نفسه ثم أسرته ثم محيطه بالحرص على القيم السامية للإسلام العظيم وبنشرها بين الجموع للتأثير، إن لم يتدارك كل راع رعيته لحفظها من هذا الخطر الداهم، فلن نحلم بتجاوز مرحلة الاستضعاف التي نحن فيها اليوم.

نعم لقد أضحت منظومة الأخلاق لدينا في خطر، وإن لم نتداركها بسرعة كي تثبت، فذاك شر مستطر.

✿ ✿ ✿

تمّ بفضل الله.. (09/02/2021)

حقوق النشر محفوظة لجميع المسلمين والمسلمات.

يُرجى ممن شاء نشر الكتاب أن يتواصل مع فريق

يقظة على البريد الإلكتروني التالي:

yakadamagcontact@gmail.com